

في انتظار البرابرة

ترجمة

تأليف

ابتسام عبد الله

ج. م. كوتزي

المشروع القومى للترجمة

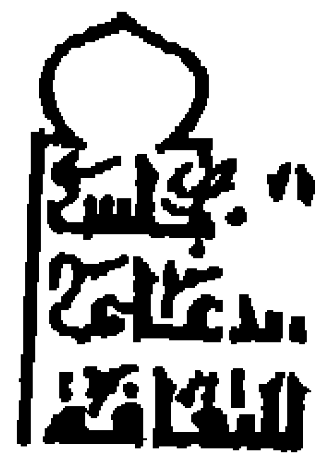
فى انتظار البرابرة

تأليف

ج. م. كوتزى

ترجمة

ابن ساء عبد الله



٢٠٠٠

هذه ترجمة لرواية:

Waiting for the Barbarians
By
J.M.Coetzee

لم أرَ قط شيئاً يماثلُه: قرصان صغيران من الزجاج معلقان أمام عينيهِ بعروبتين من سلك. أهو أعمى ؟ بمقدورى أن أفهم الأمر إن كان يريد إخفاء عماه. لكنه ليس أعمى. لفرصان أسودان، يبدوان مستديرين من الخارج، لكنه قادر على لرؤية من خلالهما. يقول لى إنهما اختراع حديث. ويقول: إنهما يحميان عيني المرء من توهج أشعة الشمس، ستجدهما مفيدتين. هنا، فى هذه الصحراء. إنهما يحميان المرء من التحديق باستمراره وسبب صاب المرء بحالات صداد أقل، انظر . يتلمس زوبا عنيه برفق، لا تجاعيد . يعيد العدستين إلى مكانهما. ما يقوله صحيح، وهو يمتلك بشرة رجل أقل سنا. فى الوطن، يرتديهما كل واحد .

نجلس فى أفضل غرفة فى الفندق، بيننا دورق وطاس من المكسرت. لا نناقش سبب وجوده هنا. إنه هنا بسبب قوة الطوارىء وفى ذلك الكفاية. بدلاً عن ذلك نتحدث عن الصيد. يحكى لى عن آخر رحلة صيد كبيرة ذهب إليها، عندما تم ذبح آلاف الغزلان والخنازير والدببة، الكثير جداً منها، بحيث إن جبال من اجساد الدبائح تكون وتوجب تركها لتتعفن كان أمراً مؤسفاً. أحكى له عن القطعان الكبيرة للأوز والبط التى تهبط

نحو البحيرة، سنوياً، في هجرتها، وعن الوسائل المحلية لاصطيادها. أقترح أن آخذه خارجاً للصيد ليلاً في قارب محلي. أقول: تلك تجربة لا يمكن أن تفوتك. يحمل الصيادون مشاعل متوهجة ويضربون على الطبول، فوق الماء، لتوجيه الأسماك نحو الشباك التي نصبوها . يومى برأسه. يحدثنى عن زيارة قام بها إلى مكان آخر من الحدود حيث يأكل الناس ثعابين معينة كطعام مترف، وعن وعل قام باصطياده أيضاً.

يختار طريقه بحذر بين قطع الأثاث الغريبة عنه، ولكنه لا ينزع عدستيه السوداءوين. يأوى إلى فراشه مبكراً. إنه استقر هنا في الفندق، لأنه المكان الذى يقدم أفضل الخدمات فى البلدة. لقد أعطيت انطباعاً للعاملين فى الفندق بأنه ضيف مهم. العميد جول من المكتب الثالث ، هكذا قلت لهم، وأضفت، المكتب الثالث هو أهم الفصائل فى الحرس الوطنى، فى هذه الأيام. هذا ما نسمعه، على أى حال، فى الأقاويل التى تردنا، متأخرة، من العاصمة. يومئى مالك الفندق برأسه، وتخفص الخادمت رؤوسهن. علينا أن نترك انطباعاً جيداً لديه .

أحمل فراشى خارجاً، على المتاريس، حيث نسيم الليل يمنح بعض الراحة من الحر. على الأسطح المنبسطة للمدينة، أستطيع أن أميز، على ضوء القمر، أشكال نائمين آخرين، ومن تحت أشجار الجوز، على الساحة، لا أزال أسمع دمدقات مناقشة ما. يتوهج غليون فى العتمة مثل براءة، يتضاءل

الوهج، ثم يتقد ثانية. الصيف يدور نحو نهايته. أشجار البساتين تتأوه تحت ثقلها. لم أشاهد العاصمة منذ كنت شاباً.

أستيقظ قبل الفجر. أجتاز، على رؤوس أصابع قدمي، الجنود النائمين، الذين يتحركون قليلاً ويتنهدون، يحلمون بأمهات وحبيبات، أنزل لدرجات. آلاف لنجوم في السماء تتطلع إلينا من فوق. حفاً، نحن هنا على سفح العالم. الاستيقاظ في الليل، في مكان مفتوح، يبهر النفس.

الحارس عند البوابة، يجلس متقاطع الساقين، غارقاً في النوم، يحتضن بندقيته. مضجع لبواب مغلق، عربته تقف في الخارج. أمر.

* * *

لا توجد لدينا تسهيلات للسجناء، أفسر الأمر وأقول: لا توجد جرائم كبيرة هنا، والعقوبة، عادة، غرامة أو عمل إلزامي. هذا الكوخ، هو ببساطة، غرفة ملحقة بمخزن الحبوب، كما يمكنك ملاحظة الأمر. الهواء ثقيل في الداخل ونو رائحة كريهة. لا نوافذ هنا. السجينان يستلقيان مفيدتين على الأرض. الرائحة تفوح منهما. رائحة بول قديم. أنادى على الحارس للدخول: دع هذين الرجلين ينظفان نفسيهما، وأسرع رجاءً.

أتقدم ضيفي إلى داخل مخزن الحبوب البارد المظلم. نأمل

بثلاثة آلاف (بوشل) (*) هذا لعام، من الأرض المشتركة. نحن نزرع مرة واحدة فقط. لجو كان رحيماً جداً بنا . نتحدث عن لجرذن ووسائل السيطرة على أعدادها. عندما نعود إلى لكوخ، نجد رثّة رماد رطب تفوح منه، ولسجيين مستعدين، راكعين في زاوية. أحدهما رجل كبير السن، والآخر صبي. أقول: لقد سجننا منذ أيام قليلة. كانت هناك غارة على مسافة عشرين ميلاً من هنا. ذلك أمر غير طبيعي. إنهم، اعتيادياً، يحرصون على البقاء بعيداً عن الحصن. اعتقل هذان الاثنان بعدئذ. يقولان ألا علاقة لهما بالغارة. لا أعرف. ربما يقولان الحقيقة. إن كنت تريد التحدث معهما، سأقدم، بطبيعة الحال، مساعدتي فيما يخص اللغة .

وجه الصبي منتفخ وبه كدمات، عين واحدة منغلقة تورماً. أجلس القرفصاء أمامه ورّبت على خده. أنصت يا ولد ، أقول ذلك باللهجة المحلية للحدود، وأضيف: نريد التحدث إليك .

لا تصدر منه استجابة ما.

يقول الحارس: إنه يتظاهر، إنه يفهم .
أسأل، من ضربه؟

يقول: لم أكن أنا. كان هكذا عند مجيئه .

(*) بوشل Bushel : مكيال يعادل جالون.

أَسأل الصبى: من ضربك؟

إنه غير مصغ إلىّ، يتطلع من فوق كتفى، ليس إلى الحارس ولكن إلى لعميد جول بجوره.

استدير نحو جول وأشير: ربما لم ير شيئاً مثله من قبل. أعنى العوينات. لابد أنه يعتقد بأنك أعمى. ولكن جول لا يبادلنى الابتسام. يبدو أن المرء أمام لسجناء يحافظ على مظهر معين.

أجلس لقرصاء أمام الرجل لعجوز. أيها الأب، أصغ إلىّ. لقد جئنا بك إلى هنا لأننا قبضنا عليك بعد غارة على الموشى. ننت تعلم أنها مسألة مهمة. تعرف أنك قد تعاقب عليها.

يخرج لسانه لترطيب شفثيه. وجهه كئيب ومتعب. أيها الأب. هل ترى هذا السيد؟ هذا السيد يزورنا، قادماً من العاصمة. إنه يزور كافة الحصون على امتداد الحدود. عمله هو التعرف على الحقيقة. هذا هو كل ما يفعله. يتعرف على الحقيقة. إن لم تتحدث معى، فسيكون عليك التحدث معه. هل تفهم؟. صاحب السعادة.. يتحشج صوته، ينظف بلعومه صاحب السعادة نحن لا نعرف شيئاً عن السرقة. لقد أوقعنا الجنود وربطونا بإحكام. من أجل لا شيء. كنا على الطريق، قادمين إلى هنا لرؤية لطبيب. هذا ابن شقيقتى. لديه جرح متفرح لا يتحسن. نحن لسنا بسرّاق. أظهر قرحتك لصاحب السعادة.

بخفة، ويبد واحد وبأسنانه يبدأ الصبى بفك الخرق لتي
تضمده ساعده. اللفات لأخيرة منها ملوثة بالدم ولقيح، لكنه
يرفع حافاتها ليرينى الحافة الحمراء لمحتقنة للورم.

يقول الرجل العجوز، كما ترى، لا شىء يشفيها. كنت
أجلبه إلى لطبيب، عندما وقفنا الجنود. هذا كل ما فى الأمر .

أعود أدراجى مع ضيفى عبر الساحة. تمر بنا ثلاث نسوة
قادمات من خزان لرى يحملن سلال الغسيل على رؤوسهن.
يتطلعن إلينا بفضول. محتفظات بأعناقهن متصلبة. لشمس
تجلدنا.

أقول، منذ أمد بعيد، لم نحتجز غير هذين لسجينين. إنها
المصادفة. فى لحالات لاعتيادية، لا يكون لدينا أى بربرى
على الإطلاق، حتى نريك إياه. ما يسمى بلصوص قطع الطرق
لا يعنى الكثير. إنهم يسرقون بعض الخراف أو يقطعون وثاق
دابة من قطار. نحن نشن هجوماً مفاعلاً عليهم أحياناً. إنهم
أساساً، رجال قبائل معوزين، يمتلكون قطعانا محدودة من
المواشى، يعيشون على ضفاف لنهر. إنها تصبح وسيلة للحياة.
يقول الرجل العجوز إنهما كانا فى طريفهما لرؤية طبيب. ربما
هى لحقيقة. لم يكن أحد سيضطرب معه رجلاً عجوزاً وصيباً
مريضاً فى فريق هجوم.

زداد وعيا بأننى سأصبح مدافعا عنهما.

بالتأكيد، لا يمكن للمرء أن يكون جازماً. ولكن حتى إن
كانا كاذبين، كيف يمكنهما أن يكونا ذوا فائدة بالنسبة لك. أناس
بسطاء مثلهما ؟

حاول أن تخفف انفعالي تجاه صمته لمحير الذى يخفى
شيئاً، وزاء لغموض المسرحى الردىء لحاجبيه الداكنين
الذين يخفيان عينيّن سليميتين. يسير ويداه مشبوكتان أمامه، مثل
امرأة.

يقول، على الرغم من ذلك، يتوجب على استجوابهما، هذا
المساء، إن كان الوقت ملائماً. سأخذ معى مساعدى، كما
سأحتاج إلى شخص ما يساعدى فى اللغة. ربما الحارس. هل
يتحدث تلك اللغة؟

بإمكاننا جميعاً لتفاهم. هل تفضل عدم وجودى هناك؟
ستجد لأمر مرهقاً. لقد وضعنا الإجراءات وسنفوم
بتنفيذها .

* * *

من الصرخ الذى ادعى الناس بعدئذ أنهم قد سمعوه آتياً من
مخزن الحبوب، لم أسمع أنا شيئاً. فى كل لحظة من ذلك
المساء، وأنا ماض فى عملى، أدرك ما كان ممكناً أن يجرى.
وسمعى يتوفق مطردا مع نروة لألم لبشرى. ولكن مخزن

الحبوب، مبنى ضخم، ذو أبواب ثقيلة ونوافذ صغيرة. إنه يقع خلف المسلخ والطاحونة، في جهة الجنوب. وفضلاً عن ذلك، فإن ما كان يوماً مخفراً أمامياً ثم حصناً على الحدود، قد نما وتطور إلى مستوطنة زراعية، بلدة يبلغ عدد نفوسها ثلاثة آلاف نسمة، حيث صوت الحياة، الصوت الذي يصدر عن كل هذه النفوس، في أمسية صيف ساخنة، لا يهدأ، إذ لا بد من وجود أحد ما يبكي في مكان ما. (بدرجة معينة، أبدأ في الترفع عن قضيتي الخاصة).

عندما أرى العميد جول ثانية، لما يكون متمتعاً براحتة، أتطرق في الحديث إلى التعذيب. أسأل، ماذا لو كان سجينك يقول الحقيقة، ومع ذلك لا يجد من يصدقه. ألا يعد الأمر فظيعة؟ تخيل: أن تستعد للاستسلام، تستسلم، إن لا تملك شيئاً آخر تستسلم له، إن تحطم، مع ذلك، يضغط عليك للاستسلام أكثر! وأي مسؤولية لمن يقوم بالاستجواب! كيف بمسألة أن تعرف أبدأ إن كان الرجل قد أخبرك الحقيقة؟

يفول جول، هناك نغمة معينة في الصوت. نغمة معينة تدخل إلى صوت رجل ما يقول الحقيقة. التدرج والخبرة تعلمنا تمييز تلك النغمة.

نغمة الحقيقة! هل بإمكانك التقاط هذه النغمة في الحديث البومى؟ هل أنت قادر على سماع ما إذا كنت أقول الحقيقة؟

هذه اللحظة هي الأكثر ألفة، التي جمعت بيننا حتى هذا الوقت، والتي صدها بإشارة طفيفة من يده. لا، أنت تسيء فهمي. إننى أتحدث الآن فقط عن حالة معينة. أتحدث عن حالة أسبر فيها بحثاً عن الحقيقة، وعلى فيها أن أمارس الضغط للعثور عليها. أتلقى أولاً أكاذيب، هذا يحدث، كما ترى - أكاذيب فى البداية، ثم ضغط، ثم المزيد من الأكاذيب، ومزيد من الضغط، ثم الانهيار، ومزيد من الضغط، ثم الحقيقة. هكذا يمكنك الحصول على الحقيقة .

الألم هو الحقيقة، وكل ما سواه يخضع للشك. هذا ما أحمله معى من حديثى مع العميد جول. والذي بأظافر أصابعه المستدقة، وأوشحته البنفسجية الزاهية، وقدميه الهزيلتين فى أحذية ناعمة، أبغى أنا متخيلاً إياه، وهو فى العاصمة، لتي يتوق إليها بشدة، مدمدا لأصدقائه فى أروقة المسرح ما بين استراحة الفصول.

(من جهة أخرى، من أكون أنا كى أؤكد على بعدى عنه؟ أحتسى أنا الشراب معه، أتناول الطعام معه، أريه ما هو جدير بالمشاهدة، أقدم له كل مساعدة ممكنة كما يتطلبه أمر تفويضه، وأكثر. لإمبراطورية لا تطلب من موظفيها أن يحب أحدهم الآخر، بل أن يؤدوا واجباتهم فحسب).

* * *

التقرير الذى يقدمه لى ضمن وظيفتى كقاض، مختصر .

فى خلال سير التحقيق بدت تناقضات واضحة فى إفادة السجين. المواجهة مع هذه التناقضات أدت إلى تهيج السجين ومهاجمته الموظف المكلف بالتحقيق. حدث شغب، وفى خلاله سقط المتهم بقوة نحو الجدار. محاولات إنعاشه باءت بالفشل .

من أجل الوصول إلى الكمال كما هو مطلوب من قبل رسالة القانون، دعوت الحارس وطلبت منه تقديم إفادة. كان يسرد وأنا أسجل كلماته: أصبح السجين خارج نطاق السيطرة، وهاجم الموظف الزائر. استدعيت إلى الداخل للمساعدة فى تهدئته. فى الوقت الذى دخلت فيه المكان، كان الشجار قد انتهى. كان السجين فاقد الوعي والدم ينزف من أنفه. أشير إلى المكان الذى عليه أن يضع توقيع فيه. يأخذ القلم منى باحترام.

أسأله بلطف: هل أخبرك الضابط بما تقوله لى؟

يقول: نعم، سيدي .

هل كانت يدا السجين موثقتين؟

نعم، سيدي، أعنى لا، سيدي.

أصرفه وأملأ استمارة رخصة الدفن.

ولكن قبل ذهابى إلى الفراش، آخذ فانوسا، أعبّر الساحة، وأدور عبر الشوارع الخلفية إلى مخزن الحبوب. هناك حارس جديد عند باب الكوخ، فلاح صبي آخر نائم ملتفاً ببطانته.

صر صار ليل يتوقف عن غناؤه عند اقترابى. سحب المزلاج لم يوقظ الحارس. أدخل الكوخ مع رفع الفانوس عالياً، معتدياً، كما اعتقد، على ما قد غدا أرضاً مقدسة أو دنسة، إن كان فى ذلك أى اختلاف، حافظة أسرار الدولة.

الصبى نائم على فراش من الفش فى زاوية، حى وفى حالة جيدة. يبدو كأنه نائم. ولكن توتر حالته يخونه. يدها موثقتان أمامه. فى الزاوية الأخرى، حزمة بيضاء طويلة.

أوقظ الحارس. من أخبرك بترك الجثة هناك؟ من خاطها؟

يسمع الغضب فى صوتى. كان ذلك الرجل الذى جاء مع صاحب السعادة الآخر، سيدى. كان هنا عندها حضرت لتسلم مأموريّتى. قال للصبى، أنا سمعته، نم مع جدك، أبقه دافئاً. تظاهر بأنه يحاول خياطة الصبى أيضاً مع الكفن، الكفن نفسه، ولكنه لم يفعل .

بينما يبقى الصبى ممدداً. نائماً، متصلب الجسم، عيناه مغلقتان بإحكام، نحمل الجثة خارجاً. وفى الفناء، بينما الحارس يمسك بالفانوس، أجد موضع الدرزة، بنصل سكينى، أمزق الكفن وأفتحه، أطويه خلفاً من جهة رأس الرجل العجوز.

الliche الرمادية مكسوة بالدم. الشفتان منسحقتان ومدفوعتان إلى وراء، الأسنان مكسورة، عين متدحرجة إلى الخلف، ومحجر العين الأخرى، حفرة دامية. أقول، أغلقه، يضم

الحارس طرفى الثغرة، لكن الكفن يتدلى مفتوحاً. يقولون إن رأسه اصطدم بالجدار، ما الذى تعتقده أنت؟ ينظر نحوى بحذر. أجلب بعض خيوط القنب وأربط الكفن بشدة .

أمسك بالفانوس فوق الصبى. إنه لم يتحرك، ولكننى أنحنى لألمس خده يجفل ويبدأ بالارتعاش بتموجات طويلة، تمتد إلى أعلى جسده وأسفله. أقول: أصغ إلى، يا ولد، لن أقدم على إيدائك. يتدحرج على ظهره، مقدماً يديه الموتقتين أمام وجوهنا. إنهما منتفختان وقرمزيتان. أتلمس الفيود بارتباك. كل تحركاتى تجاه الصبى خرقاً. اسمع، عليك أن تقول الحقيقة للضابط. ذلك كل ما يريده منك - الحقيقة. انه لن يؤذيك عندما يتأكد من أنك تقول الحقيقة. ولكن عليك أن تحكى له كل ما تعرف. عليك أن تجيب عن كل سؤال يوجهه إليك، بصدق، لا تياس إن تعرضت للألم . ملتقطاً العقدة، انجح أخيراً فى حل الحبل. افرك كفيك بعضهما ببعض كي يبدأ الدم بالسريان . أفرك كفيه بكفى يلوى أصابعه متألماً. لا أستطيع التظاهر بكونى أفضل من أم تهدئ طفلها، بين نوبات غضب والده. لم يفتنى أنه بإمكان المحقق أن يرتدى قناعين، أن يتحدث بصوتين، الأول فظ، الثانى مخادع.

أسأل الحارس، هل كان لديه أى شىء ليتناول به هذا المساء؟
لا أعرف.

هل كان لديك ما تأكله؟ . أسأل الصبى. يهز رأسه. أحس بالأسى يثقل قلبى. لم أتمن قط الانجرار إلى هذا الموقف. إلى أين سينتهى، لا أدرى. أستدبر نحو الحارس. سأغادر الآن. ولكن هناك ثلاثة أشياء أريد منك تنفيذها. الأول، أريد منك، بعد تحسن يدى الصبى، ربطهما ثانية، لكن ليس بتلك الشدة التى تؤدى إلى تورمهما. ثانياً، أريدك أن تبفى الجثة فى مكانها، فى الفناء، لا تعدها إلى هنا. سأبعث، فى ساعة مبكرة من الصباح، بفريق الدفن لأخذها، وستسلمها لهم. إن كانت هناك أى أسئلة، قل إننى أعطيت الأوامر. ثالثاً، أريدك أن تغلق الكوخ الآن، وتعال معى. سأجلب لك شيئاً من المطبخ لتعود به، ويأكله الصبى. تعال .

لم أكن أعنى التورط فى الأمر. أنا قاض مدنى، مسؤول فى خدمة الإمبراطورية. أكمل ما تبفى من خدمتى، فى هذه الحدود الباعثة على الكسل، منتظراً التقاعد، أجمع العشور والضرائب، أدير الأراضى المشاعة، أتابع سريان إمدادات الحامية، أشرف على الموظفين الأدنى، الذين هم الموظفون الوحيدون لدينا هنا، أراقب التجار، أترأس المحكمة الصغرى مرتين فى الأسبوع. وما تبفى، أرقب الشمس فى شروقها وغروبها. أكل وأنام، وأحس بالاكْتفاء. وعندما أرحل، أمل أن أكون جديراً بثلاثة أسطر بحروف صغيرة فى صحيفة الإمبراطورية. أنا لم أطلب أكثر من حياة هادئة فى زمن هادئ.

ولكن قصص العام الماضي بدأت تصلنا من العاصمة، عن اضطراب بين البرابرة تجار يسافرون عبر طرق آمنة، هوجموا ونهبوا، لصوص المواشى ازدادوا نسبة وجرأة. فريق من موظفى الإحصاء الرسمى، اختفوا، وتم اكتشافهم، مدفونين فى قبور ضحلة. نيران أطلقت على حاكم إقليم فى خلال جولة تفتيشية، اشتباكات حدثت مع دوريات الحدود. القبائل البربرية كانت مسلحة، مضت الإشاعة. على الإمبراطورية أن تتخذ إجراءات وقائية، إذ إن حرباً ستتشب بالتأكد.

أنا شخصياً، لم أر، من هذا الاضطراب، شيئاً. لاحظت، بشكل خاص، أنه يحدث مرة فى كل جيل، حالة من هستيريا حول البرابرة، ولم أخذل ولا مرة. ليست هناك امرأة واحدة تعيش على طول الحدود، لم تحلم بيد برابرة سوداء تخرج من تحت السرير لتمسك بكاحلها، ولا يوجد رجل لم يخوف نفسه لرؤى عن برابرة يسرفون فى شرب الخمر فى منزله، يكسرون الأواني، يشعلون النار فى الستائر، ويغتصبون بناته. الأحلام هذه هي نتيجة اليسر التام. أرونى جيشاً بربرياً، وسأكون لكم مصدقاً.

فى العاصمة كان مثار الاهتمام، إن قبائل البرابرة فى الشمال والغرب ستتوحد أخيراً. تم إرسال ضباط هيئة الأركان العامة، فى جولات على الحدود. عززت بعض الحصون وتمت تقويتها. أعطيت حماية عسكرية لتجار طلبوها. ضباط المكتب

الثالث للحرس المدني، شوهوا للمرة الأولى على الحدود،
حماة الدولة، المختصون بحركات التمرد السرية، المتعصبون
للحقيقة، العلماء في الاستجواب. وهكذا يبدو أن أعوامي الهينة
مقبلة على نهايتها، عندما أكون قادراً على النوم بقلب هادئ
عارفاً أنه بوكزة من هنا ولمسة من هناك، فإن العالم سيبقى
مستقراً في سيره. لو أنني فقط كنت قد سلمت هذين السجينين
المنافيين للعقل إلى العميد، أفكر ملياً - أيها العميد، ها هما، إنك
المختص. تدبر ما ستفعله بهما - لو أنني كنت قد ذهبت في
رحلة صيد لبضعة أيام، كما كان لزاماً عليّ أن أفعل، ربما
زيارة لأعلى النهر، والدودة، وبدن قراءته، أو بعد إلقاء
نظرة عجلية عليه بعين غير مبالية، أضع ختمى على تقريره،
دون أي جدل حول ما تعنيه كلمة تحقيقات، ما يقع تحتها من
مسؤولية، مثل بانشى(*) تحت حجارة - لو كنت قد فعلت الأمر
الحكيم، آذن، لربما كان باستطاعتي الآن العودة إلى صيدى
بالصفور وتجوالى الرائق في خلال انتظاري للقلقل أن تتوقف
والفوضى على طول الحدود أن تخمد. ولكننى، ويا للأسف، لم
أبتعد عن المكان، أغلقت أننى برهة عن الأصوات القادمة من
الكوخ بجوار مخزن الحبوب، حيث تحفظ الأدوات. بعدئذ،
حملت فانوساً، وخرجت ليلاً لأرى بنفسى.

* * *

(*) بانشى BANSHEE، روح شريرة يجلب عويلها لموت إلى الدار.

الأرض بيضاء بسبب الثلوج من أفق إلى أفق. إنه ينهمر من السماء التي هي مصدر ضياء منتشر وموجود في كل مكان، وكأنما الشمس قد ذابت في سديم وتحولت إلى هالة. في الحلم، أجتاز بوابة التكنات، أمر بسارية العلم العارية. تمتد الساحة أمامي، تتداح أطرافها مع السماء ذات الطلاء الفضى، جدران أشجار وخيول تضاءلت وفقدت صلابتها منكفئة فوق حافة العالم.

بينما أنزلق عبر الساحة، تتفصل أشكال سوداء عن البياض، أطفال في لعبهم، يبنون قصرًا من الثلج، ينصبون علماً ذا لون أحمر على قمته. وهم يرتدون القفازات وأحذية طويلة الساق، ملّفين ضد البرد. يجلبون حفنة إثر حفنة من الثلج. يلصقون جدران قصرهم، يملأون فراغاته. أنفاسهم تغادرهم في نفثات بيض. السور حول القصر نصف مبنى. أجهد نفسي لأنفذ من ضجيج أصواتهم المثرثرة بطلاقة. ولكننى لا أقدر.

أنا واع لجسدى وظلى القائم، ولهذا السبب لا أندesh من اختفاء الأطفال على الجهتين مع اقترابى منهم. كلهم ما عدا واحدة. أكبر من الآخرين. ربما لا يمكن عدها طفلة. إنها تجلس في الثلج، رأسها مغطى بقلنسوة، مديرة ظهرها لى، منهمكة في بناء باب الفصر، ساقاها مدودتان، تحفر، تربت، تقولب. أقف خلفها وأرقبها. إنها لا تستدير نحوى. أحاول أن

أتخيل الوجه الذى تضمه تويجات غطاء رأسها المستدق
الأطراف ولكننى لا أقدر.

* * *

يستلقى الصبى على ظهره، عارياً، غارقاً فى النوم، يتنفس
بسرعة، أنفاسه غير عميقة. يتلألأ جلده بالعرق. الضماد
مرفوع وللمرة الأولى عن ذراعه. أرى الفيح الملتهب المفتوح
المختفى تحته. أقرب الفانوس منه. أجد أن بطنه وأعلى فخذه
مجدرة بفشور صغيرة وكدمات وجروح. بعضها موسوم بالدم.

أهمس للحارس، وهو الشاب نفسه الذى كان ليلة أمس. ما
الذى فعلوه به؟ يجيب هامساً: مجرد سكين صغير، مثل هذا.
وبمد الإبهام والسبابة. ممسكاً بسكينه الصغير فى الهواء،
مشيراً إلى طعنة مفتضبة فى جسد الصبى النائم، ثم تدبر
السكين برقة، مثل مفتاح، إلى اليسار أولاً ثم اليمين. يسحب
السكين بعد ذلك. تعود يداه إلى جانبيه، يقف منتظراً.

أنحنى فوق الصبى وأهزه، معرباً الضياء من وجهه. يفتح
عينيه الواهنتين يغلقهما ثانية فيما بعد. يتنهد، أنفاسه السريعة
تتباطأ. أقول له: اسمع! كنت ترى حلماً سيئاً. يجب أن
تسنيقظ. يفتح عينيه ثم يحولهما نحوى من خلف الضياء.

ي قدم الحارس إلينا إناء فيه ماء. أسأل: هل يودر على

الجلوس؟ يهز الحارس رأسه. يقوم برفع الصبى ويساعده على احتساء الماء.

سمع ، أقول له. يقولون إنك قدمت اعترافاً، يقولون إنك قد اعترفت بأنك والرجل العجوز ورجالاً آخرين من قبيلتك، قمتم بسرقة المواشى والخيول. وإنك قد ذكرت أن أفراد قبيلتك يسلمون أنفسهم، وإنكم عازمون فى الربيع، على المشاركة جميعاً فى شن حرب كبيرة على الإمبراطورية. هل تقول الحقيقة؟! هل تفهم ماذا سيعنى اعترافك هذا هل تفهم؟ أتوقف. يتطلع نحوى بنظرة خالية من التعبير إزاء كل هذه الشدة، مثل شخص متعب إثر ركضه مسافة كبيرة. إنه يعنى أن الجنود سينطلقون ضد قبيلتك، سيكون هناك قتال. وأقاربك سيقتلون، وربما حتى والداك، أشقاؤك وشقيقاتك، هل تريد ذلك حقاً؟ لا يبدى الصبى ردة فعل ما. أهر كتفيه، أصفعه على خده، لا يجفل: الأمر، مثل ضرب جسد ميت. يهمس الحارس من خلفى، أعتقد إنه مريض جداً، متفيح تماماً، يخلق الصبى عينيه على.

* * *

أستدعى الطبيب الوحيد الموجود، رجل مسن، يحصل على رزقه من قلع الأسنان وعمل عقاقير مثيرة للشهوة من مسحوق العظام ودم السحالى. يضع كمادة من صلصال ومسحة من

مرهم على مئات الطعنات الصغيرة. يعدنا بأن الصبي سيكون قادراً على السير خلال أسبوع ويوصى بطعام مغذٍ له ثم يغادر على عجل، ولا يسأل عن كيفية التي يتحمل بها جروحه.

ولكن العميد قد نفذ صبره. خطته هي بدء حملة سريعة على قبائل البدو والقبض على المزيد من السجناء. وهو يريد أخذ الصبي معه دليلاً. يطلب منى التخلي عن ثلاثين جندياً من الحامية، من مجموع أربعين وتزويدهم بالخيل.

أحاول إثباته. أقول: ليس من منطلق عدم احترام، لكنك لست جندياً محترفاً أبها العميد، لم يسبق لك أن قمت قط بحملة في هذه المناطق القاسية. ستكون بلا دليل، غير الدليل الذي يرتجف منك، والذي سيفول أى شيء يرد بباله من أجل إرضائك، وهو بكل الأحوال غير ملائم للسفر. انك لن تستطيع الاعتماد على جنودك لمساعدتك. انهم مجرد فلاحين مجندين لم يسافر غالبيتهم أبعد من خمسة أميال عن المستوطنة. البرابرة الذين تطاردتهم سيثمنون قدومك وسيختفون في الصحراء، وأنت ما زلت لم تقطع غير مسافة يوم من المسير. لقد عاشوا هنا طوال عمرهم، يعرفون الأرض. أنت وأنا غرباء - أنت أكثر منى في ذلك. أنا أنصحك بإخلاص بعدم الذهاب .

بصغى إلى حتى أنهى من كلامى بل وحتى (لدى هذا الإحساس) يغرينى بالاسترسال بعض الشيء. أنا واثق من أن

هذه المحادثة، دونت بعدئذ، مع ملاحظة عليها بأننى غير سليم عقلياً . عندما استمع إلى ما فيه الكفاية، يرفض اعتراضاتى: أنا مكلف بمهمة وعلى إكمالها. أيها القاضى أنا وحدى أقدر أن أحكم متى يكون عملى جاهزاً . ويمضى قدما فى استعداداته.

يسافر فى عربته السوداء ذات العجلتين ومعه فراش للرحلات ومنضدة كتابية مطوية، مشدودة إلى السفف. أزوده بالخيول، عربات النفل وعلف وكافة التجهيزات اللازمة لثلاثة أسابيع. يرافقه فى الرحلة ملازم أصغر سنا من أفراد الحامية. أتحدث على انفراد، مع الملازم: لا تعتمد على دليلك، إنه ضعيف البنية وخائف. راقب الجو. لاحظ علامات الجنود. مهمتك الأولى هى العودة بضيفنا سالماً . يسلم منحنيّاً.

اقترب من جول ثانية، محاولاً معرفة المخطط التمهيدى لنواياه. يقط: نعم، لن أجد نفسى ملزماً بتعهد وجهة سير مقدماً. وأقول بشكل عام، إننا سنحدد الموضع الذى يخيم فيه هؤلاء البدو الرحل، جماعتك، ثم سنتقدم أبعد كما تقتضى الحالة .

. واستمر: إننى أسأل لسبب واحد لأنك إن فُدت، تصبح مهمتنا هى العثور عليك وإعادتك إلى الحضارة . نتوقف عن الكلام، متذوقين وجهتى النظر المختلفة بيننا، وما تتضمنه الكلمات من تهكم. يقول: نعم، بالتأكيد ولكن ذلك بعيد

الاحتمال. محظوظون نحن لامتلاكنا الخرائط الممتازة للإقليم
التي جهزت من قبلكم.

تلك الخرائط غير معتمدة إلا على القليل، ومستندة إلى ما
يسمع ويفال، أيها الكولونيل. لقد جمعتها معا نقلا عن بيانات
مسافرين طوال مدة تمتد إلى عشرة أعوام أو عشرين عاما. أنا
شخصيا لم أضع قدما في الموقع الذي تخطط الذهاب إليه. أنا
ببساطة أحذرك .

منذ يومه لثاني في هذه الأرجاء، كنت غاية في الفلق في
حضوره، كي أكون أكثر من منضبط في معاملتي ياه. أعتقد،
أنه مثل جلاد جوال، معتاد على أن يتجنب. (أم إنه في لأقاليم
فحسب، ما يزال الناس يعتقدون إن لجلادين والذين يمارسون
التعذيب، هم لنجسون؟) متطلعا إليه، أتعجب كيف أحس في
المرة الأولى بالذات: هل إنه دعى كمبتدئ قليل الخبرة ليلوى
الكماشة أو ليدير اللولب أو أى شىء من الأمور التي
يمارسونها. ارتجف تماما بعض الشىء، وهو يعلم أنه في تلك
الحالة، كان يتجاوز إلى ما هو محرم؟ أجد نفسى متسائلا ما إذا
كانت له طقوس خاصة للتطهر، تجرى خلف أبواب مغلقة، كي
تجيز له أن يعود ويتقاسم الخبز مع رجال آخرين. هل يغسل
يديه باعتناء، أو ربما يغير كافة ملابسه، أم ان المكتب الثالث
بتدع رجالا جدداء، باستطاعتهم المرور من غير قلق بين
الطاهرين والمدنسين؟

فى ساعة متأخرة من الليل أسمع صرير طبول الفرقة الموسيقية وقرعها تحت أشجار الجوز العتيقة، عبر الساحة. هناك توهج متورد فى الجو، منبعث من قاعدة الفحم الحجرى الكبيرة التى يتحمص فوقها خروف بأكمله، هدية من سعادته . إنهم سيشربون حتى الفجر، ثم يغادرون مع طلوع النهار.

أجد طريقى إلى مخزن الحبوب، عبر الممرات الخلفية، الحارس ليس فى مكانه. باب الكوخ مفتوح، وأنا أحاول المرور، أسمع أصوات همسات وضحكات. أحدى فى ظلام كالح. أقول، من هنا؟ .

هناك صوت زحف، والحارس الشاب يتعثّر مصطدماً بى. يقول: آسف، سيدى . أشم أنفاسه المخضلة بشارب الرئم. السجين نادانى وكنت أحاول مساعدته . ومن الظلمة ينبثق صوت ضحكة.

أنام، أستيقظ على أصوات جولة أخرى من موسيقى راقصة قادمة من الساحة. أغرق فى النوم ثانية، وأحلم بجسد مسجى على ظهره، ثروة من شعر العانة، براق سلس أسود ذهبى، عبر البطن، ممتد فوق الحفوين ثم نازلاً تحتها مثل سهم موجه نحو ثلثة الساقين. عندما أمد يدي لأمس الشعر، يبدأ بالتلوى. انه ليس بشعر، لكنه نحل متجمع بكثافة، الواحدة أعلى الأخرى: مبلل بالعسل، دبق، يطير بمجموعه خارجاً من بين الساقين، مروحاً بأجنحته.

* * *

آخر فعل مجاملة أقوم به هو الخروج راكباً مع العميد إلى مسافة حيث ينعطف فيه الطريق نحو الشمال الغربى، على امتداد البحيرة. الشمس مرتفعة تسطع بوحشية من صفحتها وهو ما يضطرنى إلى حجب عيني. الرجال، متعبون، مضطربون بعد ليلتهم من المرح، ينتشرون بغير انتظام خلفنا. فى وسط الطابور، محاطا بحارس راكب جنياً إلى جنب معه، يأتى السجين. وجهه شبهى، يجلس على حصانه لشكل غير مريح. بالتأكيد ان جراحه ما تزال تسبب له الآلام. تأتى فى الخلف، الخيول المحملة والعربات الخفيفة مع براميل الماء، التجهيزات والمعدات الثقيلة: رماح، غدّارات، ذخيرة حركية، خيام. كلها بمجموعها لا تكون منظراً مثيراً. الطابور يمتطى الخيول بشكل غير متقن. بعض لرجال حاسرى الرؤوس، بعضهم يرتدى خوذة الخيالة الثقيلة المزينة بريشة، آخرون بفصات جلدية اعتيادية. كان الجميع يحول عينيه عن الوهج الساطع ما عدا واحد منهم، يتطلع مقطباً أمامه، من خلال قطعة من زجاج مدخن، ملتصقة بعصا، يمسكها أمام عينيه، فى تقليد لقائده. إلى أى مدى سينتشر هذه لتظاهر المناقى للعفل؟

ننطلق بصمت. الحاصدون مشغولون فى الحقول منذ قبل بزوغ الفجر، يتوقفون عن عمل، يلوحون عند مرورنا لهم. فى منعطف لطريق أكبح جماح الفرس وأودعه قائلاً: أتمنى لك

عودة سالمة، أيها العميد . أقول ذلك. يميل رأسه بغموض وهو محاط بإطار نافذة عربته.

وهكذا، انطلق عائداً، متحرراً من العبء الذى كنت أصله، وسعيداً أن أكون وحدى ثانية فى عالم أعرفه وأفهمه. أصدع الأسوار لمراقبة الطابور الصغير يلتف بعيداً على طول طريق الشمال- الغربى، متوجهاً نحو لطخة الضباب الخضراء لبعيدة، حيث يتدفق النهر إلى البحيرة، ويختفى خط الخضرة فى سديم الصحراء. الشمس ما تزال معلقة، برونزية، ثقيلة فوق الماء. إلى جنوب البحيرة، تمتد أراض سبخة، مسطحات الملح، وخلفهما خط أزرق رمادى من تلال جرداء. الفلاحون فى المزارع يحملون العربتين الكبيرتين الفديمتين، بالتبن. سرب من البط البرى، يدور فوق الرعوس وينحدر إلى الأسفل نحو الماء. نهاية صيف، هو وقت للسلام والوفرة. أنا أو من بالسلام، ربما سلام متواز بأى ثمن.

على خط مباشر من جنوب البلدة وعلى مسافة ميلين، تبرز مجموعة كثبان من المشهد الرملى المسطح. اصطباد الضفادع فى المستنقعات والنزول من الكثبان الرملية المنحدرة بمزلجات خشبية مصقولة، هى رياضة صيفية أساسية بالنسبة للأطفال، مرة فى الصباح وثانية فى المساء عندما تغرب الشمس وتتسلل البرودة إلى السرمال. وعلى الرغم من أن الرياح تهب فى

المواسم كافة، فإن الكثبان تبقى ثابتة، متماسكة - على نحو متصل - بطبقة خفيفة من الحشائش، وكما اكتشفت، مصادفة قبل بضعة أعوام، بهياكل خشبية أيضاً. ذلك لأن الكثبان تغطي خرائب تعود إلى أزمنة قديمة، قبل أن يتم الاستيلاء على الأقاليم الغربية ويبنى الحصن.

كان التنقيب في هذه الخرائب، إحدى هواياتي. وإن لم يكن العمل جارياً في إصلاح مشاريع الإرواء، فإنني أحكم على المذنبين الثانويين، بالحفر بضعة أيام في الكثبان الرملية، كما يرسل الجنود إلى هنا فيما يخص جزئيات العقوبة. بل إنني اعتدت، في ذروة حماستي، أن أدفع من جيبي الخاص للأعمال العرضية. لعمل غير محبذ. إذ على الحفارين أن يكدحوا تحت أشعة شمس حارقة أو ريح قارسة، دون ملجأ يحميهم مع تطاير الرمال في كل اتجاه. في لعمل، تعوزهم الحماسة، لا يشاركونني هوايتي (التي يعدونها نزوة)، تعوق عملهم السرعة لتي تنجرف فيها الرمال إلى أماكنها. ولكنني خلال بضعة أعوام، نجحت في الكشف عن عدد من البنى الكبيرة، لتبدو بمستوى سطح الأرض. أحدث ما تم الحفر عنه يبرز مثل حطام سفينة في الصحراء، يبدو للنظر حتى من أسوار البلدة. من هذا المبنى لدى قد يكون مبنى عاماً أو معبدًا، أنفذت إسكفة ثقيلة من خشب الزان محفور عليها تصميم يمثل سمكات تتقاذز، متدخلة بعضها ببعض، معلقة اليوم فوق مدفأة الجدار.

كانت مدفونة تحت مستوى سطح الأرض، فى كيس تفتت إلى لا شىء، حالما لامسته. وعثرت أيضا على مخبأ لقطع خشبية رفيعة مرسومة عليها أشكال بحروف لم أر لها مثيلا. كنا قد وجدنا قطعاً مثل هذه من قبل، متفرقة كخرق قماش فى لخرائب. ولكن معظمها كانت مطموسة الألوان بفعل تأثير الرمال، بحيث إن الكتابة عليها تبدو عصية على الفهم. الأشكال على الشرائح الخشبية الجديدة واضحة وضوح يوم كتابتها. واليوم، أملاً فى حل رمز الكتابة، بدأت أجمع كل ما يمكننى منها، وألزمت الأطفال الذين يلعبون هنا أن يعرفوا، أن عثورهم على واحد منها يعادل دائماً الحصول على بنس واحد.

القطع الخشبية الكبيرة التى نزيل عنها الرمال، جافة ومنسحقة، والكثيرة منها لم تكن متماسكة إلا بفعل كونها محاطة بالرمال، وهى حالما يكشف عنها، تتفتت. وما يتبقى منها، يتكسر بفعل ضغط قليل. كم يبلغ عمر هذه الأخشاب؟ ذلك ما لا أعرفه. البرابرة الذين هم بدو رعويون، يسكنون الخيام، لا يشيرون فى أساطيرهم إلى استفرار دائم بالقرب من البحيرة. ولا توجد بين الخرائب، بقايا بشرية. وإن كانت هناك مقبرة ما، فإننا لم نعثر عليها. البيوت لا تحوى أثاثاً. ولقد عثرت فى كومة من رماد على شظايا فخار طينى و شىء ما بنى اللون، ربما كان فى يوم ما حذاء من الجلد أو قبعة، وقد تتاثر إلى قطع أمام عيني. لا أعرف من أين جاء الخشب لبناء هذه

البيوت. ربما فى الزمن الغابر، شق مجرمون أو عبيد أو جنود، طريقهم عبر الأميال الاثنى عشر باتجاه النفر، وقطعوا أشجار الزان التى نشرت وسويت، ثم قاموا بنقلها فى عربات إلى هذا المكان المقفر، وبنوا البيوت وبنوا حصناً أيضاً، قياساً لكل ما أعرفه، فى سياق الزمن الذى انقضى، كى يتاح لأسيادهم وأوليائهم وللحكام والقادة البارزين، تسلق الأسطح والأبراج صباحاً ومساءً، ليمسحوا العالم من أفق إلى أفق بحثاً عن علامات تشير إلى البرابرة. وفى حفرياتى، ربما قمت بخدش سطح الأرض فقط. وربما، على عمق عشرة أقدام منه، تقع خرائب قلعة أخرى، دمرت تماماً من قبل البرابرة، كانت مأهولة بالهياكل العالمية للقوم، الذين ظنوا أنهم سيجدون الأمان خلف الجدران العالية. ربما، إننى عندما أقف على أرضية مبنى المحكمة، إن كان الأمر كما أعتقد، فإننى أقف على رأس قاض مثلى، خادم آخر للإمبراطورية، ذى شعر رمادى، سقط فى حلبة سلطته، فى آخر الأمر، وجهاً لوجه مع البرابرة. كيف يمكننى أبداً أن أعرف؟ أبواسطة الحفر مثل أرنب؟ هل هذه الأشكال، ستحدثنى يوماً؟ كانت هناك مائتان وخمسة وستون قطعة شريحة فى الجراب. هل الأمر مصادفة، أن تكون الأعداد تامة؟ بعد أن عدتها للمرة الأولى، وأدركت هذا الاكتشاف، قمت بتنظيف أرضية مكتبى، ونشرتها عليه، أولاً فى مربع كبير واحد، ثم فى ستة عشر مربعاً أصغر، ثم فى

مجموعات أخرى، مفكراً فيما اعتقدتها، حتى الآن، أحرف
كتابة ضمن مقاطع لفظية، قد تكون في الحقيقة، صورة ستقفر
خطوطها الخارجية نحوي، إن حققت الترتيب الصحيح لها:
خارطة لأرض لبرابرة في زمن لغابر، أو صورة لهيكل
آلهة مفعود. بل إنني وجدت نفسي أقرأ، أفسر الشرئح من
خلال مرة، و أنتبعها بوضع شريحة أعلى شريحة أخرى، و
ادمج نصف قطعة مع نصف قطعة أخرى.

في إحدى الأمسيات، تخلفت بين الخرائب، بعد أن هرع
الأطفال إلى بيوتهم لتناول العشاء، في وقت الغسق الأرجواني،
وعند ظهور ولى النجوم، الساعة لتي تصحو فيها الأشباح،
تبيعا للمعتقدات التفليدية. وضعت ذنبي على الأرض، كما
علمني الأطفال، لسماع ما يسمعون: طرقات وأنين تحت
الأرض، والضرب الخفيض غير المنتظم على لطبول. على
صفعة خدي، أحسست بدمدمة الرمال تتحرك من لا مكان إلى
لا مكان عبر أراض بور. تلاشى آخر خيوط لضياء، الأسوار
بسدت أكثر قتامة قبالة السماء، ثم تلاشت في العتمة. انتظرت
ساعة من الزمن، ملتفا بمعطفى لفضفاض، مسنداً ظهري إلى
عمود زاوية بيت من البيوت التي لا بد أن أناساً قد تحدثوا فيها
يوماً وأكلوا وعزفوا الموسيقى. كنت أرقب طلوع القمر، مهيباً
حواسي لليل منتظراً إشارة تدل على أن ما يهجع أمامي، ما
يهجع تحت قدمي، لم يكن مجرد رمال، غبار عظام، رقايات

صدأ، كسر أثرية، رماد. الإشارة لم ترد. لم أحس بأى رغبة
خوف من روح شريرة. موضعي في الرمال كان دافئاً. لم
يمض وقت طويل حتى وجدت نفسي أطأطي من النعاس.

وقفت ومددت قامتي، ثم سرت مجهداً إلى البيت عبر الظلمة
المسكتة، مستديلاً على اتجاهي بفعل التوهج الباهت للسماء
المنعكس عن نيران المنازل. أمر يثير السخرية، خطر ببالي،
رجل بلحية رمادية يجلس في العتمة، في انتظار أرواح ترد من
طرق مجهولة من التاريخ، كي تتحدث معه قبل ان يعود إلى
منزله، إلى اليخنة العسكرية وإلى فراشه المريح. الفضاء من
حولنا، هنا، مجرد فضاء، ليس أحمر أو أرفع من الفضاء الذي
فوق الأكواخ والبيوت الفقيرة والمعابد ودوائر العمل في
العاصمة. الفضاء هو الفضاء، الحياة هي الحياة، هي نفسها في
كل مكان. أما بالنسبة لي، المتحمل مشاق الآخرين، المفتقر
لرذائل متمدنة تملأ وقت فراغي، فإنني أدلل كآبتي وأحاول
العثور في فراغ الصحراء على إثارة تاريخية من نوع خاص.
فارغ، منبطل، مضلل. كم أنا محظوظ، لأن أحداً لم يرني.

* * *

ليوم، بعد مرور أربعة أيام فقط على مغادرة الحملة، تصل
أول وجبة من سجناء العميد. أشاهدهم، من خلال نافذتي،
يعبرون الساحة بين حراسهم الممتطين جياداً، مغبرين، مذللين

توأ من قبل المتفرجين الذين احتشدوا حولهم، الأطفال المتقافزون، الكلاب الناتجة. فى التكنات، ينزل الجنود عن جيادهم، وفى الحال يجلس السجناء القرفصاء على الأرض للراحة، ما عدا الصبى، الذى يقف على ساق واحدة، نراعه على كتف والدته، يتطلع بفضول إلى المتفرجين. يجلب أحدهم جردلاً من الماء ومغرفة. يحتسون الماء بعطش شديد، فى حين يزداد الحشد ويضغط بقوة من حولهم، بحيث يحجب الرؤية عنى، فلا أرى شيئاً. بصبر نافذ أنتظر مجيء الحارس، الذى يشق طريقه الآن عبر المتجمهرين، ويجتاز ساحة التكنات.

كيف تشرح هذا؟ أصبح فى وجهه. يحنى رأسه، يتلمس جيوبه. وأضيف: إنهم قوم صيادون، كيف تجلبهم إلى هنا؟ .

يقدم لى رسالة. أمزق الختم وأقرأ: أرجو أن تحتجز هؤلاء والمعتقلين القادمين فى سجن انفرادى لحين عودتى . تحت توقيع، يتكرر الختم، ختم المكتب الثالث، الذى حمله معه إلى الصحراء والذى إن هلك سأضطر، بلا شك، إلى إرسال بعثة أخرى لاسترداده.

أصبح: الرجل مضحك! أدور فى أرجاء الغرفة والغضب يعصف بى. يتحتم على المرء أن لا يحط من قدر الضباط أمام الرجال قط، أو الآباء أمام أبنائهم، ولكننى اكتشفت أننى لا أحمل ولاء فى قلبى تجاه هذا الرجل. ألم يقل له أحد ما إن

هؤلاء قوم صيادون؟ الأمر مضيعة للوقت فى جلبهم إلى هنا! كان من المفروض أن تساعد فى تتبع اللصوص، قطاع لطرُق، غزاة الإمبراطورية! هل هؤلاء الناس يبدون خطرين على الإمبراطورية؟ . أقذف بالرسالة عند النافذة.

الحشد يتفرق أمامى، حتى أقف فى الوسط مواجهاً الاثنى عشر سجيناً المثيرين للشفقة. يجفلون إزاء غضبى، وينزلق لصبى الصغير بين ذراعى والدته. ومضى إلى الحارس: أدخلوا المكان وجلبوا هؤلاء الناس إلى باحة التكنات . يقودون الأسرى إلى الأمام، وتغلق بوابة التكنات خلفنا. أقول، والآن اشرحوا ما حدث، ألم يقل له أحدكم إن هؤلاء الأسرى عديمو الفائدة! ألم يحدثه واحد عن الفرق بين صيادين يحملون الشباك وبين بدو رحل يركبون لخيول ويحملون السهام؟ ألم يقل له أحد إنهم لا يتكلمون حتى اللغة نفسها؟

يبدأ أحد الجنود بالشرح: لقد حاولوا الاختفاء فى الدغل، عندما أبصرونا قادمين. رأوا فرساناً مقبلين ولهذا حاولوا الاختفاء، وهكذا، أمرنا الضابط، صاحب السعادة، بأخذهم، لأنهم كانوا يختبئون .

كان بإمكانى أن ألعن بغیظ. شرطى، استنتاج شرطى! هل قال صاحب السعادة لماذا أراد جلبهم إلى هنا؟ هل قال لماذا لم يتمكن من سؤالهم عما يريد هناك؟

لم يتمكن أحد من التحدث بلغتهم، سيدى .

بالتأكيد لم يتمكنوا! سكان النهر هؤلاء قوم ذوو أصول بدائية قديمة، إنهم أقدم حتى من البدو الرحل ويسكنون مستوطنات، تضم كل واحدة منها عائلتين أو ثلاثا، على طول ضفتى النهر، يمضون غالبية العام فى الصيد أو نصب الشراك للحيوانات. وهم يجدفون نحو أقصى جنوب شواطئ البحيرة فى الخريف للإمساك بالأفاعى الدودية الحمراء وتجفيفها، بناء واقيات ركيكة من القصب، يتأوهون يردأ خلال الشتاء، ملابسهم الجلود، يعيشون فى خوف من كل إنسان، يتسللون خلسة بين عيدان القصب، فما الذى يحتمل أن يعرفوه عن مغامرة كبيرة للبرابرة ضد الإمبراطورية؟

أرسل أحد الرجال إلى المطبخ من أجل الطعام. يعود بخبز متبق من يوم أمس، ويقدمه للسجين الأكبر سناً. يتقبل الرجل العجوز رغيف الخبز بكلتا يديه بتبجيل، يشمه، يكسره، ويوزع القطع على من حوله. يحشون أفواههم بهذا المن، يمضغون بسرعة، دون أن يرفعوا أعينهم. تبصق امرأة لقمة ممضوغة فى راحة يدها وتطعم رضيعها. أومئ لجلب المزيد من الخبز. نقف نرقبهم وهم يأكلون وكأنهم حيوانات غريبة. أقول للحراس، دعوهم يمكثون فى الساحة. لن يكون مناسباً بالنسبة إلينا، ولكن ليس هناك مكان آخر. إن برد الجو فى الليل، سأخذ ترتيباً آخر. راقبوا تزويدهم بالطعام. أعطوهم شيئاً كى

يفعلوه، لأننى لا أريد عاطلين يأتون من أجل التحقيق بهم.

وهكذا أكبح غيظى وأتصرف كما أمر العميد: أحتجز له سجناءه الذين لا فائدة منهم فى سجن انفرادى . ويبدو فى خلال يوم أو يومين أن هؤلاء البدائيين قد نسوا أنه كان لهم فى يوم من الأيام، مقر آخر. تم إغواؤهم كليا بالطعام المجانى الوفير والخبز بالدرجة الأولى، انهم يرتاحون ويتسمون لكل واحد، يتجولون فى ساحة التكنات من رقعة ظل إلى أخرى، يغفون ويستيقظون، يتهيجون كلما حان ميعاد لوجبات. عاداتهم واضحة وقذرة. تحولت إحدى زوايا الساحة إلى مرحاض حيث يقرفص الرجال والنساء أمام الآخرين وحيث سحابة من الذباب تطن طوال اليوم. (أعطوهم معولا أقول للحراس، ولكنهم لا يستعملونه.) الخوف قد زال عن الصبى الصغير، يتردد بكثرة على المطبخ، مستجديا السكر من الخادومات. وفضلا عن الخبز، فإن السكر والشاى، هما من الأمور الجديدة بالنسبة إليهم. إنهم يحصلون فى كل صباح على قطعة من ورق الشاى المضغوط، يغسلونها فى دلو سعة أربعة غالونات على حامل ثلاثى القوائم. إنهم سعداء هنا. وبالتأكيد، إن لم نطردهم خارجا، فإنهم قد يبقون معنا إلى الأبد. لقد تطلب إغواؤهم للتخلى عن حياتهم الطبيعية، كما يبدو، شيئا ضئيل القيمة. أمضى ساعات أراقبهم عبر نافذة الطابق العلوى (كان على العاطلين الآخرين مراقبتهم عبر البوابة). أراقب النسوة يلتقطن

القمل، يمشطن، يصفرن بعضهن شعور بعض، السوداء الطويلة. تعاني بعضهن من نوبات سعال جافة وحادة. ما يثير الدهشة عدم وجود أطفال فى المجموعة ما عدا الطفل الرضيع. هل بعض سريعى الحركة، المتيقظين منهم، قد نجحوا بعد كل شىء فى الهرب من الجنود؟ آمل ذلك. آمل، عندما نعيدهم إلى بيوتهم، ستكون لديهم قصص من أماكن بعيدة يحكونها لجيرانهم. آمل أن يدخل تاريخ أسرهم فى أساطيرهم، ما ينتقل من الجد إلى الحفيد. ولكننى فى الوقت نفسه آمل أن لا تكون ذكريات البلدة بحياتها السهلة وطعامها الدخيل، بالقوة التى ستغريهم بالعودة. أنا لا أريد سلالة من المتسولين، أتولى الإشراف عليهم.

يغدو قوم الصيادين لبضعة أيام تغييراً، بثرثرتهم الغريبة، وشهيتهم الهائلة، وعدم إحساسهم بالحياء، ومزاحهم وطباعهم سريعة التأثر. يتلأأ الجنود حول مداخل الأبواب لمراقبتهم، يطلقون تعليقات داعرة حولهم فيقبلونها ضاحكين لعدم فهمهم إياها، وهناك على الدوام أطفال يضغطون وجوههم على قضبان البوابة. ومن نافذتى، أتطلع إلى الأسفل، غير منظور، خلف الزجاج.

لكننى بعد ذلك، وبمجموعنا، نفقد التعاطف معهم. إذ ازدادت وبشدة القذارة والرائحة الكريهة وأصوات مشاجراتهم، وهناك حادثة عرضى مزعج، ذلك عندما حاول أحد الجنود سحب

إحدى نسائهم إلى الغرف، ويتعرض للرشق بالحجارة، أمر ربما لا يحدث إلا في مسرحية ما، ولا أعرف من الذى قام بذلك. وتبدأ إشاعة بالسريان، إنهم مصابون بالمرض، وإنهم سيجلبون وباء إلى البلدة. وعلى الرغم من أننى أرغمهم على حفر ركن في زاوية الساحة ورمى نفايات الليل فيه، فإن العاملين في المطبخ يرفضون إعطاءهم الأواني ويبدأون برمي الطعام إليهم من مدخل الباب وكأنهم حيوانات فعلا. الجنود يغلقون لباب المؤدى إلى قاعة التكنات، لم يعد الأطفال يقتربون من لبوابة. يقذف أحدهم بقطة ميتة فوق السور في خلال الليل ويثير جلبة. إنهم في خلال الأيام الحارة الطويلة، يتجولون في الساحة الحالية. الطفل يبكى ويسعل، يبكى ويسعل، حتى اضطر الالتجاء إلى أبعد زاوية في شقتى. أكتب رسالة غاضبة إلى المكتب الثالث، الحارس اليقظ الذى لا ينام للإمبراطورية، أشجب فيها عدم أهلية وكلائها، أكتب: لماذا لا ترسلون أناسا نوى خبرة بالحدود للتحقيق في اضطرابات الحدود؟ بحكمة أمزق الرسالة. أسائل نفسى، هل إن قمت بفتح البوابة في هدأة الليل، سيتسللون خارجاً؟ ولكننى لا أفعل شيئاً. وجاء بعدئذ يوم، لاحظت فيه أن الطفل قد توقف عن البكاء. وعندما تطلعت من لنافذة، لم أجد له أثراً في أى مكان. أبعث حارساً للبحث ويعثر على جثة الصغير تحت ملابس أمه. إنها لا تتخلى عنه وكان علينا نتزاعه منها. تجلس القرفصاء وحيدة

طوال النهار، بعد ذلك، مغطية وجهها راقضة الطعام. ويظهر أن قومها ينادون بأنفسهم عنها. أتساءل، هل تجاوزنا بعض تقاليدهم، بأخذ الطفل ودفنه؟ ألعن العميد جول لكافة المشاكل التي جلبها علينا، وأيضاً بسبب الإحساس بالعار.

فيما بعد، وفي منتصف الليل يعود. تفض رقتي نداءات بوق آتية من الأسوار. تتفجر قاعة التكنات هياجاً، بسبب تزام الجنود لأخذ أسلحتهم. يختلي تفكيرى، أرتدى ملابسى ببطء، وفي الوقت الذى أصل فيه إلى الساحة، أجد طابور الجند قد بدأ للتو، باجتياز البوابة، بعضهم يمتطى الخيول، بعضهم يفود دابة. أقف فى المؤخرة، بينما يتزاحم المتفرجون فى المكان، يتلمسون الجنود ويحتضنونهم، يضحكون منفعلين (كلهم سالمون بعضهم يصيح)، ولم أر ما كنت أخشاه، إلا بعد وصولى إلى منتصف الطابور: العربية السوداء، ثم مجموعة من الأسرى، يسرون بثقل مربوطين بالحبال معاً، رقبة إلى رقبة. شخوص لا شكل معين لهم، تحت ضوء القمر الفضى، فى معطفهم المصنوعة من جلود الخراف، ثم يأتى خلفهم آخر الجنود، وهو يقود العربات ومجموعة من الخيول. وكلما ازداد وازداد عدد الناس القادمين هرولة، ازدادت البلبلة. أدير ظهري نحو انتصار العميد وأشق طريقى عائداً إلى غرفتى. من هذه النقطة، أبدأ بإبراك عدم جدوى العيش، كما اخترت أن أفعل، فى الشقة غير المنتظمة، فوق غرف المخزن والمطبخ، التى

خصصت لأمر الموقع الذى لم يعين منذ أعوام، وذلك بدلا من المنزل الجذاب ذى النوافذ التى يعرش عليها الجيران يوم والى يخفق الحكام المدنيون فى الحصول عليها. أود أن يكون بمقدورى صد أذى عن الأصوات القادمة من الساحة أسفل الشقة، والى أصبحت الآن، كما يبدو، تتحول بوضوح إلى ساحة سجن. ينتابنى إحساس بالتعب والكبر وبرغبة فى النوم. أنام فى هذه الأيام أينما أقدر، وعندما أصحو، استيقظ على مضض. لم يعد النوم مغطسا شافيا، من أجل استعادة القوى الحيوية، بل وسيلة للنسيان، مناوشة قصيرة مع الإبادة. غدا العيش فى الشقة مؤذيا لى. ولكن، ليس ذلك فحسب، فلو أننى كنت أقمت فى منزل القاضى، فى أهدأ شارع فى البلدة، أعقد جلسات المحكمة كل اثنين وثلاثاء، أذهب إلى الصيد كل صباح، أشغل أمسياتى بالآثار الكلاسيكية، أغلق أذى عن فعاليات هذا الشرطى حديث النعمة، إن كنت قررت امتطاء الزمن الردىء، محتفظا بمشورتى لنفسى، لربما كففت عن الإحساس كرجل واقع فى قبضة تيار مضاد قوى، يتخلى عن المقاومة، يتوقف عن السباحة، ويدير وجهه نحو البحر المكشوف والموت. إلا أن الأمر هو معرفة مدى استمرار حالة عدم الاستقرار التى أنا فيها، كم هو متوقف على نحيب طفل تحت نافذتى فى يوم ما وتوقفه عن ذلك فى اليوم التالى، ذلك يجلب لى أسوأ أحاسيس الخزى، كبر لا مبالاة للفناء. أنا

أعرف الكثير إلى حد ما، ومن هذه المعارف، أن المرء ما إن يصاب بالعدوى فلا شفاء، كما يبدو، له. ما كان على قط تناول فانوسى لرؤية ما كان يجرى فى الكوخ بجوار مخزن الحبوب. من جهة أخرى، لم يكن هناك خيار آخر، ما دمت قد التقطت الفانوس، تقع على مهمة وضعه ثانية على الأرض. تتعد الأنشودة حول نفسها، لا أستطيع العثور على النهاية.

يمضى العميد، اليوم التالى بأكمله، فى النوم، فى غرفته فى الفندق، ويكون على العاملين السير على أطراف أصابع أقدامهم، فى خلال إنجاز واجباتهم. أحاول عدم الاهتمام بالحزمة الجديدة من السجناء فى الباحة. ومن المؤسف أن كافة أبواب مبنى الثكنات فضلاً عن باب السلم المؤدى إلى شقتى تفتح على الساحة. أهرع خارجاً فى الضياء الأول للصباح، أشغل نفسى بإيجارات البلدية، أتعشى مساء مع أصدقاء. فى طريق العودة إلى المنزل أقابل الملازم الشاب الذى رافق العميد جول إلى الصحراء وأهنؤه على سلامة العودة، ولكن لماذا لم تشرح للعميد أن الصيادين قد لا يكونون قادرين على مساعدته فى تحقيقاته؟ يبدو مرتبكاً، ويقول لى، لقد تحدثت ولكن كل ما قاله كان، السجناء هم السجناء. وقررت أنه ليس بإمكانى النقاش معه .

يبدأ العميد تحقيقه فى اليوم التالى. فيما مضى اعتقدت أنه

كسول، إلى حد أبعد من رجل بيروقراطي ذى ميول فاسدة،
اليوم أدرك كم كنت مخطئاً. لا يتعب فى بحثه عن الحقيقة. يبدأ
الاستجواب فى ساعة مبكرة من الصباح، ولا يزال مستمراً،
لحين عودتى بعد هبوط الظلام. لقد جند مساعدة صياد أمضى
حياته فى إطلاق النار على الخنازير على طول النهر، ويعرف
مائة كلمة من لغة قوم الصيادين. واحداً بعد آخر، يؤخذ
الصيادون إلى الغرفة التى كان العميد قد استقر فيها ، ليسألوا
ان كانوا قد شاهدوا حركات خيالة غرباء. الطفل أيضاً تم
استجوابه، هل قام غرباء بزيارة والدك فى خلال الليل؟
(أخمن بطبيعة الحال، ما يدور فى الغرفة، أخمن الخوف
والارتباك والشرود.) لا يعود السجناء إلى الساحة، بل إلى
قاعة التكنات الرئيسة: الجنود قد تفرقوا ، وزعوا على جهات
البلدة الأربع. أجلس فى غرفتى، نوافذى مغلقة، أحاول القراءة،
فى سخونة الجو المضغوط لمساء بلا ريح، اجهد نفسى أن
أسمع أو لا أسمع أصوات العنف، وأخيراً، فى منتصف الليل،
يتوقف التحقيق، وتخدم فرقة الأبواب ووقع الخطى، الساحة
ساكنة تحت ضوء القمر، عند ذلك يؤذن لى بالنوم.

لقد غادر الفرع حياتى. أقضى النهار فى التعامل مع بيانات
وأعداد، متوسعاً فى أعمال البسيطة عن أجل ملء الفراغ.
أتناول الطعام فى الفندق مساء ثم أعود مرغماً إلى البيت.
أصعد إلى الطابق العلوى، إلى الجزء المخصص للغرف

المنفصلة، المكعبة الشكل، حيث ينام سُوَاس الخيول وحيث تُسَرِّي الفتيات عن أصدقائهن من الرجال.

أنام مثل رجل ميت. عندما أصبحو أجد في الضوء الشاحب لساعات الصباح الأولى، البنت ممتدة، منطوية على نفسها، على أرضية الغرفة. ألمس ذراعها: لمارا تتأمين هنا؟ . تبسم لى. كل شىء على ما يرام، أنا فى وضع مريح. (ذلك صحيح: مستلقية على جلد خروف ناعم، تتمطى وتتثاءب، جسدها الدقيق لا يكاد يملؤه.) كنت تهذر فى نرملك، طلبت عنى الانصراف، وهكذا قررت انه من الأفضل لى النوم هنا.

طلبت أنا منك الانصراف؟

نعم، فى خلال نومك، لا تتزعج . تصعد إلى جوارى فى السرير، احتضنها بامتنان، وبلا رغبة.

أقول: أود النوم هنا ثانية ته الليلة . تمرغ انفها فى صدرى. يخطر ببالى ان كل ما أريد ان أقوله لها، سيسمح به مشاركة وجدانية، بحنان. ولكن ماذا باستطاعتى القول؟ أمور مخيفة تجرى فى الليل، بينما نكون انت وأنا نائمين؟ الثعلب يسرق أحشاء الأرنب، ولكن العالم يستمر فى الدوران.

امضى نهائياً آخر ليلة أخرى بعيداً عن سلطة الألم. أغلى فى النوم بين ذراعى الفتاة. ثانية، تكون مستلقية على أرضية الغرفة فى الصباح. تضحك عند فرعى: لقد دفعتنى خارج

السريـر، ليديـك وقدميـك. أرجو ان لا ترتبك، نحن لا نستطيع التحكم بأحلامنا أو ما نفعله في خلال النوم . أتأوه وأبـير وجهي عنها. أنا اعرفها منذ عام. أقوم بزيارتها أحياناً مرتين في الأسبوع، في هذه الغرفة. أحس بمشاعر هادئة تجاهها قد تكون أفضل ما يأمله المرء من علاقة بين رجل متقدم في السن وفتاة في العشرين، أفضل بالتأكد من هوى ممتلك لـفـد ناورت مع فكرة الطلب منها للعيش معي. أحاول ان أتذكر أى كابوس تملكنى عندما دفعتها بعيداً عني، لكننى أخفق. أقول لها، ان فعلتها ثانية يوماً ما، عليك ان تعدى بإيقاظى .

في مكتـبـي في دار المحكمة، بعدئذ، يعلن عن قدوم زائر. العميد جول مرتدياً، في داخل الغرفة، غطائى عينيـه، يجلس ليعـد دخوله في مواجهتى. قـدم الشاى إليه، مندهشاً لمدى ثبات يـدى. يـقول انه على وشك الرحيل، هل يتوجب على إضفاء فرحتى؟ يحتسى شابه، جالساً بعناية، منتصباً، متفحصاً الغرفة، صفوف هن أوراق فوق صفوف مرزومة معا ومشدودة برباط، سجلات لعقود من الإدارة المملة، حافظة كتب للنصوص القانونية، المكتب المركوم بغير انتظام. يقول، انه قد أنهى استقصاءاته، في الوقت الحاضر، وانه مسرع إلى العاصمة لكتابة تقريره. تبدو عليه سيماء انتصار يسيطر عليها بقوة. أحنى رأسى متفهماً. أقول له: ماذا يمكننى أن أفعل من أجل تسهيل مهمتك...؟ تمر برهة من السكون بيننا. ثم إلى

الصمت، اقذف بسؤالي، مثل حصاة ترمى فى بركة: هل كانت
تحقيقاتك أيها العميد بين أقوام البدو والبدائيين ناجحة كما كنت
تأمل؟

يقرب يديه، رأس أصابع يده إلى رأس أصابع الأخرى، قبل
أن يجيب. امتلك إحساساً من معرفته إلى أى درجة كبيرة
تثيرني عواطفه. نعم، أيها القاضي، أستطيع أن أقول: إننا قد
حققنا بعض النجاح. وخاصة أن تضع فى الاعتبار أن تحقيقات
مماثلة، تجرى فى أماكن أخرى على طول الحدود، وبشكل
متناسق .

ذلك أمر حسن. هل يمكنك أن تخبرنا فيما إذا كان هناك ما
نخشاه؟ هل بإمكاننا النوم بأمان فى الليل؟ .

تتجدد زاوية فمه فى ابتسامة ضيقة. يفف بعدئذ، ينحنى،
يستدير ويغادر. فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى يرحل
برفقة حارسه الضئيل، متخذاً الطريق الشرقى الطويل، عائداً
إلى العاصمة.

لقد تدبرنا طوال مدة مرهقة، أن يتصرف كل واحد منا نحو
الآخر، كأناس متحضرين. لقد آمنت طوال حياتى بالسلوك
المتحضر، وفى هذه المناسبة، لا أستطيع أن أنكر، ان الذاكرة
تتركنى مشمئزاً من نفسى.

كان عملى الأول زيارة السجناء. افتح أقفال قاعة التكنات،

التي أصبحت سجنًا لهم، تتقزز حواسي بسبب الرائحة النتنة
للعرق والروائح الكريهة الأخرى. أفتح الأبواب على
مصراعها. أخرجوهم من هنا! أصبح بوجه الجنود -
المرتدين نصف ملابسهم الواقفين حولنا، يراقبونني وهم
يتناولون حساءهم. من خلال العتمة في الداخل، يحدق السجناء
بلا مبالاة بالمقابل. أصرخ، اذهبوا إلى الداخل ونظفوا المكان
تماماً. أريد أن يبدو كل شيء نظيفاً! صابون وماء! أريد أن
يعود كل شيء إلى ما كان عليه من قبل! يسرع الجنود لتلبية
الأوامر، لا بد أنهم يتساءلون، لماذا أوجه غضبي نحوهم. يخرج
السجناء إلى ضوء النهار، تطرف أعينهم، يقومون بتغطيتها.
إحدى النسوة في حالة تستدعي المساعدة. إنها ترتعش طوال
الوقت مثل شخص عجوز، على الرغم من كونها شابة. هناك
آخرون مرضى أيضاً، لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم.

مضت خمسة أيام على رؤيتي إياهم (ان كنت أقدر على
الادعاء قط من رؤيتي لهم، ان فعلت قط أكثر من المرور
ببصري على وجوههم بغير انتباه ومع نفور...). لا أعرف ما
الذي عانوه في خلال هذه الأيام الخمسة. الآن وبعد أن تم
اقتيادهم من قبل الحراس، يقفون في حزمة صغيرة يائسة، في
زاوية من الساحة، البدر والصيادون معا، مرضى، جوعى،
متضررون، فزعون. سيكون من الأفضل، لو ينهى وعلى
الفور هذا الفصل الغريب من تاريخ العالم، أن تمت إزالة

هؤلاء القوم من على وجه الأرض وأقسمنا نحن على أن نبدأ من جديد من أجل إدارة إمبراطورية لا يوجد فيها المزيد من الظلم، لمزيد من الألم. سيكون الأمر قليلاً، أن نقودهم خارجاً في مسيرة إلى الصحراء (بعد أن نضع قى جوفهم وجبة طعام، ربما كى نجعل المسيرة ممكنة)، أن ندفعهم كى يحفروا بآخِر قوة فيهم، حفرة يكون حجمها كافياً (أو ربما نحفرها لهم!)، وندعهم مدفونين، هناك إلى أبد الأبد، وأن نعود إلى البلدة المسورة ممثلين بنوايا جديدة، وقرارات جديدة. ولكن ذلك لن يكون طريفي. رجال إمبراطورية جديدة هم الذين يؤمنون ببدايات جديدة، فصول جديدة، صفحات نظيفة. أناضل أنا مع القصة القديمة، آملاً أنها قبل أن تنتهى ستكشف لى عن السبب الذى جعلنى أظن أنها جديرة بالعناء. وهكذا يكون الأمر. بعد أن عادت إلى اليوم مهمة إدارة القانون والنظام فى هذه الأرجاء، أمر أن يطعم السجناء، وأن يستدعى الطبيب إليهم لعمل ما فى وسعه، أن تعود الثكنات إلى كونها ثكنات، أن تتخذ الترتيبات لإعادة السجناء إلى حياتهم بأسرع وقت ممكن، وإلى أبعد حد ممكن.

* * *

تجثو قى ظل جدار الثكنات على مسافة عدة ياردات عن البوابة، ملتفة فى معطف جد واسع عليها، قبعة من الفراء أمامها على الأرض. لديها الحاجبان المستقيمان الأسودان، الشعر الأسود اللماع للبرابرة. ما شأن امرأة بربرية فى الاستجداء بالبلدة؟ لا يوجد فى قبعتها غير عدد ضئيل من الفروش.

أمر بها مرتين تقريبا فى خلال النهار. تمنحنى فى كل مرة نظرة غريبة، محدقة باستقامة إلى الإمام، حتى أقترب منها، عندئذ تدير رأسها عنى ببطء شديد. فى المرة الثانية أسقط قطعة نقود فى القبعة. أقول، الجو بارد ولوقت متأخر للبقاء خارج البيوت. تومئ برأسها. الشمس تغيب خلف شريط طويل وضيق من غيوم سوداء. الريح القادمة من الشرق، بدأت الآن تحمل نرات من الثلج. الساحة خالية، أمضى إلى الإمام.

لم تكن هناك فى اليوم التالى، أتحدث مع حارس البوابة، كانت امرأة تجلس هناك طوال يوم أمس، تتسول. من أين آتية هى؟. يجيب لأن المرأة عمياء. إنها واحدة من البرابرة التى جاء بهم العميد إلى هنا. لقد تركت وراءهم بعد رحيلهم.

أراها، بعد بضعة أيام، تجتاز الساحة، تسير ببطء وبارتباك

بعكازين، أطراف معطفها المصنوع من جلد الخراف، تتجرجر خلفها في التراب. أصدر أوامري: بأن تستدعي إلى حيث أسكن، حيث تقف أمامي متوكئة على عكازين. أقول انزعي - قبعتك، يقوم الجندي الذي كان قد جلبها إلى بنزع القبعة عنها. إنها عين الفتاة، الشعر الأسود نفسه بفصة على الجبين، الفم الواسع نفسه، العينين السوداوين اللتين تتطلعان مباشرة ثم تتجاوزانني.

يقولون لي: انك عمياء .

تقول، أستطيع أن أرى تتحرك عيناها مبتعدتين عن وجهي وتستقران في مكان ما خلفي من جهة اليمين.

من أين قدمت؟ . ألقى بلا تفكير نظرة خاطفة من فوق كتفي. أنها لا تحقق في شيء غير جدار خال. أصبحت نظرتها أكثر صراحة. عارفاً، بالتو، الجواب، أعيد سؤالي، تواجهه بالصمت.

أصرف الجندي. نبقى وحدنا.

أقول: اعرف من تكونين. هل تسمحين بالجلوس؟ . أتناول عكازيها أساعد في إجلاسها علي مقعد بلا مسند. تحت معطفها ترتدي سروالاً تحتانياً عريضاً من الكتان، أدخلت أطرافه في حذاء ذي ساق طويلة (جزمة) وبنعل ثقيل. تفوح منها روائح دخان، ملابس بالية، وسمك. يداها خشتان.

أسأل: هل تكسبين رزقك بالتسول؟ ليس من المفروض، كما تعلمين، أن تكونى فى البلدة. بإمكاننا طردك فى أى وقت وإعادتك إلى قومك .

تجلس محدقة إلى الأمام بشكل غريب.

أقول: انظرى إلى .

أنا انظر. هكذا أبدو .

أحرك يداً أمام عينيها. تطرف عيناها. أقرب وجهى منها وأتفرس فى عينيها. تدير نظرتها من الجدار نحوى. القزحيتان، عوضاً ببياض كالحليب، صافيتان كعيون الأطفال. ألمس خدها. تجفل.

سألت كيف تكسبين رزقك؟

تهز كتفيها، اغسل الملابس .

أين تقيمين؟

أعيش .

نحن لا نسمح بالمتسولين فى البلدة. الشتاء على الأبواب. لا بد ان يكون لديك مكان ما للسكن، والا فعليك أن تمضى عائدة إلى قومك .

تجلس بشكل فظ. أدرك أننى أحوم حول الموضوع.

بإمكانى توفير عمل لك. أريد أحداً يعتنى بترتيب الغرف
وبتدبير أمر الغسيل. المرأة التى تقوم بهذه الأعمال حالياً،
ليست مناسبة .

تدرك ما أعرضه عليها. تجلس متصلبة، يداها فى حضنها.

هل أنت وحيدة؟ أرجو الإجابة؟

نعم ، يأتى صوتها هامسا. تتظف حنجرتها، نعم .

قدمت عرضاً بوجوب قدومك للعمل هنا. لا يمكنك
الاستجداء فى الشوارع. لا أستطيع السماح بذلك. ولا بد من
مكان للإقامة فيه. بإمكانك، إن عملت هنا، مشاركة الطباخة
غرفتها .

إنك لا تفهم. أنت لست فى حاجة إلى واحدة مثلى. تتلمس
الطريق إلى عكازيها. أدرك أنها غير قادرة على الإبصار.

أنا... ، تمسك بسبابتها، تقبض عليها، تلويها. لا امتلك أنا
فكرة عما تعنيه الحركة. هل بإمكانى الذهاب؟ . تجد بنفسها
الطريق نحو رأس السلم، وبعد ذلك، كان عليها الوقوف فى
انتظارى لمساعدتها على النزول.

يوم يمر. أحرق فى الساحة ملياً، حيث الريح تطارد هبات
التراب. ولدان صغيران يلعبان بطوق. انهما يطلقانه للريح ،
الطوق يتدحرج إلى الأمام، يتباطأ، يتأرجح، يعود إلى الوراء،

يسقط. يرفع لولدان وجهيهما ويركضان خلفه، الشعر يتطاير
عن جبينيهما الأملس.

جَد الفتاة وأقف أمامها. تجلس وظهرها مسند إلى جذع
إحدى أشجار الجوز الضخمة. من الصعب ملاحظة إن كانت
مستيفظة. أقول، تعالى، وألمس! قبعتها وأناولها إياها،
أساعدها في الوقوف على قدميها، أسير ببطء إلى جوارها عبر
الساحة الخالية الآن إلا من حارس البوابة، الذى يظل عينيه،
للتحديق بنا.

النار موقدة. أسدل الستائر، أشعل المصباح. ترفض الجلوس
على لمقعد، ولكنها تستسلم وتتخلى عن عكازيها وتجتو على
السجادة.

أقول: الأمر ليس ما تعتقدينه'. الكلمات تخرج على
مضض. هل أنا حقاً على وشك تبرير نفسي؟ شفتاها مطبقتان
بشدة، أذناها بلا شك أيضاً. إنها لا تريد شيئاً من رجال
متقدمين فى السن وضمايرهم التى تتطق بالشكوى. أدور
حولها، متحدثاً عن قانون البلدة المحلى، مشمئزاً من نفسي.
بشرتها تبدأ بالتوهج من دفء الغرفة لمخلقة، تسحب معطفها،
تعرض رقبتها للنار. البعد بينى وبينها معذب، وهو جدير
بالإهمال. يقشعر بدنى.

أرينى قدميك، قول بالصوت الجديد الذى يبدو أنه لى.

أرينى ما فعلوه بقدميك .

إنها لا تساعدنى ولا تمنعنى. أحل الأشرطة الجلدية عن
ثقبوب المعطف، افتحه اخلع عنها الحذائين. انه حذاء (جزمة)
من نوع الأحذية الرجالية، جد واسع عليها. وقدماهما، فى
داخلهما ملفوفتان، لا شكل لهما. أقول، دعينى أر .

تبدأ فى فك الأربطة الفذرة. أغادر الغرفة، أنزل تحت إلى
المطبخ. أعود بطست وإيريق ماء دافئ. تجلس منتظرة على
السجادة. قدماهما عاريتان. إنهما عريضتان، والأصابع غليظة،
الأظافر مكسوة بطبقة من القذارة.

تمرر إصبعاً عبر طرف كاحلها، هنا، المكان الذى انكسر،
الآخر أيضاً . تميل إلى الخلف مستتدة على يديها وتمد قدميها.

أقول: هل يؤلمك؟ . أمرر إصبعى على الخط، دون أن
أحس بشيء.

لم يعد كذلك، لقد اندمل. ولكن ربما عندما يبرد الجو .

أقول: عليك بالجلوس . أساعدها فى خلع معطفها، أجلسها
على المقعد. أصب الماء فى الطست، وأبدأ فى غسل قدميها.
تبقى قدماهما متصلبتان لوهلة، ثم تستريحان. مكوناً رغوة
صابون، أغسل على مهل، قابضاً على ريلة الساق بلحمها
المتماسك، معالجاً عظام قدميها وعروقيهما، ممرراً أصابعى بين

أصابعها. أغير موضعي لأجثو، ليس أمامها، بل إلى جوارها،
إذ إنني بالإمساك بالساق بين المرفق والجنب، أكون قادراً على
تدليك القدم بكلتا يدي.

أفقد صوابي في إيقاع ما أفعله. أفقد الإحساس بوجود الفتاة
نفسها. هناك فاصلة من الزمن خالية بالنسبة لي، ربما حتى أنا
غير موجود فيها. عندما أعود إلى نفسي، أصابعي تكون قد
ارتخت، القدم ترتاح في الطست، رأسي يتدلى.

أجفف القدم اليمنى، أتحول إلى الجهة الأخرى، أرفع ساق
السرور العريض حتى الركبة، أقاوم النعاس، أبدأ بغسل الساق
اليسرى. قول، تغدو هذه الغرفة، أحياناً، حارة جداً. لا يقل
ضغط ساقيها على جنبي. أوصل حديثي، سأبحث عن ضمادات
نظيفة لقدمك، ولكن ليس الآن. أدفع الطست جانباً وأجفف
القدم. أحس أن الفتاة تجهد نفسها للوقوف، ولكني أفكر أن عليها
الآن أن تعتني بنفسها. عيناى مغلفتان. يصبح الاحتفاظ بهما
مغلفتين سعادة بالغة، أن أستمتع بدوار منتهى البهجة.

أتمدد على السجادة. وفي لحظة أستغرق في النوم. أستيقظ في
منتصف الليل، مقروراً ومتصلباً. النار انطفأت، الفتاة رحلت.

* * *

أرقبها تَأْكُل، إنها تأكل كشخص أعمى، محدقة في لقطة

بعيدة، تتلمس طريقها، تمتلك شهية جيدة، شهية امرأة ريفية قوية.

أقول: ألا أصدق أنك قادرة على الإبصار .

نعم، بإمكانى الإبصار. عندما أنظر باستقامة ، لا أجد شيئاً، هناك... (تدعك الهواء أمامها، مثل شخص ينظف نافذة).

أقول: لطخة .

هناك لطخة، لكننى أستطيع الرؤية عبر زاويتي عيني. العين اليسرى افضل من اليمنى. كيف يمكننى إيجاد طريقى إن لم أكن قادرة على الرؤية.

هل فعلوا هذا بك؟

نعم .

ماذا فعلوا؟

تهز كتفيها وتصمت. صحنها فارغ. أصب لها المزيد من يخنة الفاصولياء التى يبدو أنها أعجبتها كثيراً. تأكل بسرعة كبيرة. تتجشأ خلف يد كأسية الشكل ثم تبتسم. تقول، الفاصولياء تولد الغازات . الغرفة دافئة، معلق معطفها فى زاوية وتحتة حذاؤها، إنها ترتدى القميص الأبيض ففط والسراويل الطويلة. عندما لا تكون ناظرة نحوى فأنا كلب صيد من كثرة التحرك حواليتها. غير قادر على تحديد محيط دائرة بصرها. عندما

تتطلع نحوى، أكون لطخة، صوتاً، رائحة، مركز طاقة تسقط
فى النوم وهى تغسل قدميها وفى اليوم التالى، تطعمها
الفاصولياء، وفى ليوم التالى- إنها لا تعرف.

أجلسها، ملأ الطست، ألف أطراف السراويل حتى ركبتيها.
والآن وبعد أن تصبح قدمها معا فى الماء، أستطيع أن أرى أن
اليسرى ملتوية أكثر إلى الداخل من اليمنى. وأنها عندما تقف،
يتوجب عليها الوقوف على الحافة الخارجية لقدمها. كاحلاها
ممثلتان، لا شكل لهما، البشرة ذات ندوب أرجوانية.

أبدأ بغسلها. ترفع قدميها لى بالتتابع. أدلك وأدلك الأصابع
الرخوة بواسطة الصابون اللبنى الناعم. سرعان ما تتخلق
عيناى، يتخاذل رأسى. إنها نشوة من نوع ما.

بعد الانتهاء من غسل قدميها أبدأ بغسل ساقيها. من أجل
هذا، عليها الوقوف فى الطست والاستناد إلى كتفى. يداى
تتحركان أعلى وأسفل ساقيها من لكاحلين حتى لركبتين، خلفا
وأماما، معتصرا، ملاطفاً ومربتاً. ساقاها قصيرتان وقويتان،
قوية الربلتين. تتحرك أحياناً أصابعى خلف ركبتيها، متتبعة
العروق، ضاغطة على الفراغات بينهما، خفيفة كريشة نثيه
صاعدة نحو فخذيها.

أساعدها فى الذهاب إلى السرير، وأجففها بمنشفة دافئة. أبدأ
بتشذيب وتنظيف أظافر قدميها. ولكن أمواج النوم، تكون

آنذاك، متدفقة في . أفاجأ برأسي منحنيًا، جسدي متهاكاً إلى أمام
في غيبوبة. أضع المقص بعناية جانباً، ثم أنام، بكامل ملابسي،
على السرير بجوارها، بشكل متعاكس، رأسي نحو قدميها.
أطوى ساقيها بين ذراعي، أضع رأسي عليهما، وفي لحظة
أكون نائماً.

أصحو في الظلام. ضوء المصباح منطفئ، ورائحة ذبالة
محترقة في المكان. أنهض وأفتح الستائر. تنام الفتاة مجتمعة
على نفسها، ركبتيها مشدودتان نحو صدرها. تتأوه، عندما
ألمسها، وتجمع نفسها بشدة أكثر.

أقول، إنك تتعرضين للبرد . ولكنها لا تسمع شيئاً. أفرش
بطانية فوقها ثم بطانية ثانية.

* * *

تأتي أولاً طقوس الاغتسال، وهي عارية من أجلها، أغسل
قدميها، كما في السابق، ساقيها وردفيها. يداي المصوبتان
ترحلان، من دون اهتمام كما أحس إلى ما بين فخذيها. ترفع
ذراعيها وأنا أغسل إبطيها. أغسل بطنها، صدرها، أدفع شعرها
جانباً وأغسل رقبتها، حنجرتها. إنها صبور. أشطفها وأجففها.

تستلقي على السرير، أدعك جسدها بزيت اللوز. اغلق عيني
وأفقد صوابي في إيقاع الدعك، بينما النار، مغنوة بكومة عالية،
تهدر في الموقد.

لا أمتلك أى رغبة فى دخول هذا الجسد القوى الممتلئ
القوى الصغير المتلئ الآن فى ضوء النار. مضى أسبوع
على تبادلنا الكلام. أطعمها، أويها، استعمل بدنها، إن كان الأمر
كذلك كهذه الطريقة الغريبة. كانت هناك لحظات تتصلب فيها
لمداعبات حميمة معينة، ولكن جسدها الآن يستسلم عندما أفرك
رأسى ببطنها أو أمسك بقدميها بين فخذى. إنها تستسلم لأى
شئ. تتسلل أحياناً إلى النوم قبل أن أنتهى. بعمق تمام كما
الأطفال.

بالنسبة لى، أقدر، تحت بصرها الأعمى، على نزع ثيابى،
فى الدفء الشديد للغرفة، دون ارتباك، معرياً، ساقى النحيفتين،
أعضائى لتتاسلية المسترخية، بطنى، والصدر المتهدل لرجل
عجوز مثلى، وحنجرتى ذات الجلد الشبيه بجلد ديك رومى.
أجد نفسى متجولاً فى المكان، دون تفكير بهذا العرى، وابقى
أحياناً، متدفناً عند النار، بعد أن تخلد الفتاة إلى النوم، أو أقرأ
جالساً على كرسى.

ولكننى فى الغالب، فى تمام فعل ملاطفتها، يتغلب على
النوم، مثل فأس جزار، أسقط فى لا وعى وأنبطح على جسدها
بغير انتظام، وأصحو بعد ساعة أو ساعتين، دائخاً، مرتبكاً،
عطشاناً. هذه النوبات الخالية من الأحلام أشبه بموت بالنسبة
لى أو سحر، فراغ مطلق خارج الجسد.

ذات أمسية، ماسحا جادة رأسها بالزيت، مديكا صدغيها
وجبينها، ألاحظ في زاوية إحدى عينيها تجعيدة بلون ضارب
إلى الرمادي وكأنما يرقعة فراشة تستلقي هناك، ترعى، ورأسها
تحت جفن الفتاة. أسأل متتبعا اليرقة بإصبعي، ما هذا؟

ذلك حيث لمسوني، تقول وهي تدفع يدي بعيداً.

أيؤلمك؟

تهز رأسها.

دعيني أر

الأمر قد بدا يتضح لي أكثر وأكثر. إنه ما لم تُكتشف وتُفهم
معنى العلامات على جسد هذه الفتاة. فإنني غير قادر على
السماح لها بالذهاب. بين السبابة والإبهام، أقفل بين جفنيها.
اليرقة تصل نهايتها، حيث ينقطع رأسها، عند حافة الزاوية
الوريدية للجفن. لا توجد علامات أخرى. العين لم تمس.

أنظر في العين. هل أصدق أن نظراتها المستجيبة، لا ترى
شيئاً - ربما قدمي، أجزاء من الغرفة، دائرة مضببة من ضياء.
وأما في الوسط، حيث أنا، فلا شيء غير الضباب، الفراغ؟
أمرر يدي ببطء أمام وجهها، مراقباً بؤبؤها. لا أميز حركة ما.
إنها لا تطرف. لكنها تبتسم: لماذا تفعل هذا؟ هل تعتقد أنني لا
أبصر؟

عينان بنيتان، بنيتان جداً، وكأنهما سوداوان.

ألمس بشفتي جبينها. أدمدم، ماذا فعلوا بك؟ لسانى يطىء،
أتأرجح جهداً. لماذا لا تريدان إخبارى؟

تهز رأسها. أتذكر وأنا على حافة اللاوعى، أن أصابعى فى
مرورها على وركيها، أحسست بشبح خطوط متشابكة مرتفعة
تحت الجلد. أغمغم، لا شىء أسوء مما نتخبله. لا يبدو عليها
علامة ما على أنها حتى قد سمعتنى. أستلقى متهاكاً على
المضجع، ساحباً إياها إلى جوارى، متثائباً. أريد أن أقول،
احكى لى، لا تجعلى من الأمر سراً. الألم هو الألم. ولكن
الكلمات تتفلات منى. تلتف نراعى حولها، شفتاى فى فراغ
أذنها، جهد نفسى كى أتحدث، ثم تسقط العتمة.

* * *

لقد خلصتها من عار التسول، وعينتها خادمة فى حجرة
غسل الأطباق والأواني. من المطبخ إلى سرير القاضى فى
ست عشرة درجة سهلة هكذا يتحدث الجنود عن خادومات
المطبخ. من أقوالهم الأخرى، ما هو آخر ما يفعله القاضى
عندما يغادر صباحاً؟ - إنه يحجز أحدث فتياته فى الفرن. كلما
كانت البلدة أصغر، اغتنت همهمات القيل والقال. لا توجد
مسائل شخصية هنا. القيل والقال هو الهواء الذى نتنفسه.

انها، فى جزء من النهار ، تغسل الأوانى، تقشر الخضراوات، تساعد فى إعداد الخبز وتهىء الأعمال الرتبية المتعلقة بالعصيدة والحساء واليخنة، التى تقدم للجنود. وهناك إلى جوارها، السيدة العجوز التى سيطرت على المطبخ طوال المدة التى أمضيتها كقاض، تقريباً، وأيضاً فتاتان، الصغرى منهن صعدت الدرجات الست عشرة مرة أو مرتين فى العام الماضى. أشعر، فى بادئ الأمر، بالخوف من أن الاثنتين ستتحدان ضدها، ولكن لا، يبدو أنهن وبسرعة أصبحن صديقات. مجتازاً باب المطبخ فى طريقى للخروج، أسمع، مختلطاً لدفء البخار، أصواتاً، ناعمة، تثرثر، وتضحك. استمتع بتتبع أثر باهت للغيرة فى داخلى.

أسألها، أنت راغبة فى العمل؟

أحب الفتيات الأخريات. إنهن لطيفات.

انه على الأقل، افضل من الاستجداء. أليس كذلك؟
نعم .

الفتيات الثلاث ينمن معاً فى غرفة صغيرة، على مبعدة أبواب عن المطبخ، إن لم يكن نائمات فى مكان آخر. إنها الغرفة التى تجد هى طريقها إليها فى الليل أو فى ساعة مبكرة فى الصباح. لا شك ان صديقاتها قد نثرن حول مواعيدها هذه، والتفاصيل كلها فى طول ساحة السوق وعرضها.

كلما كان الرجل متقدما في السن أكثر، اعتبر ارتباطه
بجنس آخر أكثر غرابة. مثل تشنجات حيوان ميت. فأنا لا أقدر
أن ألعب دور رجل حديدى أو أرمل قديس.

ضحكات نصف مكبوتة، دعابات، نظرات تقول بأنها
تعرف، هي جزء من ثمن قررت دفعه..

أسألها بحذر، هل تحبين العيش في البلدة؟
أحب ذلك في أغلب الأحيان. هناك أمور أكثر يفعلها
المرء.

هل هناك أشياء تفتدينها؟

أفتقد شقيفتى .

أقول، إن كنت حقا تريدان العودة، سأعمل لتؤخنين .

تقول، أؤخذ إلى أين؟ . تتمدد على ظهرها وذرعاها
موضوعتان على صدرها. أستلقى إلى جوارها، متحدثا بنعومة.
هذا هو الموضع الذى يحدث فيه القطع دائما. هنا حيث يدى
تداعب بطنها، تبدو فيه خرقاء تماما كسرطان بحر. الدافع
الحسي، إن كان هذا ما قد يكون يرتخى، وباندهاش أجد نفسى،
متعلقا بهذه الفتاة البليدة، غير قادر على تذكر أى شيء رغبت
به فيها قط، غاضبا على نفسى، لأننى أريدها ولا أريدها.

هي شخصيا غافلة عن تأرجح مزاجى، لقد بدأت أيامها

تستقر في سياق رتيب، تبدو فيه مقتتعة. فهي في الصباح وبعد مغادرتي، تأتي لكنس وتنظيف الشقة. ثم تساعد في المطبخ لإعداد طعام منتصف النهار، ساعات الظهيرة في الغالب تخصصها وحدها. بعد وجبة المساء، وبعد أن تكون كافة الصحون والقدر قد كلت والأرضية غسلت والنار أخدمت، تترك رفيفاتها وتأخذ طريقها صاعدة السلم إلى. تخلع ملابسها وتستلقي على الفراش، في انتظار ملاطفاتي الغامضة. ربما أجلس بجوارها، مطبطينا على جسدها، منتظرا فورة دم، قد لا تأتي قط بشكل حقيقي. ربما أطفئ المصباح ببساطة وأستقر في فراش بجوارها. في الظلمة، سرعان ما تنسى وجودي وتستغرق في النوم. وهكذا أتمدّد جنب هذا الجسد الشاب الموفور الصحة، بينما يكون في خلال ذلك، ينسج نفسه في خلال النوم للحصول على مزيد من القوة، يعمل بصمت، حتى عند درجات الضرر الذي لا ينصلح، العينان، القدمان، ليكون سليماً ثانية.

أرمي بذاكرتي إلى الوراء، محاولاً استعادة صورة لها كما كانت من قبل. على أن أقتنع بأنني لا بد قد رأيتها في اليوم الذي جلبت فيه من قبل الجنود مربوطة الرقبة إلى رقبة سجين بربري آخر. أعلم أن نظرتي لأبد أن تكون قد مرت عليها، عندما جلست مع جمع الأسرى في ساحة الثكنات، في انتظار الذي سيحدث في الخطوة التالية. عيناى عبرتا عليها، ولكنني لا

أحمل أى ذكرى لذلك العبور. فى ذلك اليوم، كانت ما تزال خالية من العلامات. ولكن على أن أقتنع بأنها كانت بلا علامات، كما على أن أقتنع بأنها ذات يوم كانت طفلة، فتاة صغيرة ذات ضفيرة تتدلى من مؤخرة رأسها، تركض خلف حمّلها المدلل فى عالم حيث أمضيت فى مكان بعيد عنها بخطى واسعة ريعان حياتى. مجهداً نفسى كما أُرغب، تبقى الصورة الأولى التى أتذكرها هى الفتاة الجاثية المستجدية.

لم أدخل بها بعد. لم تجرفنى الرغبة ومنذ البداية إلى ذلك الاتجاه. إيواء عضوى الذابل لرجل مسن فى ذلك الغمد الساخن، يجعلنى أفكر بمادة حمضية فى حليب، رماد فى عسل، طباشير فى خبز. عندما أتطلع إلى جسدها العارى وإلى جسدى، أدرك أنه من المستحيل أن أعتقد بأننى فى يوم من الأيام قد تخيلت الشكل البشرى على شكل وردة تشع من نواة فى منطقة العانة. هذان الجسدان، لها ولى، مسهبان واهيان لا مركز لهما، يبرمان فى لحظة ما حول دوامة هنا، وعند التالية يتخثران يثخنان فى مكان آخر، ولكنهما فى الغالب راكدان وغير مثمرين. لا أعرف ماذا أفعل معها، أكثر مما تعرف سحابة فى السماء أن تفعله مع أخرى.

أرقبها وهى تخلع ملابسها. محاولاً أن أعثر فى حركاتها على إشارة ما لحالة حرة قديمة. ولكن حتى الحركة التى

تسحب بها ثوبها من أعلى رأسها وترميه جانباً، مهمة، دفاعية، مفيدة، وكأنما كانت خائفة من الارتطام بعائق غير مرئى. وجهها يحمل نظرة من يعرف أنه مراقب.

من صياد يضع الشراك، اشتريت ثعلباً فضياً صغيراً، لا يتجاوز عمره بضعة شهور، فطم منذ أمد قريب، له أسنان مثل منشار جيد. أخذته هي معها في اليوم الأول إلى المطبخ، لكنه ذعر من النار والأصوات، وأنا، لهذا السبب أبقيه الآن في الطابق العلوى، حيث يربض تحت قطع الأثاث. أسمع، في خلال الليل، أحياناً صوت طقطقة مخالبه على الأرضية الخشبية، حيث يتجول. إنه يلحق من إناء حليب ويأكل فضلات اللحم المطهو. لا يمكن تربيته في البيوت، فسرعان ما بدأت رائحة فضلاته تنتشر في الغرف. ولكن الوقت ما زال مبكراً جداً على تسريحه ليتجول في الساحة. وبين كل بضعة أيام، أنادى حفيد الطباخة ليزحف خلف الخزانة وتحت الكراسى من أجل تنظيف القاذورات.

أقول، إنه مخلوق جميل جداً .

تهز كتفيها، الحيوانات تنتمى إلى العراء .

هل تريد أن آخذه إلى البحيرة وأطلقه هناك؟

إنك لا تقدر على القيام بذلك، إنه صغير جداً، وهو سينفق جوعاً أو تصيده الكلاب .

وهكذا يبقى الثعلب الصغير معنا. أرى أحياناً خطمه الحاد يتسلل من خارج زاوية مظلمة. وما عدا ذلك فهو مجرد صوت في الليل، ورائحة نفاذة للبول، منتظراً أن يكبر إلى درجة كافية للتخلص منه. سيقول لناس إننى أحتفظ بحيوانين بريين فى مسكنى، ثعلب وفتاة .

لا تفهم الدعابة، أو أنها لا تعجبها. شفتاها مطبقتان، نظراتها مركزة بقوة على الجدار، أدرك أنها تبذل أقصى ما فى وسعها للنظر نحوى. يميل قلبى إليها، ولكن ماذا بإمكانى أن أفعل؟ فسواء كنت مرتدياً أرواب عملى المزخرفة، أو كنت أقف عارياً أمامها، أو أمزق صدرى وأفتح لها، فإننى الرجل نفسه. أقول، أنا آسف ، أبسط خمسة أصابع مجندة وأمسد شعرها بالتأكيد، انه مختلف .

واحد بعد آخر، أقابل أولئك الرجال الذين كانوا فى الواجب عندما كان لتحقيق يجرى مع السجناء. أحصل من كل واحد منهم على المعلومات نفسها. إنهم نادراً ما تحدثوا مع السجناء، لم يسمح لهم بدخول الغرفة التى كان التحقيق يجرى فيها، وهم غير قادرين على معرفة ما كان يدور هناك. ولكننى أحصل من المرأة المسؤولة عن الكنس، على وصف للغرفة نفسها: مجرد مائدة صغيرة، وكرسى بلا مساند، ثلاثة كراسى، وحصيرة فى الزاوية، وما عدا ذلك، كانت الغرفة عارية من

الأثاث... لا، لا نيران، مجرد مجمرة. اعتدت أن أفرغها من الرماد .

والآن والحياة قد عادت إلى طبيعتها، أصبحت الغرفة تحت الاستعمال مجدداً. وبناء على طلبى، يسحب الجنود الأربعة الذين كانوا استقروا هناك، خزاناتهم خارجاً إلى الرواق، كوموا أمامهم فراشهم، أوانيهم وأكوابهم وفككوا حبال ملابسهم. أوصد الباب وأقف في الغرفة الخالية. الهواء جامد وبارد. بدأت الآن مياه البحيرة في التجمد من جهة إلى أخرى. الثلوج الأولى قد تساقطت، من بعيد أسمع أجراس عربية حسان. أغلق عيني وأبذل جهداً في تخيل الغرفة كما لا بد أنها كانت قبل شهرين، في خلال زيارة العميد. وأجد صعوبة في الاستغراق مع وجود الشبان الأربعة في الخارج، يتسكعون، يفركون أياديهم ببعضها، يدقون الأرض بأقدامهم، يمدمون، وقد نفذ صبرهم، في انتظار خروجي، وأنفاسهم الدافئة تشكل هبات دخان في الهواء.

أجثو على الأرض، لأتفحص أرضية الغرفة. انها نظيفة، وهي تكنس يومياً، وهي مثل أرضية أى غرفة أخرى. أرى سخاماً فوق المصطلى، على الجدار والسقف. هناك أيضاً علامة بحجم كفى حيث تم فرك السخام من على الجدار. ما عدا ذلك فالجدران نظيفة من أى أثر.

أية علامات، باستطاعتي البحث عنها؟ أفتح الباب وأشير

إلى الرجال أن يعيدوا حاجياتهم إلى الغرفة.

فى مرة ثانية، أستجوب الحارسين اللذين كانا فى الوجب فى الساحة. حدثانى بما جرى تماماً عندما تم التحقيق مع السجناء. احكيا ما شاهدتماه شخصياً .

الأطول يجيب، غلام ذو فك طويل و ذو مظهر متلف للعمل وقد استحسنته، باستمرار، لضابط...

ضابط لشرطة؟

نعم، كان ضابط الشرطة عتاد لمجىء إلى القاعة حيث احتجز السجناء. وكان يشير. وكان علينا جلب لسجناء الذين رادهم وأخذهم إلى الخارج للتحقيق معهم. وكان بعد ذلك يعيدهم إلى أماكنهم .

سجين فى كل مرة؟

ليس دائماً، أحياناً اثنان .

هل تدري أن أحد السجناء توفى لاحقاً. هل تتذكر ذلك لسجين؟ هل تعرف ماذا فعلوا به؟

سمعنا أنه اهتاج بشدة وهاجمهم .

نعم؟

هذا ما سمعناه. ساعدت فى إعادته إلى القاعة، حيث كانوا

نائمين جميعاً. كان يتنفس بغرابة. بعمق شديد وبسرعة. كان ذلك آخر ما شاهدته منه. في اليوم التالي كان ميتاً.
واصل حديثك. أنا مصغ. أريد منك أن تحدثني عن كل شيء يمكنك تذكره .

يبدو الإعياء على وجه الغلام. أنا واثق من أنه قد نصح بعدم الكلام. تم التحقيق مع ذلك الرجل مدة أطول من أي واحد آخر. رأيتَه جالساً وحده، في أحد الزوايا، على غرار ما كان عليه في المرة الأولى، ممسكاً برأسه . ترف عيناه نحو رفيقه. لم يشأ أكل أي شيء. لم يكن جوعاً. كانت معه ابنته. حاولت هي أن تجعله يتناول الطعام ولكنه رفض .

ماذا حدث لابنته؟
استجوبت هي أيضاً. ولكن ليس طويلاً .
استمر .

ولكن لم يكن لديه المزيد لإخباري.

أقول، اسمع. كلانا يعرف من تكون الابنة. إنها الفتاة التي تقيم معي. الأمر ليس سراً. والآن واصل كلامك. احك لي ما حدث .

أنا لا أعرف، سيدى! لم أكن هنا في معظم الأوقات . يناشد رفيقه، ولكن رفيقه أبكم أخرس. كانت هناك صرخات في بعض الأوقات. أعتقد أنهم قاموا بضربها. ولكنني لم أكن

هناك. فأنا أغادر لمكان، حال انتهاء واجبي .

أنت تعلم بأنها الآن لا تقدر على السير. لقد كسروا قدمها.
هل فعلوا هذه الأمور أمام الرجال الآخرين، والدها؟
نعم، أعتقد ذلك .

وهل تعلم أنها لم تعد قادرة على الرؤية جيداً. متى فعلوا
ذلك ؟

سيدي، كان هنالك العديد من السجناء في حاجة إلى العناية
بهم. بعضهم كان مريضاً! علمت أن قدميها كسرتا، ولكنني لم
أعلم شيئاً عن كونها عمياء إلا بعد وقت طويل. لم يكن هناك
ما أقدر على فعله. أنا لم أشأ أن أكون متدخلًا في مسألة لا
أفهمها .

لم يكن لدى رفيقه ما يضيف. أصرفهما. أقول، لا تخافا
لأنكما قد تحدثتما إلي .

يعاودني الحلم في الليل. أنا أسير مجهداً عبر سهل ثلجي لا
نهاية له متوجها نحو شخوص بشرية ضئيلة تلعب حول قصر
من الثلج. وبينما أقترّب منهم، يبتعدون جانباً أو يذوبون في
الهواء. شخص واحد يبقى في المكان. طفلة ذات معطف بقبة،
تجلس مديرة ظهرها لي. أحوم حول الفتاة، التي تستمر في
التربيت على الثلج، على جوانب القصر، حتى أقدر على التطلع
إلى ما تحت البعة. لوجه - الذي أراه - فارغ، بلا ملامح،

إنه جنين، أو حوت صغير جداً، إنه ليس بوجه على الإطلاق ولكنه جزء من جسم إنسان، ذلك الذى يبرز من تحت الجلد، انه أبيض اللون، إنه الثلج نفسه. أقدم، من بين أصابع خدرة، قطعة من نقود.

* * *

الشتاء ترسخ قى البلدة. تهب الريح من الشمال، وستبقى تهب دون انقطاع فى الأشهر الأربعة القادمة. واقفاً أمام النافذة وجبهتى على الزجاج البارد، أسمعها تصفر فوق أفاريز الأسطح، رافعة ومسقطة آجرة مقلقة. تتعاقب هبات من تراب عبر الساحة، يضرب التراب بسرعة وتكرار جوانب الأشياء. السماء ممتلئة بتراب ناعم، الشمس تتزلق عالياً فى سماء برتقالية وتغيب فى أحمر - نحاسى. هناك بين آونة وأخرى، هبات من الثلج ترقرش الأرض - فى وقت قصير - بالبياض. حصار الشتاء مستمر. الحقول خالية، لا أحد يمتلك مبرراً لذهاب خارج أسوار البلدة، ما عدا قلة من الذين يعتمدون فى معيشتهم على الصيد. علق استعراض الحامية، مرتين فى الأسبوع. مُنح الجنود إجازة لمغادرة التكنات، إن رغبوا فى ذلك، والعيش فى البلدة، لأن هناك القليل مما يعملونه غير الشرب والنوم. عندما أنزع الأسوار، فى ساعة مبكرة من الصباح، أجد أن نصف مواقع الحراسة خالية والحراس نائمون

فى خلال و جبهم، ملتقون بالفراء، يجهدون أنفسهم لرفع أيديهم بالتحية. وسواء بالنسبة لهم، ان مكثوا فى فراشهم. إذ إن الإمبراطورية تكون آمنة خلال الشتاء. وخارج نطاق أعين البرابرة أيضاً، المزدحمون حول مواقدهم، يصرون أسنانهم تجاه البرد.

لم يكن هناك زوار بربريون خلال هذا العام. كان من المعتاد أن تقوم مجموعات من البدو الرحل بزيارة المستوطنة فى الشتاء وأن تقيم خيامها خارج الأسوار وترتبط بالبيع والشراء، مقايضين الصوت، الجلود، اللباد، المصنوعات الجلدية مقابل بضائع قطنية، شاي، سكر، فاصولياء، طحين. نحن نثمن المصنوعات الجلدية للبرابرة وعلى الأخص الحذاء (المتين) بالساق الطويلة. الذى يخطونه. شجعت أنا فى الماضى التجارة، ولكنى منعت الدفع نقداً. كما حاولت أن أبقي الحانات والخانات مغلقة بالنسبة لهم. وفوق كل شيء لا أريد أن أرى مستوطنة طفيلية تنمو فى أطراف البلدة، يعيش فيها المتسولون والضالون مستعبدين لمشروبات قوية... كان يؤلمنى فى الزمن السالف، رؤية هؤلاء لناس وهم يقعون ضحايا لمكر الباعة من أصحاب الدكاكين، يقايضون بضائعهم بأشياء تافهة، يستلقون. سكارى فى أقنية البالوعات، معززين بذلك ابتهالات المستوطنين المتحاملة عليهم، عن أن البرابرة كسالى، فاسدون، قذرون، بليدون. حيث إن الحضارة كانت خلف إفساد فضائل

البرابرة وخلق أناس من الطفيليين، قررت مقاومة الحضارة، وعلى هذا القرار، اعتمدت في قيادة إدارتي. (أقول هذا، أنا الذى يحتفظ بفتاة بربرية فى سريرى الآن).

ولكن ستاراً سقط. فى هذا العام على طول الحدود. نحدق إلى الخلف من وراء متاريسنا، نحو الأراضى الفقر. لأن كل ما نعرفه أن عيوناً أمضى من عيوننا تتطلع بالمقابل. التجارة وصلت إلى نهايتها. ومنذ أن وصلت الأنباء من العاصمة عن أن أى إجراء، مهما كان، يجب اتخاذه، من أجل حماية الإمبراطورية، دون أى اعتبار للثمن، عدنا إلى عهد الغزوات والاحتباس المسلح. ليس هناك شىء نفعله غير الاحتفاظ بسيوفنا لأمعة، نراقب وننتظر.

أمضى وقتى فى وسيلتى القديمة للاستجمام، أقرأ الأعمال لكلاسيكية. أو اصل تصنيف مجموعاتى المتعددة. أقارن بين ما عندنا من خرائط إقليم الصحراء الجنوبية. وفى الأيام التى لا تكون فيها الريح قارسة بشدة، آخذ مجموعة من الحفارين إلى العراء لتنظيف الحُفَر فى الكثبان الرملية، وأسافر، مرة أو مرتين، وحدى، وفى ساعة مبكرة من الصباح لصيد الطباء على طول الخط الموازى للبحيرة.

كانت هناك، قبل جيل مضى، أعداد غفيرة من الطباء والأرانب الوحشية بحيث كان يتعين على عدد من الحراس

وكلابهم حرسة الحقول قى دوريات أثناء الليل، من أجل حماية الحنطة فى بدء موسم نموها. ولكن وتحت ضغط المستوطنة؟ بالأخص من كلاب برية والصيد بوفرة، تراجعت الطباء إلى الخلف، نحو الشرق والشمال، نحو منحدرات النهر والشاطئ البعيد. وعلى الصياد ليوم أن يكون مستعدا للسفر راكباً مسافة ساعة على الأقل قبل أن يتمكن من مطاردة فريسته.

فى بعض الأحيان، وفى صباح مناسب، يتاح لى أن أستعيد كل طاقة وخفة وحركة مرحلة شبابه. مثل طيف، نحر من أجمة إلى أجمة. منتعلاً حذائى طويل الرقبة المزييت بزيت عمره ثلاثون عاماً. أخوض عبر مياه متجمدة. أرتدى فوق معطفى، ردائى الكبير من جلد الدب. تتشكل قشرة من الجليد على لحيتى، ولكن أصابعى تكون دافئة داخل قفازيها. عيناى هادئتان، سمعى قوى، شم لهواء مثل كلب صيد، أحس بمتعة خالصة.

اترك حصانى اليوم مقيداً حيث ينتهى حد حشائش المستنقع عند الساحل الجنوبى الغربى الأجرد، وأبدأ فى شق طريقى عبر حُزَم أدغال القصب. الريح تهب قارسة وجافة عمودية فى عينى، الشمس معلقة مثل برتقالة فى أفق مخطط بالأسود والأرجوانى. وفى الحال تقريباً، وبحظ جيد غير معقول، أفاجأ بظبى ماء، كبش بقرون ثقيلة ملتوية، أشعث بردائه الشتوى، واقف على طريق جانبى، يتأرجح وهو يمدد جسده للقفز فوق

أعلى القصب، ومن مسافة تقل عن ثلاثين خطوة، أرى
استكانة حركة شذقيه الدائرية، أسمع طرطشة حوافره، وأميز
حول مفاصله دوائر من حبات الجليد.

أنا بالكاد تتأخمت الآن مع ما يحيط بي، ومع ذلك، وبينما
لكبش يرفع نفسه، طاوياً قائمته الأماميتين تحت صدره، أستل
البندقية عالياً وأوجه خلف كتفه. الحركة هادئة وثابتة، ولكن
ربما الشمس ومضت على ماسورة البندقية، لأنه في ارتفاعه،
يدير رأسه ويرانى. حوافره تلامس الجليد بتكتكة، يتوقف شذقه
في منتصف حركتهما، نتطلع إلى بعضنا البعض.

لا يتسارع نبضى: بوضوح، موت الكبش، أمر غير مهم
بالنسبة لى.

يمضغ ثانية بمنجل واحد فى إحدى فكيه، ويتوَدَع. فى
هدوء الصباح التام، أكتشف عاطفة غريبة متوارية خلف حافة
وعى. والطبى أمامى معلق فى جموده، يبدو ان هناك وقتاً لكل
الأشياء. وقتاً كافياً لإدارة نظرتى المحدقة إلى داخلى لأفهم ما
هو الشئ الذى سلب القنص لذته: الإحساس بأن هذا لم يعد
قنصاً صباحياً، ولكنها مناسبة إما أن يكون الطبى المتغطرس
فيها نازفاً حتى الموت على الجليد، وإما أن يخسر الرجل
العجوز هدفه. ذلك أنه بسبب امتداد هذه اللحظة المتجمدة،
انحبست النجوم فى ترتيب تصبح فيه الحوادث ليست نفسها

ولكنها ترمز لأشياء أخرى. تحت ستارى التافه أقف محاولاً
نفى هذا الإحساس المثير والخارق للطبيعة، حتى يستدير الطبي
وبخفة من ذيله، وطرشة قصيرة بحوافره يختفى بين القصب
العالى.

أسبر مجهداً بلا هدف لمدة ساعة قبل أن أعود راجعاً.

لم يملكنى من قبل قط إحساس بعدم عيش حياتى الخاصة
بحسب شروطى الخاصة .

أقول للفتاة جاهداً فى شرح ما حدث. إنها مضطربة بحديث
مثل هذا، أبدو كأننى بذلك المطلب، أريد إكراهها على
الاستجابة. تقول، أنا لا أفهم ، تهز رأسها.
ألم ترد إطلاق النار على الطبي؟
يمتد الصمت بيننا مدة طويلة.

تقول بثبات، إن كنت تريد أن تفعل شيئاً، افعله ، إنها تبذل
جهداً كى تكون واضحة. ولكنها ربما تعنى إن كنت قررت أن
تفعله، كان عليك أن تفعله . فى اللغة البديلة المؤقتة التى
نتقاسمها، لا توجد فوارق دقيقة فى المعنى. ألاحظ ان لها ميلا
للحقائق، للأقوال العملية، لا تحب الخيال ، الأسئلة، التأمل،
نحن زوجان غير منسجمين. ربما أنها الطريقة التى ينشأ عليها
أطفال البرابرة: استظهار من غير فهم، بواسطة الحكمة التى
تعود إلى الآباء والتى تسلم للأبناء.

أقول، أنت، هل تفعلين كل ما تريدين؟ لدى إحساس بأننى قد أطلقت العنان لى نفسى، منسحباً بالكلمات إلى مسافة خطيرة.

هل أنت هنا فى فراش معى لأنه الشىء الذى تريدينه؟

تستلقى عارية، بشرتها المزينة تتفد ذهباً نباتياً تحت وهج النار. هناك لحظات - شعر ببداية واحدة منها الآن - عندما تكون الرغبة التى أحس تجاهها، غامضة عادة، تترجرج فى شكل أقدر على إدراكه. تهتاج يدي، تركت عليها، تكيف نفسها مع محيط ثديها.

إنها لا تجيب عن سؤالى، ولكنى أغوص فيه، محتضناً إياها بشدة، متحدثاً بصوت أجش ومكتوم فى أذنها: تعالى، أخبرينى لماذا أنت هنا .

لأنه لا يوجد مكان آخر أذهب إليه .

ولماذا أريدك أنا هنا ؟

تتلوى فى قبضتى، تطبق يدها بين صدرها وصدرى. أنت تريد أن تتكلم طوال الوقت ، تتنمر. بساطة اللحظة تنقضى، نفترق ونستلقى بصمت جنباً إلى جنب. أى طير يمتلك قلباً ليغنى فى أكلة من أشواك؟ عليك بعدم الذهاب إلى الصيد إن كنت لا تستمتع به .

أهز رأسى، ذلك ليس مغزى الرواية، ولكن ما فائدة النقاش؟

أنا مثل مدير مدرسة غير كفء، أتصيد بكلاب التسالى(*)، بينما يتوجب على أن املاها بالحقيقة..

تتكلم، إنك باستمرار تسألنى ذلك السؤال،، لهذا سأحكى لك الآن. كانت شوكة، شوكة من ذلك النوع الذى له سنان. كانت هناك عقد صغيرة فوق السن كى تجعلها مثلومة. يضعونها فى الفحم حتى تحمى. ثم يلمسونك بها، ليحرقوك، لقد رأيت العلامات فى المكان الذى قاموا فيه بحرق الناس .

هل هذا هو السؤال الذى وجهته؟ أريد أن أحتج ولكننى عوضاً أستمر فى الإصغاء، مقشعراً.

انهم لم يحرقونى، لكنهم قالوا بأنهم سيحرقون عيني، لكنهم لم يفعلوا. قربها الرجل جدا من وجهى وأرغمنى على النظر إليها. أمسكوا بجفنى مفتوحين ولكن لم يكن لى ما أخبرهم به. كان ذلك كل شيء.

كان ذلك عندما حدث لضرر. بعدها لم أعد قادرة على الإبصار جيداً. كانت هناك لطخة فى منتصف أى شيء أتطلع إليه. بإمكانى رؤية ما حول الحافات. إنه أمر يصعب شرحه.

(*) لتسالى: خاص بالطريقة لسفراطية القائمة على توجيه الأسئلة لمتعاقبة أو شبيه بهذه الطريقة.

ولكنها تتحسن الآن. العين ليسرى أصبحت أفضل. ذلك كل شيء.

أتناول وجهها بين يدي وأتفرس في مركزي عينيها الميتين، اللتين تنعكس عنهما صورتين مماثلتين لي تتطلعان بكآبة بالمقابل. وهذا؟ قول، مثلماً الأثر الدودي الشكل في الزاوية.

ذلك لا شيء. ذلك حيث مسنى الحديد. أحدث حرقه صغير. انه غير مؤلم. تبعد يدي جانباً. ماذا تحسین تجاه الرجال الذين فعلوا هذه؟

تستلقى مفكرة مدة طويلة. ثم تقول: أنا قد سئمت من الكلام.

* * *

هنالك أوقات أخرى عندما أعانى من نوبات غيظ تجاه عبديتى لطقوس التزييت والدلك، النعاس، السقوط فجأة في اللاوعي. أتوقف عن إدراك أى سعادة استطعت اكتشافها يوماً في عنادها، وفي فتور جسدها، بل اكتشفت في داخلي دوافع لالزدراء. أصبحت منطوياً على نفسي، سريع الغضب. تدير الفتاة ظهرها وتستغرق في النوم.

في الحالة النفسية هذه، أقوم في إحدى الأمسيات، بزيارة إلى غرف الطابق الثانى من الفندق،

وبينما أنا أصعد السلم الخارجى الواهن، يمر بى رجل
مسرعا وهو يوارى وجهه. أطرق على الباب الثانى فى الممر
وأدخل. الغرفة هى نفسها، كما أتذكرها: السرير مرتب بإتقان،
الرّف الذى فوقه، مرصوفة عليه الألعاب والدمى، شمعتان
مضيئتان. وهج من الدفء منبعث من مسرب أنبوب الهواء
الساخن الممتد على طول الجدار، رائحة زهر البرتقال فى
الجو. الفتاة نفسها مشغولة أمام المرآة. تجفل لدخولى، لكنها
تنهض مبتسمة مرحبة بى ثم تدير رتاج الباب. لا شىء يبدو
أكثر طبيعيا من إجلاسها على السرير والبدء بخلع ملابسها.
تساعدنى هى فى تعرية جسدها الرشيق، مع قليل من حركات
اللامبالاة والتلوى. تتنهد، كم اشتقت إليك! وأهمس، يا لها من
بهجة أن أعود! ويالها من بهجة أن يكذب عليك بمثل هذا
الإطراء! أحضنها، أدفن رأسى فيها. أتبه فى تهيجها الناعم
كعصفورة. جسد الفتاة الأخرى، مغلق، ثقيل، نائم فى سريرى
فى مكان بعيد، يبدو عصيا على الفهم. لا أقدر أن أتصور الآن
ما الذى جذبنى إلى ذلك الجسد الغريب، وأنا منشغل بهذه المتع
الرقيقة. ترتعش الفتاة بين يدى، تلهث، تصرخ عند وصولها
إلى الذروة. مبتسما بجذل، منزلقا إلى نوم جزئى متراخ، يخطر
لى أننى لا أتمكن حتى من تذكر وجه الأخرى. أقول لنفسى،
انها ناقصة! على الرغم من أن الفكرة تبدأ بالعموم بعيدا، فإننى
أنشبت بها. تراودنى صورتها مخلقة العينين ووجهها المتكتم

المغطى بطبقة رقيقة من الجلد. فارغ مثل قبضة تحت شعر
مستعار أسود. يبرز الوجه خارجاً عن الرقبة وخارج الجسد
الفارغ تحته، ارتعد فجأة من ردة فعل قوية وأنا بين ذراعى
أنثاى - العصفورة الصغيرة. أضمرها إلى.

فى وقت متأخر من منتصف الليل، عندما أحرر نفسى من
ذراعيها، تتذمر ولكنها لا تستيقظ. أرتدى ملابسى فى الظلمة،
أغلق لباب ورائى، أتلصص طريقى هابطاً السلم، أعود مسرعاً
إلى البيت و لثلج ينسحق تحت قدمى بقرقشة وريح زمهرير
تحفر فى ظهري.

أشعل شمعة وأنحنى فوق الشكل الذى ، أنا كما يبدو مستعبد
منه بدرجة ما. أتحسس بخفة خطوط وجهها بأطراف أصابعى.
أتلصص جفنيها، فكيفها الواضحين، عظمتى وجنتيها المرتفعتين،
لفم الواسع. أتلصص برقة جفنيها. أنا واثق من كونها مستيقظة،
على الرغم من أنها لا تشى بعلامة ما.

أغلق عيني. أتنفس بعمق لتهدئة تهيجى، وأحصر ذهنى
تماماً فى رؤيتها عبر أصابعى المعتمدة. هل هى جميلة؟ الفتاة
التي فارقتها قبل قليل، الفتاة التي ربما (أدرك فجأة) أنها ستشم
رائحتها منى، جميلة جداً، لا جدال فى ذلك: حدة نشوتى معها
ازدادت بتأثير قوامها الدقيق، أسلوبها، حركتها. وأما بالنسبة
لهذه الفتاة فلا يوجد شىء أقوله عنها بكل ثقة. لا توجد صلة

يمكن أن حُددتها بين أنوثتها ورغبتى. لا أستطيع حتى أن أقول متأكداً إننى أرغب فيها. كل هذه التصرفات الحسية الخاصة بى غير مباشرة: أجوس حولها، متلمساً وجهها، مد عباً جسدها، دون أن أدخل بها، أو أجد لحظة وحدة لاستتطاق شهوتى: إن أرغب فيها كان يعنى احتضانها والدخول بها، أن أخترق سطحها وأهز هدوءها لداخلى فى عاصفة من لنشوة. ثم إن أنسحب، أن أُخمد فى انتظار أن تشكل لرغبة نفسها من جديد. ولكن بالنسبة لهذه المرأة وكما يبدو، فلا مدخل لها، مجرد سطح أجوس فيه ذهاباً وياباً باحثاً عن مدخل. هل هذا ما شعر به من قاموا بتعذيبها صيداً لإسرارهم، أيا كان ذلك الذى يعتقدونه؟ أحس وللمرة لأولى بشفقة متحفظة تجاههم، كم هو خطأ فطرى أن تصدق أنك تقدر أن تحرق أو تمزق أو أن تفرض سبيك إلى داخل الجسد المتكتم لآخر! الفتاة مستأنفة فى فراشها، ولكن لا يوجد سبب مقنع لماذا يتوجب أن يكون هذا فرشاً. أتصرف أنا فى بعض لحالات مثل عاشق - أخلع عنها ملابسها، أحممها، امسدها، أنام بجوارها - ولكنى بالدرجة نفسها تماماً، أُنذر على ربطها إلى كرسي وضربها، ولن يكون ذلك الأمر أقل حميمية.

الأمر ليس ن شياً ما حاصل فى مجرى ما يحدث لى ولذى يحدث لبعض الرجال فى سن معينة. تطور عكسى من فسق إلى أفعال انتقامية لتوق عقيم. إن كان تغيير ما قد بدأ

يحدث في السلوك الأخلاقي لكي نونتي، فإنني كنت سأحس به. ولا كنت قد خضت تجربة هذا المساء المجددة للطمأنينة. أنا الرجل عينه الذي كنته دائماً، ولكن الزمن قد تهشم، شيء ما قد سقط من السماء فوقى، بشكل عشوائي، من لا مكان: هذا الجسد في فراشي، الذي أتحمّل مسئوليتّه أنا، أو هكذا يبدو الأمر، وإلا فلماذا أقوم بالاحتفاظ به؟ أنا ببساطة مرتبك، في الزمن الراهن وربما إلى الأبد. يبدو الأمر سواء إن استلقيت على الفراش بجانبها واستغرقت في النوم، أو إن طويتها في داخل ملاءة ودفنتها في الثلج. ومع ذلك، منحنيّاً عليها، متمسكاً بجبهتها بأطراف أصابعي، أكون حذراً أن لا أدلق نوبة غضبي.

* * *

سواء أتحرّر هي أين كنت أنا، فذلك شيء لا أقدر أنا البت فيه، ولكن في الليلة التالية، عندما استكنت للنوم تقريباً عبر تناغم مع التزييت والتدليك، أحس أن يدي أبفيت وأحتفظ بها، ووجهت إلى تحت بين ساقها. تستقر برهة على أنوثتها، أرج بعدئذ المزيد من الزيت الدافئ على أصابعي وأبدأ في مداعبتها. يستجمع التوتر في جسدها، تنفوس وترتعد وتدفع يدي بعيداً. أستمّر في تدليك جسدها حتى أسترخي أنا أيضاً ويستولي على النوم.

لا أجد أي إثارة في هذا العمل الأكثر تعاوناً الذي قمنا به

حتى الآن. إنه لا يقربني منها أكثر ويبدو أنه يؤثر فيها بعض الشيء. ستكشف وجهها في الصباح التالي: إنه بلا تعبير. ترتدي ملابسها وتمشي مرتبة نازلة إلى عملها اليومي في المطبخ.

أنا قلق. ماذا يتوجب علي أن أفعله من أجل إثارتها؟ هذه هي الكلمات التي سمعتها في أذني في دمدمة خفية ولتي قد بدأت تأخذ مكان المحادثة بيننا. أأن يثيرك أحد؟ وبانتقاله رعب أرى لجواب الذي كان منتظرا طوال الوقت يقدم نفسه لي في صورة لوجه مستتر بواسطة عيني سوداوين زجاجيتين حشريتين، لا تجيء منها نظرة متبادلة، ولكن صورتي المتضاعفة فقط مرتدة نحوي.

أهز رأسي بضراوة لإنكار. لا! لا! لا! أصرخ لنفسي. إنه أنا الذي أضلل نفسي، بدافع فراغ. نحو هذه المعاني والتطابقات. أي فساد هذا الذي يزحف على. أبحث عن أسرار وإجابات مهما تكن غرابتها، مثل امرأة عجوز تقرأ في أوراق الشاي. لا يوجد شيء يربطني بأولئك الذين يمارسون التعذيب. أناس يقبعون منتظرين مثل خنافس في قبية مظلمة. كيف يمكنني أن أعتقد أن الفراش هو أي شيء ما عدا فراش، جسد امرأة هو أي شيء ما عدا موضع للابتهاج؟ يجب علي أن أؤكد على بعدى عن العميد-جول! لن أعاني أنا بسبب جرائمه!

* * *

أبدأ بزيارة الفتاة فى الفندق بانتظام. هناك لحظات فى خلال النهار، فى مكتبى خلف قاعة المحكمة، يهيم فيها انتباهى وأنجرف مع أحلام يقظة حسية، أزداد سخونة وانتفاخاً بل باهتياج، أتريث فوق جسدها مثل شاب حالم شهوانى، ثم على مضض يتوجب على استعادة نفسى إلى ضجر أوراق العمل أو أسير نحو النافذة وأحرق فى الشارع، أتذكر كيف أننى اعتدت فى لأعوام الأولى لتعيينى هنا، التجوال فى الأحياء الغريبة للبلدة وقت الغسق، مظلاً وجهى بمعطفى الواسع. وكيف فى بعض الأحيان، إن زوجة قلقة، تميل على الباب المفتوح جزئياً، ونيران الموقد يلتهم من خلفها، تستجيب لنظرتى دون أن تحجم، وكيف كنت أشرع فى محادثة مع فتيات شابات يقمن بنزهة اثنتين.. اثنتين أو ثلاث، اشترى لهن (الشربت) (*)، وقد أقود بعدئذ واحدة بعيداً فى الظلام إلى مخزن الحبوب القديم وفراشى من الأكياس. إن كان هناك شىء يمكن إن يحسد عليه فى وظيفة على الحدود، أخبرنى أصدقائى، فهو السلوك الأخلاقى العفوى للواحات. أمسيات الصيف العطرة الطويلة، لين جانب نسائهن فريدات الأعين. لبست لعدة أعوام مظهر خنزير برى وافر الصحة جدير للفوز بجائزة ما. بعدئذ تعدلت تلك الاتصالات غير الشرعية إلى علاقات أكثر تحفظاً مع

(*) شربت (Sherbet): شراب مثلى يعد من عصير الفاكهة المحلى.

مدبرات منازل وفتيات أقمن أحياناً في مكان إقامتي في الطابق العلوي، ولكن في الغالب، في الطابق الأرضي بمساعدة المطبخ، وإلى علاقات مع فتيات يقمن في الفندق. اكتشفت أنني احتجت إلى لنساء بصورة قل تكراراً عن ذي قبل. أمضيت وقتاً أطول مهتماً بعملى، هواياتى، جمع الآثار، ورسمى للخرائط.

ليس ذلك فحسب: كانت هناك مناسبات غير مستقرة، عندما، في منتصف لفل الجنسى، كنت أحس بأننى أضل طريقى مثل راوى قصة يضيع منه طرف خيط قصته. تذكرت برجفة شصوص الفكاهة أولئك، رجال سمان مسنون تتوقف عن النبض قلوبهم المثقلة بأكثر مما تتحمل، الذين يفارقون الحياة بين أذرع حبيباتهم مع اعتذار على شفاههم ويتم نقلهم إلى الخارج كي يلقوا في زقاق معتم من أجل انقاذ سمعة الدار. ذروة الفعل نفسها غدت نائية، ضئيلة، شيئاً غريباً. في بعض الأحيان كنت أساق إلى وقفة، وأحياناً كنت أمضى آلياً حتى النهاية. وكنت لمدة أسابيع وشهر أتقاعد متبتلاً. البهجة القديمة في دفء أجساد النساء وجمالها لم تخذلنى، ولكن كان هنائى لغز جديد. هل أريد أنا حقاً أن أدخل وأن أدعى امتلاك هذه المخلوقات الجميلة؟ الرغبة كما تراعت تجلب معها شجن البعد والفراق الذى كان من العبث إنكاره. ولا أستطيع أن أفهم دائماً السبب الذى يجعل من جزء وحد من جسدى، بتوقه غير المبرر

ووعوده المزيفة، يتوجب الاهتمام به أكثر من أى جزء آخر كمجرى للرغبة. يترأى لى فى بعض الأحيان، أن ذكورتى هى كائن آخر تماماً، حيران غبى يعيش متطفلاً علىّ، ينتفخ وبتضائل بحسب شهيته لمستقلة، مرتكزاً إلى جسدى بمخالب لا أستطيع فكها. لماذا يتحتم على حملك هنا وهناك من امرأة إلى امرأة، سألت أنا: أبسطة لأنك قد ولدت من غير ساقين؟ هل يعنى لأمر أى اختلاف بالنسبة إليك ان كنت قد زرعت فى قطة أو كلب بدلاً من فى؟

هناك مع ذلك أوقات أخرى، وعلى الأخص فى العام الماضى مع فتاة تكنى كيبا فى لفندق باسم النجمة، ولكنى فكرت فيها على الدوام كأنها عصفورة، وقتها أحسست مجدداً بالقوة المألوفة للسحر الحسى، انزلت بعيداً فى جسدها، وانتقلت إلى الحدود السابقة للمتعة. وهكذا فكرت: إن الأمر لا يعدو كونه مسألة عمر، دورات الرغبة وفتور الإحساس فى جسد والتى تبرد وتموت بتباطؤ. عندما كنت شاباً، كانت مجرد رائحة امرأة تثيرنى، واليوم وبوضوح، لا تمتلك تلك القوة إلا جملهن وأصغرهن وأحدثهن، وسوف يكون الأمر فى يوم من هذه الأيام أولاداً صغاراً. نظرت ببعض النفور قدما إلى أعوامى الأخيرة فى هذه الواحات المعطاء.

الآن ولثلاث ليال متتاليات، أزورها فى غرفتها الصغيرة،

حاملاً هدايا من زيت كانانغا، حلوى، وجرة من البطارخ المدخنة، التى أعرف أنها تحب التهامها علي نفرد. تغلق عينيها عندما أحتضنها: مرتعشة لما يبدو فرحاً يجتاح كيانها. تحدث لصديق الذى زكاها لى قائلاً عن مواهبها: الأمر كله تمثيل بطبيعة الحال، ولكن الاختلافات فى حالتها هو أنها تؤمن بالدور الذى تقوم به. بالنسبة لى، اكتشفت أننى غير مهتم. مأسورا بأدائها، فُتح عيني فى منتصف كل الاهتياج والارتعاش ولتأوه، ثم أغرق فى النهر لمظلم لمتعتى لخاصة. أمضيت ثلاثة أيام فى تراخ حسى، مثقل الجفنين، مستغرقاً فى أحلام اليقظة. أعود إلى مكان إقامتى بعد منتصف الليل وأنزلق إلى لفراش، غير مبد أى اهتمام بالشكل المسترسل فى عناده والراقد بجوارى. وفى الصباح، إن استيقظت على صوت استعداداتها، فإنى أظاهر بالنوم حتى تكون قد ذهبت.

حدث ذات مرة وأنا أجتاز باب المطبخ المفتوح، أن ألقيت نظرة إلى الداخل. ومن خلال أعمدة الدخان، والبخار، أرى فتاة قصيرة ممثلة الجسم جالسة عند مائدة تهيئ الأكل. أفكر فى نفسى بدهشة، أنا أعرف من تكون تلك، ومع ذلك، فإن الصورة التى بفتت تلح فى ذكرتى وأنا أعبر لساحة، هى منظر كومة القرع الأخضر أمامها على المائدة. أحاول وبتأن أن أنقل النظرة التى تكونت فى الذكرة من القرع ثم إلى اليدين اللتين تقطعانه ومن ليدى إلى الوجه. أعثر فى نفسى على

نفور ومقاومة. يبقى اهتمامى منحصراً بانبهار فى القرع، وفى ومضة النور على قشرتها المبللة. لا تتحرك الصورة وكأنما بإرادة منها. وهكذا أبدأ فى مواجهة حقيقة ما أنا أحاول أن أفعله، أدرك أننى إن تناولت قلماً لتخطيط وجهها فلن أعرف من أين أبدأ، هل هى حقاً بلا ملامح إلى هذا الحد؟ أركز بجهد تفكيرى فيها. أرى شكلاً يرتدى قبعة ومعطفاً ثقيلاً لا شكل له واقف بشكل مقلقل، منحني نحو الأمام، مباعد الساقين، يسند نفسه بعكازين. كم هو قبيح، أقول لنفسى يشكل فمى الكلمة البشعة. أنا مندهش للأمر، ولكننى لا أقاوم: إنها قبيحة، قبيحة.

أعود فى الليلة الرابعة بمزاج سيئ، أضرب فى أرجاء شقتى بصوت عال، غير مهتم بمن هو صاح كان المساء فشلاً فتيار الرغبة المتجدد قد توقف. أرمى حذائى العالى الرقبة على الأرض وأصعد إلى الفراش، راغباً فى شجار، أتوق إلى من ألومه، خجلاً أيضاً من صبيانيتى. غير قادر على فهم ما الذى تفعله هذه المرأة التى تجاورنى فى حياتى. فكرة لمتعة التى وصلت إليها عبر جسدها الناقص، تملؤنى باشمئزاز متحفظ ساخر، وكأننى أمضيت ليلى أجامع دمية من قش وجلد. أى شىء رأيته منها فى أى وقت مضى؟ أحاول أن أتذكرها كما كانت من قبل أن يبدأ معالجو الألم تقديم خدمتهم. الأمر مستحيل لأن نظرتى لم تعبر فوقها وهى جالسة مع البرابرة الآخرين، فى اليوم الذى جلبوا فيه إلى المكان. أنا مقتنع أنه فى

مكان ما في دماغى الملىء بالثقوب، شىء مودع، ولكننى غير
قادر على استعادته. أقدر على تذكر المرأة مع الطفل، بلى
وحتى الطفل نفسه. أقدر على تذكر كل التفاصيل: الحاشية
البالية للشال الصوفى، غشاء العرق تحت خصلات الشعر
الجميل لاطفل. أقدر على تذكر الأيدى الناتئة العظام للرجل
الذى مات، أعتقد أننى حتى قُدر، بجهد، على إعادة تشكيل
وجهه. ولكن هناك إلى جانبه حيث يتوجب أن تكون الفتاة،
فراغ، فسحة خالية.

أصبحو فى الليل والفتاة تهزنى وصدى أنين خافت ما زال
عالقاً فى الجو. تقول، كنت تصرخ فى خلال نومك. لقد
أيقظتنى .

بماذا كنت أصرخ؟

تدمدم بشىء ما، تكدير ظهرها نحوى.

فى ساعة متأخرة من الليل، توقظنى ثانية: كنت تصرخ .

أحاول، وأنا مثقل الرأس، مرتبكا وغازباً أيضاً، أن
استكشف ما فى داخلى، ولكننى لا أبصر غير دوامة فى قلب
دوامة النسيان.

تقول: أهو حلم؟'

لا أستطيع أن أتذكر أى حلم .

هل الأمر أن حلم الطفلة ذات القبعة التي تبني قصر الثلج قد بدأ يعاودنى؟ إن كان الأمر كذلك، فلابد أن نكهة أو رائحة أو انعكاسات منه ستتخلف معى.

أقول، هناك شيء أريد أن أسألك. هل تتذكرين اليوم الذى جلست فيه إلى هنا، إلى ساحة التكنات؟ لقد أرغمكم الحراس على الجلوس على الأرض. أين جلست؟ أى جهة كنت تواجهين؟

أتمكن عبر النافذة من أن أرى خطوطاً من غيوم تعبر وجه القمر، من خلال الظلمة وهى بجوارى، تقول، لقد جعلونا نجلس سوياً فى الظل. كنت إلى جوار والدى .

أستجمع صورة والدها. أحاول فى صمت أن أعيد خلق الحر الشديد، الغبار، رائحة كل تلك الأجساد المتعبة. أجلس السجناء فى ظل جدار التكنات، واحداً بعد واحد، أقدر على تذكر كل شيء. أضع المرأة مع الطفل، شالها الصوفى، صدرها للعارى. الطفل يبكى، أسمع النحيب، إنه متعب جداً إلى حد أنه غير قادر على الشرب. الأم متسخة بالوحل، عطشى، تنظر إلى، حائرة فيما إن كنت قادراً على تقديم مساعدة لها. يليها شكلان ضبابيان. ضبابيان، لكنهما حاضران: أعرف ذلك من خلال جهد نصف ذاكرة، نصف خيال، بإمكانى ملء الفراغين. ثم يأتى والد الفتاة، يداه النائتتا العظام مطويتان

أمامه. طرف قبعته على عينيه، إنه لا يتطلع إلى الأعلى.
والآن أستدير نحو الفراغ بجوره.
على أية جهة من والدك كنت تجلسين؟
جلست إلى يمينه .

الفسحة على بيمين الرجل تبقى خالية. بتركيز مؤلم، أبصر
حتى كل حصاة على الأرض بجواره وتركيب الجدار خلفه.
حدثني عما كنت تفعلين .

لا شيء. كنا جميعاً منهكين. كنا قد بدأنا السير قبل الفجر .
هل رأيتي؟

نعم، لقد رأيناك جميعاً.

أشبك يدي حول ركبتي مفكراً بتركيز. الفسحة بجوار الرجل
تبقى خالية ولكن هناك إحساس ضئيل بوجود الفتاة، أو هالة ما
في الجو، تبدأ في الظهور الآن! ألح على نفسي: الآن سأفتح
عينى، وستكون الفتاة هناك. أفتح عينى. فى النور المعتم أميز
حجمها إلى جوارى. باندفاع من أحاسيس أبسط يدي لأمس
شعرها، وجهها. لا توجد أى استجابة حية. الأمر مثل مداعبة
جرو أو كرة، شيء كله سطح.

قول، كنت أحاول أن أتذكرك كما كنت قبل كل ما حدث،
أجد الأمر صعباً. من المؤسف أنك غير قادرة على إخبارى .

لا أتوقع استتكاراً، وهو لم يصدر.

* * *

وصلت كتيبة من المجندين الإلزاميين لتسلم أماكن الرجال الذين أنهوا أعوامهم الثلاثة التي سفحت على الحدود، والمستعدون للرحيل إلى منازلهم. كانت الكتيبة بقيادة شاب، سينضم إلى مجموع مساعديه.

أدعوه مع اثنين من زملائه، لتناول العشاء معى فى الفندق. تمضى الأمسية بشكل مرض: الطعام جيد، الشراب وفير، وضيفى لديه العديد من القصص عن رحلته، التي تمت فى طقس قاس وفى إقليم غريب عنه تماماً لقد فقد ثلاثة رجال فى الطريق، يقول: غادر أحدهم خيمته فى الليل استجابة لنداء الطبيعة ولم يعد مطلقاً، اثنان آخران هربا على مرأى من الواحات تقريباً، انساباً خارجاً للاختفاء بين القصب. صانعو مشاكل، ينعتهم، وهو لم يتأسف لأنه تخلص منهم. ومع ذلك، لا أعتقد أن قرارهم حماقة؟ أجيب، حماقة كبيرة، وأسأل إن كانت لديه فكرة عن السبب الذى جعلهم يهربون؟ يقول، لا، كانوا يعاملون بشكل جيد، كل واحد عومل بشكل جيد، ولكن هناك بعد ذلك مجندون... يهز كتفيه. اقترح، كان من الأفضل لهم الفرار فى وقت مبكر، الريف من حول المكان لا يساعد على العيش، إنهم رجال أموات إن لم يكونوا قد عثروا على ملجأ حتى الآن.

نتحدث عن البرابرة. يقول، إنه مقتنع بأنه كان، في جزء من طريقه، متبوعاً عن بعد من قبل البرابرة. أسأل، هل أنت متأكد من أنهم كانوا برابرة؟ يجيب، ومن غيرهم يقدر على ذلك؟ يتفق زملاؤه معه.

أعجب بحيوية هذا الشاب، اهتمامه بالمشاهد الجديدة في إقليم الحدود، وإنجازه في جلب رجاله إلى هنا في هذا الموسم الميت، أمر حميد. عندما يلتبس رفاقنا الانصراف بسبب تأخر الوقت، أضغط عليه للبقاء. نجلس معاً بعد منتصف الليل للحديث والشراب. أستمع إلى أحدث الأخبار عن العاصمة، التي لم أرها منذ زمن طويل. أحكى له عن بعض المناطق التي أتذكرها بحنين: سراق الحقائق حيث يعزف الموسيقيون للزوار المتجولين، وكيف أن قدم المرء تخشع عبر أوراق الكستناء المتساقطة في الخريف. أتذكر جسراً يستطيع المرء وهو فوقه أن يرى انعكاس القمر على الماء الذي يتموج حول مثلثات على هيئة زهرة الباراديس^(*).

يقول، تسرى الأقاويل في مركز قيادة الفرقة أنه سيكون هناك هجوم عام ضد البرابرة في الربيع لدفعهم عن الحدود نحو الجبال .

أنا أسف لقطع قطار الذكريات. لا أريد أن أنهى الأمسية

(*) Paradise: لجنة، لفردوس.

بمشاحنة. مع ذلك أستجيب. أنا واثق من أنها مجرد إشاعة: إنهم غير قادرين على القيام بذلك، الناس الذين تتعتهم بالبرابرة هم من البدو، إنهم يرتحلون كل عام ما بين الأراضي المنخفضة والمرتفعة، تلك هي طريقهم في الحياة. إنهم لن يسمحوا لأنفسهم قط بأن يُحجزوا في الجبال .

يتطلع إلى بغرابة. أحس للمرة الأولى في هذه الأمسية أن حاجزاً ينزل. الحاجز ما بين العسكري والمدني، يقول، لكن بالتأكيد، إن كنا نريد الصراحة، ذلك هو معنى الحرب. إكراه أحد ما على خيار لن يفعله عن طريق آخر . يعاينني بعجرفة شاب متخرج في الكلية الحربية. أنا متأكد من أنه يتذكر القصة، التي انتشرت الآن حتماً في الأرجاء، كيف إنني امتنعت عن التعاون مع ضابط من المكتب الثالث. اعتقدت أنني أعرف ماذا يرى أمامه: موظفاً إدارياً ثانوياً غطس، بعد أعوام، في هذا الموضع الخلفي المنعزل، في أساليب فطرية، كسولاً، متأخراً في تفكيره، مستعداً للمقامرة على أمن الإمبراطورية في سبيل بديل مؤقت، سلام مترعزع.

يميل إلى الأمام، متظاهراً بحيرة صبي يراعى الآخرين: أنا مقتنع أكثر فأكثر بأنه يتلاعب بي. يقول، قل لي، سيدى سرّاً، ما هي الأمور التي يستاء منها البرابرة؟ ماذا يريدون منا ؟

يتوجب على أن أكون حذراً، ولكني لا أكون. يتوجب على

أن أثناعب متملصاً من سؤاله، أن أنهى الأمسية، ولكننى أجد نفسى أصد إلى الطعم (متى سأتعلم أن أمسك بلسان ماكر؟).

إنهم يريدون وضع نهاية لانتشار المستوطنات عبر أراضيهـم. إنهم يريدون عودة أراضيهـم، فى النهاية. إنهم يريدون أن يكونون أحراراً فى التجوال مع قطعانهم من مرعى إلى مرعى، كما اعتادوا . لم يفت الأوان بعد لوضع نهاية للمحاضرة. بدلاً أسمع صوتى ترتفع نبرته وأتنازل عن نفسى أسفا لثمالة الغضب. لن أقول شيئاً عن لغزوات الأخيرة التى شنت عليهم، بلا أى مبرر تماماً، تبعثها أعمال غاية فى القسوة، ما دام أمن الإمبراطورية فى خطر، أو هذا ما أخبرت به، سيتطلب الأمر أعواماً من أجل ترقيع الخراب الذى حصل فى تلك الأيام المحدودات، ولكن دع ذلك يمر، دعنى على الأصح، أخبرك عن الذى أجده مثبطاً لهمتى كموظف إدارى حتى فى أوقات السلم، حتى عندما تكون علاقات الحدود جيدة. هناك وقت فى السنة، أنت تعرف، عندما يزورنا البدو للتجارة. حسناً: اذهب إلى أى كشك لبيع البضاعة وابصر بنفسك من الذى يستخف به ويغش ويتعرض لصراخ ويخدع. شاهد من الذى يرغب على ترك أهله من النساء خلفه فى الخيمة خوفاً من أن يتعرضن للإهانة من قبل الجنود. اشهد بنفسك من الذى يستلقى ثملاً فى قنوات البالوعات، واشهد من الذى يرفسه حيث هو متمد. إنه هذا الاحتقار للبرابرة، احتقار يبدو ظاهراً من

قبل أبسط عامل إلى فلاح في مزرعة، ذلك أننى كقاض كان على أن أجادل ضد ذلك لعشرين عاما. كيف يمكنك استئصال الاحتقار، خاصة عندما يكون الاحتقار مبنياً على أمر جوهري لا يعدو كونه اختلافات في آداب المائدة، اختلافات في تركيب جفن العين؟ هل أخبرك ما الذى أتمناه أحياناً؟ أتمنى لو أن هؤلاء البرابرة يثورون ويعلموننا درساً، من أجل أن نتعلم احترامهم. نحن نفكر فى هذا البلد وكأنه ملكنا، جزء من إمبراطوريتنا - قاعدتنا الأمامية، مستوطنتنا، مركزنا التجارى. ولكن هؤلاء الناس، هؤلاء البرابرة لا يفكرون إطلاقاً بنفس الطريقة. لقد مضى على وجودنا هنا أكثر من مائة عام، لقد استصلحنا أراضى من الصحراء وأنشأنا مشاريع إرواء وزرعنا حقولاً وبنينا منازل ثابتة ووضعنا سوراً حول بلدتنا، ولكنهم ما يزالون يفكرون بنا كزوار عابرين. هناك أناس من كبار السن بينهم يتذكرون آباءهم وأمهاتهم يحكون لهم عن هذه الواحات كما كانت فى يوم من الأيام: مكاناً ظليلاً على ضفة البحيرة فيها وفرة من المراعى حتى فى الشتاء. تلك هى الكيفية التى ما زالوا يتحدثون بها، ربما الكيفية التى ما زالوا يرونها، وكأنما لم يقلب ملء مساحة واحدة من الأرض ولم توضع أجرة واحدة فرق أخرى. الشك لا يساورهم من أننا فى يوم من هذه الأيام سنحمل عرباتنا ونرحل إلى حيثما جئنا منه، وأن كافة مبانينا ستصبح بيوتاً للفئران والسحالي، وأن حيواناتهم سترعى

فى هذه الحقول التى قمنا بزراعتها. أتبتسم أنت؟ هل أقول لك شيئاً؟ البحيرة تزداد مياهها ملوحة سنوياً. هناك تفسير بسيط - لا تبال قط به - البرابرة يعرفون هذه الحقيقة. انهم فى هذه اللحظة بالذات يقولون لأنفسهم، كن صبوراً، فى يوم من هذه الأيام، ستبدأ محاصيلهم بالذبول جراء الملوحة، لن يكونوا قادرين على إطعام أنفسهم، سيكون لزاماً عليهم الرحيل. ذلك ما يفكرون به. ذلك أنهم يفوقوننا قدرة على الاستمرار .

ولكننا غير مغادرين . يقول الشاب فى هدوء.

هل أنت واثق؟

نحن غير راحلين. ولهذا فإنهم يرتكبون خطأ. لن نذهب حتى إن أصبح ضرورياً تزويد المستوطنة بقوة عسكرية للحماية، لأن هذه المستوطنات هى خط الدفاع الأول للإمبراطورية. كلما فهم البرابرة هذا عاجلاً كان أفضل .

على الرغم من مظهره الخارجى الجذاب فهناك صرامة فى تفكيره لا بد أنها مستمدة من دراسته العسكرية. أتنهد. لم أحصل أنا على شىء جراء إطلاق نفسى فى الكلام. لقد تأكدت أسوأ ظنونه بلا شك: ذلك أننى معتل عقلياً، كما أننى من طراز محافظ. وهل أنا حقاً، بعد كل شىء، أو من بما كنت أقوله؟ هل أتطلع بلهفة إلى انتصار وجهة نظر البرابرة: خمول ذهنى، قذارة تامة، تسامح تجاه المرض والموت؟ إن قدر لنا أن نختفى

فهل البرابرة سيمضون أمسياتهم في الكشف عن آثارنا في خرائبنا؟ هل سيحافظون على وثائقنا الرسمية للإحصاء السكاني ودفاتر تجار حبوبنا في صناديق زجاجية، أم أنهم سيكرسون أنفسهم لحل نصوص رسائل الحب العائدة لنا؟ هل سخطى تجاه السلوك الذي تنتهجه الإمبراطورية في أى حال من الأحوال وإلى حد بعيد ضجر رجل عجوز لا يريد أن تستعكر طمأنينة أيامه الأخيرة على الحدود؟ أحاول أن أوجه المحادثة إلى موضوعات أكثر ملاءمة، إلى الخيول، الصيد، الجو، ولكن الوقت يصبح متأخراً، وصديقي الشاب يرغب في المغادرة وعلى أن أسدد حساب ضيافة الأمسية.

* * *

الأطفال يلعبون في الثلج ثانية، في وسطهم، والظهر نحوى، هو الشكل ذو القبة للفتاة. وبينما أنا أجهد نفسي نحوها، تكون في لحظات اختفت عن النظر خلف ستارة من ثلج متساقط. تغوص قدمي عميقاً إلى حد أني لا أقدر على رفعهما. كل خطوة تستغرق دهرأ. إنها أسوأ ثلوج تساقطت في أحلامي. وعندما أجرى متقلاً باتجاههم، يتخلى الأطفال عن لعبهم ليتطلعوا إلى. يديرون نحوى وجوههم الرزينة المتألقة، تندفع أنفاسهم البيضاء منهم بنفثات. أحاول أن أبتسم وأمسهم عندما أمر وأنا في طريقى إلى الفتاة، ولكن تقاطيع وجهي متجمدة،

الابتسامة لا تظهر، وهناك كما يبدو طبقة من جليد تغطي فمي. أرفع يداً لأزيلها: أجد ان الهد ترتدى قفازاً ثقيلًا، الأصابع متجمدة في داخل القفاز، لا أحسن بشيء عندما ألمس وجهي بالقفاز. لا أحسن بأى شيء. أشق طريقى بخطوات ثقيلة ماراً بالأطفال.

الآن يمكننى أن أرى ما تفعله الفتاة، إنها تبني قلعة من ثلج، بلدة مسورة أعرفها بكل تفاصيلها: جدار الحصن وأبراج الحراسة الأربعة فيه، البوابة وكوخ البواب بجوارها، الشوارع والبيوت، الساحة الكبيرة ومجمع التكنات فى أحد الزوايا. وها هى البقعة عينها التى أقف عليها! ولكن الساحة خالية، البلدة بأكملها بيضاء وخرساء صماء وخالية! أشير إلى مركز الساحة. أريد أن أقول، لابد أن تضعى أناساً هناك! ، لا صوت يخرج من فمي، حيث يرقد لسانى متجمداً مثل سمكة. مع تلك تستجيب هى. تجلس على ركبتيها وتدير رأسها المغطى بقبعة نحوى. فى هذه اللحظة الأخيرة، أخاف أن تكون خيبة أمل، أن يكون الوجه الذى ستقدمه لى بليداً، زلقاً، مثل عضو داخلى، لم يعد للعيش فى الضياء. ولكن لا، إنها نفسها، نفسها بالرغم من أننى لم أرها مطلقاً، طفلة باسمه، يتلأل الضوء على أسنانها، وتلقى نظرة سريعة من عينيها اللتين بلون الكهرمان الأسود. أقول لنفسى، إذن هذا هو الشيء الذى يتعين على إدراكه. أريد إن أتحدث إليها من خلال فمي المتجمد. أريد ان أقول،

كيف تصنعين كل ذلك العمل الجميل ويداك في القفاز؟ تبئسم بلطف لدمدمتي. ثم تستدير عائدة إلى قلعتها في الثلج. أبزغ من الحلم مقروراً ومتصلياً. إنه الوقت الذي يسبق الضياء الأول بساعة، النار منطفئة، جلدة رأسى تحس بالخدر والبرد. الفتاة إلى جوارى، نائمة متجمعة حول نفسها في كرة. أغادر الفراش، وبمعطفى الواسع ملفوفا حولى، أبدأ فى إنكاء النار ثانية.

الحلم متجذر، أعود، ليلة بعد ليلة إلى رقعة الساحة المترامية الأطراف المكتسحة بالثلج، مجهداً السير نحو الشكل فى مركزها، مؤكداً فى كل مرة، أن البلدة التى تقوم ببنائها الفتاة، خالية من الحياة.

أسأل الفتاة عن شقيقاتها. لديها شقيقتان. الصغرى، كما تقول، جميلة جداً، ولكنها مشتتة الذهن. أسأل، ألا تودين رؤية شقيقتيك مجدداً؟ الاضطراب يتدل بشكلى منفر فى الجو بيننا. يبتسم كلانا تقول، بالطبع.

أسأل أيضاً عن المدة التى أعقبت سجنها، عندما، مجهولة من قبلى، عاشت فى هذه البلدة تحت نطاق سلطتى القضائية. كان الناس رحماء بى عندما أدركوا أننى قد تركت وحيدة. اعتدت النوم فى الفندق حيناً من الزمن فى الوقت الذى بدأت فيه قنماى بالتحسن. كان هناك رجل تولى الاعتناء بى. لقد

ذهب الآن. كان يقتتى الخيول. كما أنها تذكر الرجل الذى أعطاهما زوجى الأحذية بالرقبة العالية التى كانت ترتديهما عندما التقيت بها فى المرة الأولى. أسأل عن رجال آخرين. نعم، كان هناك رجال آخرون. لم يكن لدى خيار. كان ذلك كيف وجب أن يكون الأمر .

بعد هذه المحادثة ازدادت العلاقات مع عامة الجنود توتراً. مغادراً فى الصباح شقتى إلى دار العدالة، أمرُ بأحد مواكب التفتيش العسكرية النادرة. أنا متأكد أن من بين هؤلاء الرجال الواقفين فى استعداد، وتجهيزاتهم فى رزمة عند أقدامهم، بعضا ممن نام مع الفتاة. ليس ذلك اننى أتخيلهم بضحكون بتهكم من خلف أيديهم. لم أرهم قط واقفين برزانة أكثر فى الريح المتجمدة التى تضرب عبر الساحة. ولم تكن قط ملامحهم أكثر احتراما. أعرف أن بإمكانهم أن يقولوا لى إن تمكنوا، نحن رجال جميعاً، وإن بإمكان أى رجل أن يفقد عقله بسبب امرأة. ومع ذلك، أحاول المجيء إلى البيت متأخرا فى الأمسيات لتفادى صف الرجال عند باب المطبخ.

هناك أخبار ترد عن جنديى الملازم الهاربين، واضع أفخاخ عثر عليهما متجمدين حتى الموت فى مخبأ بدائى لا يبعد غير ثلاثين ميلاً شرق مستوطنتنا. وعلى الرغم من أن الملازم مبال إلى تركهم هناك (ثلاثون ميلاً للوصول وثلاثون ميلاً للعودة فى

هذا الجو، أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لرجال لم يعودوا رجالاً،
ألا تعتقد ذلك؟)، أقنعه بإرسال بعثة إلي هناك. أقول، يجب أن
تجرب لهم الشعائر، فضلاً من كونه أمراً جيداً بالنسبة لمعنويات
رفاقهم. عليهم أن لا يتصوروا بأنهم أيضاً سيموتون في
الصحراء ويرقدون منسيين. ما نقدر على عمله من أجل تخفيف
رهبتهم من حتمية مغادرة هذه الأرض الجميلة، يجب أن نفعله.
وبعد كل شيء، فنحن الذين نقودهم إلى هذه المخاطر. وهكذا
تغادر البعثة، وتعود بعد يومين بالجثتين الملتويتين المتصلبتين
انجماداً في عربة. ما زلت أجد الأمر غريباً إن رجالاً يتوجب
عليهم ترك منازلهم إلى مسافة مئات الأميال وعلى بعد مسيرة
يوم واحد من الطعام والدفع، ولكنني لا أتتبع الموضوع أبعد
من ذلك. واقفاً عند حافة المقبرة المتصلبة أرضها جليداً بينما
تجرب آخر الشعائر ورفاق المتوفى الأسعد حظاً يراقبون
حاسري الرؤوس، أكرر لنفسى إننى بالتأكيد على المعاملة
الصحيحة للعظام، أحاول أن أبين لهؤلاء الرجال الشباب أن
الموت غير فان، واننا نبقى أحياء مثل فروع فى ذاكرة من
عرفناهم. مع ذلك هل أنا حقاً ومن أجل فائدتهم وحدها أقيم
المراسم؟ ألا أواسى نفسى أيضاً؟ أبدى استعداداً لتولى المهمة
الروتينية الشاقة فى الكتابة إلى الوالدين لإعلامهما بمصائبهما
الشخصى. أقول، إنها أخف وقعاً على رجل مسن .

* * *

تسأل، ألا تحب أن تفعل شيئاً آخر؟

قدهاها تستريحان فى حضنى. أنا منذهل، تائه فى إيقاع
دعك الكاحل المتورم وذلكه. سؤالها يباغتنى. إنها المرة الأولى
التي تحدثت فيها بوضوح تام. لا أبالي بالسؤال، أحاول أن
أنزلق عائداً إلى غيبوبتى، غير بعيد عن النوم متمنع عن
الانحراف عنه.

تتحرك القدم فى قبضتى، تسرى فيها الحياة، تخر بلطف
منسبت فخذى. افتح عينى على الجسد الذهبى العارى فى
الفراش. تستلقى هى ورأسها بين يديها، تراقبنى بالطريقة غير
المباشرة التى اعتنتها الآن، مبدية صدرها المتماسك وبطنها
الملساء، تطفح بصحة جسد شاب. تستمر أصابع قدميها فى
الجلس، ولكنها فى هذا السيد العجوز المترخى الجاثى أمامها
يردائه المنزلى الأرجوانى الداكن لا تجد استجابة.

فى مرة ثانية . أقول ولسانى يلتوى ببلادة حول الكلمات.
إنها كذبة على قدر ما أعرف، ولكننى ألتفظها. ربما فى مرة
ثانية . ثم أرفع قدميها جانباً، وأستلقى بجوارها. الرجال
المتقدمون فى السن، لا يمتلكون عفة كى يحافظوا عليها، ماذا
أستطيع أن أقول إذن؟ إنها كذبة عرجاء على نحو هزيل، وهى
لا تفهمها. تنزلق تفتح ردائى وتبدأ بمداعبتى، بعد وقت قصير
أدفع يدها بعيداً.

تهمس، 'أنت تزور فتيات أخريات، هل تعتقد بأننى لا أعرف؟

أشير إليها بشكل قاطع أن تصمت.

تهمس، هل تعاملهن أيضا هكذا؟ وتبدأ فى النشيج.

على الرغم من أن قلبى يتمزق من أجلها، لا يوجد شيء أنا قادر على القيام به. ومع ذلك أى إذلال لها! أنها لا تقدر حتى مغادرة الشقة دون ترنح أو تحسس وهى تقوم وتجلس. إنها سجينه الآن بقدر ما كانت قبلاً. أربت على يدها وأغرق فى كآبة عميقة.

إنها الليلة الأخيرة التى ننام فيها فى فراش واحد. أنقل سريراً نقالاً إلى بخرفة الاستقبال وأنام هناك. الألفة الجسدية تنتهى بيننا. أقول، فى الزمن الراهن. حتى نهاية الشتاء، هكذا أفضل. 'تقبل العذر دون كلمة ما. عندما أعود إلى المنزل فى الأمسيات تجلب لى الشاي وتجتثم عند الصينية لخدمتى. تعود بعدئذ إلى المطبخ. بعد ساعة من الوقت تضرب طريقها صاعدة السلم خلف الفتاة التى تحمل صينية العشاء. نأكل معاً. بعد الوجبة أخلد إلى مكتبى أو أخرج مساءً، مجدداً جولتى الاجتماعية التى أهملتها: شطرنج فى بيوت الأصدقاء، ورق مع الضباط فى الفندق. كما أننى أقوم بزيارة أو اثنتين للطابق الثانى من الفندق ولكن مع إحساس بالذنب مما يفسد المتعة.

ولدى عودتى أجد على الدوام، الفتاة نائمة، وأضطر إلى السير على أطراف أصابعى كزوج خاطئ.

تقبل الفتاة الأسلوب الجديد دون تنمر. أقول لنفسى إنها تخضع بسبب من تربيتها البربرية. ولكن ما الذى أعرفه أنا عن التربية البربرية؟ ما أسميه أنا استسلاماً قد لا يكون غير عدم مبالاة. ما الذى يهم متسولة، فتاة بلا أب ما إذا نمت منفرداً أم غير ذلك ما دامت تمتلك سقفاً فوق رأسها وطعاماً فى بطنها؟ لقد أحببت حتى الآن أن افكر فى أنها لا تقدر الكف عن رؤيتى رجلاً فى قبضة الرغبة. كيفما كانت الرغبة منحرفة وغريبة الأطوار، تلك أنها فى الصمت الملىء بالتوتر والقلق والذى يشكل الجزء الكبير من اتصالات، لا تقدر إلا الإحساس بمنظرتى المتفرسة تضغط عليها بثقل جسد. أنا أفضل عدم الخوض من أن الإمكانية التى تعلمها التربية البربرية لفتاة قد لا تؤهلها للتكيف مع كل نزوات الرجل، ومن ضمنها نزوة الإهمال، بل أن تنظر إلى الرغبة الجنسية سواء فى حصان أو ماعز أو رجل أو امرأة كحقيقة حياتية مجردة بأوضح وسائلها وأوضح نهاياتها. ولهذا فإن التصرفات المرتبكة لغريب متقدم فى السن يلتقطها من الشوارع ويجلسها فى شقته كى يقدر تارة أن يفبل قدميها، تارة يرهبها بالصياح والعبوس، تارة يدهنها بزيوت غريبة، تارة يتجاهلها، تارة ينام بين ذراعيها طوال الليل، والآن ينام منفرداً متقلب المزاج، قد لا تدل إلا على علامات عجز، تردد، انسلاخ، عن رغباته الشخصية. وفى

الوقت الذى لم أكف عن النظر إليها كجسد معطل، متضرر،
يحمل ندبات، ربما إنها فى هذا الوقت قد نضجت وأصبحت
ذلك الجسد الناقص الجديد، غير حاسية بتشوهاها أكثر مما تحسه
قطعة بالتشوه أن امتلكت مخالف بدلاً من الأصابع. سأفعل حسناً
إن أخذت هذه الأفكار بجدية. أن أكون اعتيادياً بدرجة أكبر مما
أحب أن أعتقد، قد تكون لها وسائلها كي تجننى اعتيادياً أيضاً.

. * * *

الهواء ممتلئ في كل صباح يخفق أجنحة بينما تطير
العصافير قادمة من الجنوب محومة في حلفات فوق البحيرة
قبل استقرارها في الأطراف الناتئة المالحة للمستنقعات. عند
الهدوء لمؤقت للرياح، تصل إلينا تناثر نغماتهم، طبطبات،
قوقأة، صيحات حادة، مثل صوت مدينة مزاحمة على الماء:
أنواع من سمك نهري، طيور، بط بأنواع وألوان مختلفة.

يؤكد وصول الوجبة الأولى من طيور الماء المهاجرة
العلامات الأولى، الأثر الباهت لدفع جديد في الريح، الشفافية
الزجاجية لجلايد البحيرة. الربيع في طريقه، في يوم من هذه
الأيام يكون الوقت مناسباً للزراع.

الوقت الحاضر هو موسم نصب الأفخاخ. قبل الفجر، تغادر
فرق من رجال إلى البحيرة لوضع شباكها. يعودون عند
منتصف النهار بصيد وفير: طيور ملوية الرقاب تتدلى معلقة
من أرجلها على أعمدة صفاً بعد صف، أو حشرت وهي حية
في أقفاص خشبية، تصرخ تغضب، يدوس بعضها بعضاً،
وأوزة ضخمة تجثم بينها في صمت شديد. خصب الطبيعة.:
في الأسابيع المقبلة سيأكل كل واحد منا جيداً.

قبل أن أسافر ، هناك وثيقتان على تهيأتهما: الأولى معنونة إلى الحاكم الإقليمي. أكتب، 'من أجل إصلاح بعض الأضرار التي نتجت عن غزوات المكتب الثالث، ومن أجل استعادة بعض النوايا الحسنة التي كانت سابقاً، سأقوم بزيارة قصيرة للبرابرة . أوقع وأختم الرسالة.

لا أعرف حتى الآن شيئاً عن مضمون الرسالة الثانية. شهادة؟ سيرة ذاتية، اعتراف؟ تاريخ ثلاثين عاماً على الحدود؟ أجلس طوال ذلك النهار في غيبوبة على مكتبي محققاً في الورقة البيضاء الخالية، منتظراً، أن تأتي الكلمات. يمر يوم ثان بالطريقة نفسها. أستسلم في اليوم الثالث، أعيد الورقة إلى الدرج وأتھياً لبعض الاستعدادات للسفر. يبدو الأمر متناسباً في أن رجلاً لا يعرف ماذا يفعل بامرأة في فراشه، لا يعرف ماذا يكتب.

اخترت ثلاثة رجال لمرافقتي. اثنان شابان مجندان إلزامياً أنا مسؤول عن عملهما الإضافي. الثالث رجل أكبر منهما ولد في هذه الأطراف، صياد وتاجر خيول، سأتولى دفع أجوره من جيبى الخاص. أدعوهم معاً إلى في الظهيرة التي تسبق سفرنا. أقول لهم، أنا أعرف أن الوقت غير ملائم للسفر. إنه وقت غدار، نهاية ذيل شتاء، ربيع لم يبدأ بعد هنا، ولكن إن انتظرنا أكثر فلن نجد البدو قبل أن يبدأوا الشروع بهجرتهم ، لا يطرحون أى سؤال.

للفتاة أقول ببساطة، سأخذك إلى أهلك، أو إلى أقرب نقطة
أتمكن من الوصول إليها. مدركاً أنهم قد تفرقوا الآن . لا تبدى
علامة فرح ما. أضع إلى جوارها الفراء الثقيل الذى اشتريته
لها لتسافر به، مع قبعة من جلد الأرنب مزخرفة بحسب
الطريقة المحلية وزوجاً من الأحذية طويلة الساق وقفازين.

الآن وقد أعددت نفسي لوجهة معينة، أنام بسهولة أكثر، بل
حتى أتتبع فى داخلى شيئاً كالسعادة.

نغادر فى الثالث من آذار، ترافقنا عبر البوابة ومنحدرين
إلى الطريق ثم إلى طرف البحيرة، مجموعة غوغاء من أطفال
وكلاب. بعد اجتيازنا سور الإرواء منحرفين عن طريق النهر،
متخذين الطريق إلى اليمين الذى لا يستعمله غير الصيادين
وصائدى الطيور، يبدأ عدد مرافقينا بالتضاؤل حتى يبقى
صبيان عنيدان يهرولان خلفنا، قد قرر كل واحد منهما أن
يتفوق على الآخر.

الشمس قد أشرقت ولكنها لا تبعث دفئاً. الريح تضربنا آتية
عبر البحيرة إلى حد تشرق أعيننا بالدمع. سائرين فى رتل
الواحد خلف الآخر، أربعة رجال وامرأة، أربع دواب محملة،
تتحمل الخيول بعناد قسوة الريح مع الحاجة إلى توزيعها هنا
وهناك، نلتف مبتعدين عن البلد المسورة، الحقول الظاهرة
للعيان وبعيدا أيضا عن الصبيين اللاهثين.

٤

خطتى هى تتبع هذا الطريق حتى نلتف حول البحيرة إلى الجنوب، ثم نندفع جهة الشمال الشرقى عبر الصحراء نحو وديان المراعى حيث يشتى بدو الشمال. انه طريق يسلك نادرا. منذ أن بدأ البدو، فى خلال هجرتهم مع قطعانهم، فى تتبع مجرى النهر القديم فى اجتياح واسع شرقاً وجنوباً. على أى حال، هذا الطريق يقلل الرحلة من ستة أسابيع إلى أسبوع أو اثنين.

وهكذا، نكدح فى السير ثلاثة أيام جنوباً ثم باتجاه الشرق. تمتد إلى يميننا أرض شبه مستوية من صلصال نحتتها الرياح، مندمجة فى أقصى أطرافها مع ركام من سحابة غبار أحمر. ثم مع السماء الصفراء المكفهرة. على يسارنا مستنقعات منبسطة، حلقات من القصب والبحيرة حيث طبقة من جليد فى الوسط لم تذب حتى الآن. الريح الهابة فوق الجليد تجمد أنفاسنا، إننا نفضل السير فى الغالب أوقاتاً طويلة، بدلاً من الركوب، محتمين بخيولنا. تلف الفتاة شالاً حول وجهها عدداً من اللفات، وهى جائمة على سرجها، تتبع على نحو أعمى من يقودها.

اثنان من الدواب محملان بحطب الوقود، ولكننا علينا الاحتفاظ به للصحراء. مرة، ونحن نصف مغمورين فى كتل رمالية مندفعة، نفاجأ بشجرة طرفاء ممتدة مثل أكمة، نقوم بتقطيعها إرباً من أجل الوقود. فى الأيام المتبقية كان علينا

الاكتفاء بحزم من قصب يابس. الفتاة وأنا ننام جنباً إلى جنب في خيمة واحدة، كل واحد منا محشور في فرائه تجنباً للبرد.

في هذه الأيام الأولى من الرحلة، نأكل بشكل جيد. لقد جلبنا لحماً مملحاً، فضلاً عن الطحين، الفاصوليا، فواكه مجففة وهناك طرائد كثيرة للصيد. ولكن كان علينا الاقتصاد في الماء. مياه المستنقع الضحلة في الأطراف الجنوبية النائية، مالحة جداً لا تصلح للشرب. كان على أحد رجالنا أن يخوض عشرين أو ثلاثين خطوة فيها، إلى عمق ريلة ساقيه، من أجل ان يملأ القرب، أو الأفضل، لكسر كتل الجليد. ولكن، حتى المياه الجليدية المذابة، مرة جداً ومالحة، بحيث إنها لا تصلح للشرب إلا مع شاي قوى أحمر. في كل عام تزداد البحيرة ملوحة بينما يقرض النهر من ضفافها ويكنس الملح والشب إلى البحيرة. وبسبب من عدم تدفق المياه في البحيرة، فإن نسبة ما تتضمنه من عناصر معدنية، يبقى في ارتفاع، وخاصة في الجنوب، حيث تعزل كمية من المياه سنوياً بفعل حواجز رملية. ويجسد الصيادون، بعد فيضان الصيف، أسماك شبوط عائمة، بطونها إلى أعلى في المياه الضحلة. يقولون إن أسماك الفرخ النهرية لم تعد ترى فيها. وما الذي سيحدث للمستوطنة إن تحولت البحيرة إلى بحر ميت؟

بعد يوم من شاي مالح، يبدأ كل واحد منا، ما عدا الفتاة، في

المعاناة من الإسهال. كنت الأسوأ ممن ابتلى. أحس بشدة
بمشاعر الإذلال للتوقفات المتكررة، خلع الملابس وارتداؤها
بأصابع متجمدة محتما بحصان بينما ينتظر الآخرون. أحاول
ان أشرب أقل كمية ممكنة من الماء، إلى الدرجة التي يبدأ فيها
عقلي، وأنا راكب بطرح صور تعذبنى للماء مقتربا منى
ومبتعدا. برميل ممتلئ عند طرف بئر والماء يتناثر عن
المغرفة، نظيف أبيض كالثلج. قيامى أحيانا بصيد البط مستعينا
بصقر، معاشراتي العابرة للنساء (دون هدف)، ممارسات
رجولتى، قد حجت عني، مدى النعومة التي صار إليها
جسدى. عظامى تؤلمنى بعد سير مسافات طويلة، ومع مجيء
الليل، أحس بتعب شديد يجعلنى بلا شهية. أمشى مسافات
طويلة مجهدا حتى لا أقدر أن أضع قدما أمام الأخرى، ثم
أتسلق بجهد فوق السرج، ألف نفسى بمعطفى الفضفاض،
وألوح لأحد الرجال بالتقدم ليتولى مهمة العثور على الطريق
الباهت. لا تتركنا الريح أبدا، إنها تتبع علينا عبر الجليد،
تعصف من لا مكان إلى لا مكان، مغطية السماء بسحابة من
تراب أحمر. لا مجال للاختفاء من التراب: إنه يتسلل إلى
ثيابنا، يغلف وجوهنا، يتغلغل فى أمتعتنا، نأكل بأفواه مغلقة،
نبصق غالبا، تصر أسناننا، يصبح التراب لا الهواء هو الوسط
الذى نعيش فيه. نعوام عبر التراب مثل سمك عبر ماء.

لا تشكو الفتاة، تأكل جيدا، لا تمرض، تنام بعمق متكررة

مثل كرة في جو بارد أتمنى فيه أن أحتضن كلباً من أجل الراحة. تسير راكبة طوال النهار دون تذمر. مرة، ملقيا نظرة نحوها، أراها راكبة وهي نائمة، وجهها هادئ كوجه طفلة.

في اليوم الثالث تبدأ أطراف المستنقعات بالالتواء إلى الخلف نحو الشمال، ونعلم عندئذ أننا قد

دربنا حول البحيرة. نقيم مخيماً في ساعة مبكرة ونمضي ساعات الضياء الأخيرة في جمع أي فضلة ممكنة من قطع الوقود، بينما ترعى الخيول للمرة الأخيرة في حشائش المستنقعات الهزيلة. وفي فجر اليوم الرابع، نبدأ بقطع قاع المجرى القديم للبحيرة الممتد أربعين كيلومترا آخر خلف المستنقعات.

أرض البادية أكثر قفرا من أي شيء آخر رأيناه حتى الآن. لا شيء ينبت في قاع هذه البحيرة الملحية. التي تتبعج في بعض مناطقها وتتدفع إلى الأعلى في انشقاقات بلورية مثلومة سداسية الأضلاع بعرض قدم واحدة. هناك مخاطر أيضا. الجواد الأول يغوص فجأة في قشرة الأرض خلال عبوره رقعة ناعمة بشكل غير اعتيادي، ويغطس حتى الصدر في وحل كدر معشوشب. يقف الرجل الذي يقوده مصعوقاً في فراغ واه قبل أن يسقط هو أيضا مثلوثا برشاش من قذارة. نكافح من أجل سحبهما خارجا، تتشظى القشرة الملحية تحت حوافر الجواد، تتوسع الحفرة،

تنتشر الروائح الكريهة للماء الأسن في كل مكان. ندرك الآن أننا لم نترك البحيرة خلفنا: إنها تمتد هنا تحتنا، تحت غطاء يمتد أحياناً عدة أقدام عمقا، وفي أحيان أخرى تحت قشرة رقيقة من ملح هش. كم من زمن قد مضى منذ أن أشرقت الشمس آخر مرة على هذه المياه الميتة؟ نوقد نارا على أرض أكثر صلابة، لتدفئة الرجل المرتعش وتجفيف ملابسه. يهز رأسه ويقول، سمعت على الدوام، احذروا البقع الخضراء، ولكنني لم أر مثل ما حدث من قبل. إنه دليلنا، الرجل الوحيد الذي قد سافر عبر شرق البحيرة. ندفع خيولنا، بعد ما حدث، بضغط أشد، وبسرعة أكبر من أجل الخلاص من هذه البحيرة الميتة، خشية أن ننتهي في مادة مائعة أشد برداً من الجليد، معدنية، خفية، بلا هواء. نحني رؤوسنا وندفع في العاصفة، نتفخ معاطفنا مثل بالونات خلفنا، ملتفطين دربا فوق القطع الملحية المتكسرة المتلومة، متجنبين الأرض الناعمة. تشع الشمس مثل برتقالة من خلال نهر الغبار الذي يتقدم بمهابة عبر السماء، لا تدفئ شيئا. عندما يسقط الظلام، ندق أوتاد الخيمة في شقوق الملح المتصلبة كالحجارة، نوقد نارنا بثمان باهظ، ومثل البحارة نصلي من أجل أرض.

في اليوم الخامس، نترك، قاع البحيرة خلفنا ونمر عبر حزام من الأملاح المتبلورة الناعمة التي سرعان ما تستسلم أمام الرمال والحجارة. نشد عزائنا جميعا، حتى الخيول، التي في

خلال عبورها الأرض المالحة، لم تتناول شيئاً غير بضع حفنات من بذر الكتان ودلو من ماء آسن أجاج. حالتها بوضوح متدهورة جداً.

أما بالنسبة للرجال، فإنهم لا يتذمرون. اللحم الطازج ينفذ ولكن يتبقى لدينا اللحم المملح والفاصوليا المجففة ووفرة من طحين وشاي وهي قوام الطريق الأساسية، نغلي الشاي في كل استراحة وقوف ونقل (كتلة متراسة من السمن)، كعكة ضخمة، لقمة لذيذة بالنسبة للجائع. يقوم الرجال بالطبخ: كونهم خجلين من الفتاة، غير واثقين من موقفها، غير واثقين أكثر من أى شئ آخر، ما نفعله في أخذها للبرابرة، هم بالكاد يخاطبونها، يتجنبون النظر إليها، ولا يسألون، بالتأكيد مساعدة منها في الطبخ. أنا لا أقوم بالضغط عليها للتقدم نحوهم، آملاً أن تتبدد قيود الكبح في خلال الطريق. لقد اخترت هؤلاء الرجال لأنهم شديداً القدرة على التحمل وأمناء، ومستعدون للعمل. انهم يتبعوننى بأقصى ما يقدرون من خلو البال في مثل هذه الظروف، على الرغم من أن الدرع الممتاز الصقيل الذى ارتداه كل واحد من الجنديين الشابين عند اجتيازنا البوابة الكثيرة، مربوط الآن علي ظهر الدواب في حزم بين الأمتعة وغمد سيفه ممثلثان رملاً. تبدأ المسطحات الرملية تتغير إلى كثبان رملية. يتباطأ تقدمنا ونحن نصعد بكد جوانب الكثبان. إنها أسوأ تضاريس أرضية بالنسبة للخيول والتي تسير بتثاقل

وبطء، بضعة انجات فى كل مرة، منخرزة حوافرها عميقاً فى الرمل. أتطلع إلى دليلنا ولكن كل ما يقدر عليه هو هز كتفيه: سيستمر الأمر هكذا أميلاً، علينا اجتيازها، لا سبيل آخر أمامنا'. واقفاً فى أعلى كثيب رملى، مغطياً عينية متطلعاً إلى الأمام، لا أستطيع ان أرى غير دوامة من رمال.

فى تلك الليلة، لا يتناول أحد الخيول ما تقدمه له من طعام. وفى الصباح، وتحسب أقسى الشياط، يرفض النهوض. نقوم بإعادة توزيع الأحمال ونتخلى عن قسم من حطب الوقود. أبقي خلفهم، فيما يسير الآخرون. بإمكانى أن أقسم أن الحيوان يعرف ما سيحدث له. أمام مرأى السكين، تتقلب عيناه، ومع تفجر الدم من رقبتة، يندفع طليقاً من الرمل ويترنح خطوة أو اثنتين باتجاه الريح قبل أن يسقط. سمعت أن البرابرة، فى حالات الشدة المهلكة، يفرغون عروق خيولهم من الدم. هل سنبقى على قيد الحياة كى نتأسف على هذا الدم المراق بإسراف على الرمل؟

فى اليوم السابع، والكثبان قد أصبحت خلفنا أخيراً، نميز قبالة المنظر الطبيعى الخالى الممل بلونه الرمادى البنى، شريطاً من الرمادى الغامق. من مسافة أقرب نجد أنه يمتد شرقاً وغرباً عدة أميال. بل هناك أيضاً أشكال سوداء لأشجار. يقول دليلنا، نحن سعداء، من المؤكد وجود ماء هنا.

ما تعثرنا به هو قاع مجرى قديم لمستقع. قصب أبيض وهش عند الملمس، يحدد ما كان ضفافه. الأشجار هي الحور، وهي أيضا ميتة منذ زمن طويل. لقد ماتت منذ أن تراجع الماء الموجود تحت الأرض إلى مسافة أبعد مما يمكن لجنورها الوصول إليه قبل أعوام وأعوام.

ننزل حمولة الحيوانات ونبدأ بالحفر. نصل عند مسافة قدمين عمقاً إلى طبقة سميكة من صلصال كثيف أزرق. تحت هذه الطبقة رمال أيضاً، ثم طبقة أخرى من صلصال ظاهر للزوجة. عند عمق سبعة أقدام، وقلبي يخفق بشدة وأذناي تطنان، اضطر إلى رفض دورى مع المعول. يستمر الرجال الثلاثة فى الكدح، رافعين التراب المخلخل من الحفرة بقطعة من قماش خيمة بعد ربط زواياها.

على عمق عشر أقدام، يبدأ الماء بالتجمع حول أقدامهم. إنه حلو، لا يوجد أثر للملوحة فيه، نبتسم بفرح لبعضنا البعض، ولكنه يتجمع ببطء شديد كما أن جوانب الحفرة تحتاج إلى استخراج ما يتقوض منها باستمرار. فى ساعة متأخرة من العصر فقط، ننتهى من إفراغ آخر ما لدينا من ماء البحيرة الأسن الأجاج ونملأ القرب الجلدية ثانية. وقبل حلول الظلمة تماماً، ندلى البرميل إلى بئرننا ونسمح للخيل بشرب الماء.

فى ذلك الوقت نفسه، وبعد توفر خشب الحور لدينا، قام

الرجال بحفر فرنين صغيرين في الصلصال، ملتصقين بظهريهما وعززوا ناراً مزمجرة على قمة كل واحد منهما من أجل طبخ الصلصال وتجفيفه. عندما تتضاءل النيران، سيكون بإمكانهم جرف الفحم وإعادته إلى الفرن والبدء بأعداد الخبز. ترقب الفتاة واقفة كل ما يحدث، مستعدة إلى عكازيها اللذين قمت بتثبيت قرصين خشبيين عليهما من أجل مساعدتها على الوقوف. ويتدفق الكلام في غمرة هذه العلاقة الحميمة والسهلة مع راحة موعودة. مازحين معها، يبدأ الرجال بإيداء أولى عروض الصداقة: تعالى وأجلسي معنا وتذوقي ما يخبزه الرجال! تبتسم مستجيبة لهم، رافعة ذقنها في حركة ربما أنا وحدي أعرف أنها محاولة منها للنظر. بحذر تجلس وتتخذ لنفسها مكاناً على الأرض بجوارهم لتتغمر في وهج الفرنين.

أنا نفسي أجلس في مكان أبعد، محتمياً من الريح بفتحة مقدمة خيمتي، أحد القناديل الزيتية يومض بقربي. أدون يوميّات العمل في السجل الخاص، مصغياً أيضاً في الوقت نفسه. يتواصل المزاح والهزل بلغة الحدود المبسطة المفهومة، وهي تتحدث دون ارتباك. أندهش لطلاقة لسانها، خفتها، ثقّتها بنفسها. بل إنني أنتبه لنفسي، متوهجاً بالفخر: إنها ليست مجرد أنثى الرجل العجوز، إنها ذكية، امرأة شابة جذابة! لو أنني قد عرفت كيفية استعمال لغة المزاح التي تبعث السعادة لكانت علاقة بعضنا ببعض قد غدت أكثر صميمية ودفئاً. ولكنني مثل

مغفل، بدلاً من منحها وقتاً طيباً، ضغطت عليها بالهموم. حقا،
إن العالم يجب أن يخص المغنين والراقصين! مرارة غير ذات
جدوى، كآبة لا قيمة لها، ندم أجوف! أطفئ القنديل، أجلس
هزنتي على قبضتي محدقاً في النار، أصغى إلى قرقرة معدتي.

* * *

أنام نوم الانهماك المطلق. وعندما أكاد أبزغ إلى الصحو،
ترفع طرف فراء الدب الكبير وتدنو مني التماساً للدفع.
'الطفل يستبرد في الليل - هذا ما أفكر فيه وأنا في حالة من
النشوش عقب الصحو، أشدها نحو انحناء ذراعي، متسللاً إلى
نعاس. ربما أستغرق مدة من زمن في النوم ثانية. بعدئذ،
صاحياً تماماً، أحس بيدها متحسنة تحت ملابسي، لسانها يلحس
أذني، موجة من بهجة حسية صياح كل كياني، ألتأعب، أتمطي،
وأبتسم في الظلمة. تعثر يداها على ما تبحث عنه، ماذا بشأنه؟
أفكر. ماذا إن فنيانا في منتصف اللامكان؟ دعنا على الأقل لا
نموت محرومين تعساء! . كانت عارية تحت قميصها، بدفعة
كنت فوقها، إنها دافئة، مفعمة بعاطفة قوية، مستعدة لي، وفي
دقيقة، يزول تردد فارغ استمر أشهراً خمسة وأنا أطفو عائداً
إلى حالة من سلوان حسي سلس.

عندما أستيقظ يكون ذلك بذاكرة ممسوحة خالية تماماً بحيث
إن الفرع يتصاعد في. لا أقدر إلا بعد بذل جهد متأن من إعادة

نفسى إلى الزمان والمكان: إلى فراش، خيمة، عالم، جسد يمتد شرقاً وغرباً، وعلى الرغم من كونى منبطحاً عليها بثقل ثور ميت، فإن الفتاة نائمة، نراعاها ملتفان باسترخاء حول رقبتى. أرخى نفسى عنها، أعيد ترتيب غطائنا وأحاول تهيئة نفسى. لا أتخيل ولو للحظة واحدة أننى سأقدر يوم غد على تقويض مخيم، أن أسير عائداً إلى الواحات، وفى منزل القاضى المشمس، أستقر وأعيش ما تبقى من حياتى مع عروس شابة، أنام فى سكون إلى جوارها، أكون أباً لأولادها، أرقب تعاقب الفصول. لا أشعر بالخجل من فكرة أنها لو لم تكن أمضت الأمسية مع رجال شبان حول نار المخيم، فمن المحتمل أنها لم تكن قد وجدت أى حاجة إلى. ربما إن الحقيقة هى أن واحداً منهم كانت تحتضنه هى عندما أمسكتها بين ذراعى. أصغى مرتاعاً إلى ترددات تلك الفكرة فى داخلى، ولكننى لا أقدر على كشف غصة للقلب تقول لى إننى قد جرحت. تنام هى، تمر يدي إلى الأمام ووراء بطنها الناعمة مربطة على فخذيهما. لقد تم الأمر، أنا مرتاح البال. وفى الوقت نفسه، أنا على استعداد للاعتقاد أنه لم يكن سيتم ما لم أكن فى خلال أيام مفارقاً إياها. ولا إن توجب على أن أكون صريحاً، كانت المتعة التى وجدتتها فيها، المتعة التى ما يزال غصن غارى يستشعر انعكاساتها البعيدة، تسرى عميقاً. قلبى لا يثب إليها أكثر من ذى قبل ولا يخفق دمى عند ملمسها. أنا معها ليس من أجل أى نوع من

نشرة قد تعنى بها أو تمنحها، ولكن لأسباب أخرى والتي ستبقى غامضة بالنسبة لى كما أبدأ. ما عدا أنه لم يرغب عن ذاكرتى أنه فى الفراش فى الظلام تنسى بسهولة العلامات التي تركها عليها من قاموا بتعذيبها، القدم الملتوية والعينان نصف العمياوين. هل أن القضية إذن أنها المرأة الكاملة هي التي أريد، وأن متعتى فيها تسلب ما لم تمنح عنها هذه العلامات وتعود كما كانت، أم إن القضية (لست بأبله، دعونى أقل هذه الأمور) ان هذه العلامات عليها هي التي جذبتى إليها ولكن لخيبة أملى، أكتشف أنها لا تمتد إلى عمق كاف؟ كثير جداً أو قليل جداً: هل هي التي أريد أم آثار تأريخ يحمله جسدها؟ أبقى مستيقاً مدة طويلة محققاً فى ما يبدو منحدر سواد، على الرغم من أننى أعرف أن سقف الخيمة لا يبعد غير نراع فقط. لا فكرة أنعم النظر فيها، لا لفظ، إلى أى هدى كان مناقضاً، لمصدر رغبتى يبدو مقلقاً بالنسبة لى. أفكر، لا بد أننى متعب. أو ربما مهما يكن الملفوظ واضحاً فإن التعبير عنه يكون زائفاً، تتحرك شفتاى بصمت، مشكلة ومعيدة تشكيل الكلمات. أو ربما إنها القضية الوحيدة إلى حد بعيد التي لم تلفظ بل التي تجب أن تعاش بكل ما فى الكلمة من معنى. أتفرس فى هذا الافتراض دون ان أستبين فى نفسى أى نزعة استجابة نحو موافقة أو معارضة. تصبح الكلمات أكثر وأكثر غموضاً أمامى. سرعان ما تكون قد فقدت معناها. أنتهد فى نهاية يوم طويل، فى

منتصف ليلة طويلة. ثم أستدير إلى الفتاة، أحتضنها، أشدها بقوة إلى تخرخر في نومها، حيث سرعان ما انضمت إليها.

* * *

نرتاح في اليوم الثامن، إذ إن الخيول الآن في حالة يرثى لها. وهي تلوك بجوع أنسجة بلا عصارة لسيقان القصب الميتة. إنها تتفخ بطونها بالماء وتخرج ريحاً بقوة. لقد أطعمناها آخر ما لدينا من بذر الكتان وحتى جزء من خبزنا. وما لم نجد مرعى لها في خلال يوم أو يومين، فإنها ستفق.

* * *

نسترك خلفاً بثرنا، والرايية التي قمنا بحفرها، نحث السير شمالاً. كل واحد منا ماش ما عدا الفتاة. لقد تخلينا عن كل ما في استطاعتنا من أجل تخفيف أحمال الخيول، ولأننا لا نقدر البقاء على قيد الحياة من غير نار، فما زال عليها نقل حمولة ثقيلة من الخشب.

أسأل دليانا، متى سنرى الجبال؟

يوم واحد أو يومان. من الصعب القول. لم أسافر في هذه الأرجاء من قبل. لقد مارس الصيد على طول الساحل الشرقي للبحيرة والحدود الخارجية للصحراء دونما حاجة إلى اجتيازها. انتظر أنا، مانحاً إياه كل فرصة لشرح ما يدور في ذهنه، ولكنه

لا يبدو قلقاً، وهو لا يعتقد أننا فى خطر. ربما يومان قبل أن نصلها، ثم يوم آخر من السير قبل الوصول إليها. يغمض عينيه نصف إغماضه، متطلعاً فى الضباب البنى الذى يغلف الأفق، إنه لا يسأل عما سنفعله عند وصولنا الجبال.

نصل نهاية الأرض المسطحة الحصباء ونصعد سلسلة من أخاديد صخرية إلى سهل فسيح، حيث تبدأ نتوءات لحشائش ذابلة تظهر للعيان. تعدو الحيوانات إليها باندفاع وحشى. رؤيتها تأكل، أمر نقابله بارتياح كبير.

أستيقظ مجفلاً فى منتصف الليل، ممثلاً بإحساس مليح بوجود خطأ ما. تجلس الفتاة بجوارى، تقول، ما الأمر؟ أصغى، لقد توقفت الريح.

حافية، ملتفة بالفراء، ترحف خلفى إلى خارج الخيمة. الثلج يتساقط بنعومة. الأرض مستلقية بيضاء فى كل الجهات تحت بدر مضرب. أساعدها فى الوقوف على قدميها وأقف ممسكاً إياها، متطلعاً فى الفضاء الذى تتساقط منه الندف الثلجية، فى صمت محسوس بعد أسبوع من رياح تدوى دونما توقف فى أذاننا. ينضم إلينا رجال الخيمة الثانية. نبسم ببلاهة لبعضها البعض. أقول، ثلج الربيع، آخر ثلوج العام. يهزون رؤوسهم إيجاباً. حصان يهز نفسه بالقرب منا، يجعلنا نجفل.

محتجزان بسبب الثلج فى الخيمة الدافئة، أمارس الحب معها. إنها سلبية، تكيف نفسها لى.

عندما نبدأ أكون واثقاً من أن الوقت ملائم: أحتضنها بأشد وأكثف رغبة وبزهو الحياة. ولكن فى منتصف طريقى أبدو فاقداً للإحساس بها، ويتلاشى الفعل فى فراغ. بديهيات بوضوح عرضة للخطأ. ومع ذلك، فإن قلبى يستمر فى التوهج محبة تجاه الفتاة التى سرعان ما تنام عند انحناءة ذراعى. ستكون هناك فرصة أخرى، وإن لا تكن، فلا أعتقد بأننى سأهتم.

* * *

صوت ينادى عبر شق مدخل الخيمة: سيدى، يجب أن تستيقظ!

انتبه بارتباك إلى أننى قد نمت أكثر مما يجب. إنه السكون، أفكر مع نفسى: يبدو الأمر وكأنما قد هدأنا فى السكون.

أبزع من الخيمة إلى ضوء النهار. يقول الرجل الذى أيقظنى، مشيراً نحو الشمال الشرقى، انظر سيدى، جو سيئ فى الطريق!

مستخرجة نحونا فوق السهل الثلجى، موجة سوداء هائلة. إنها ما تزال على مبعده أميال عنا ولكنها بوضوح تبتلع الطريق فى اقترابها. قمتها ضائعة فى الغيوم المضطربة. أصرخ،

عاصفة! . لم أر من قبل شيئاً مخيفاً مثلاً. يسرع الرجال لتقويض خيمهم. اجلبوا الخيول إلى الداخل، قيدوها هنا بحبل طويل، في الوسط! أولى الهبات تصلنا تواء، الثلج يبدأ يدوم ويرفر في الهواء.

الفتاة بجوارى على عكازيها. أقول، هل بإمكانك رؤيتها؟ . تنظر بطريقتها الملتوية وتومئ برأسها. يبدأ الرجال العمل مقوضين الخيمة الثانية. الثلج بعد كل ذلك لم يكن علامة طيبة. لا تجيب. على الرغم من معرفتي بوجوب تقديم مساعدتي، فإنني لا أستطيع أن انتزع عيني من الجدار الأسود المزمجر القادم نحونا بسرعة حصان يجرى عدواً. تعلو الريح، مسقطة إيانا أرضاً، الولولة المعهودة ثانية في آذاننا.

استحث نفسي. أصبح، بسرعة، بسرعة! ، مصفقاً بيدي. يجلس أحد الرجال على ركبتيه يطوى الخيمة، يلف قطع اللباد، يرص أغطية الفراش. ينهمك الاثنان الآخران بجلب الخيول إلى الداخل. اجلسي! أصرخ بالفتاة، وأتدافع لتقديم المساعدة في الرزم. جدار العاصفة لم يعد بلون أسود بل دوامة مشوشة من رمل وثلج وتراب. ثم ومرة واحدة تتصاعد الرياح في صرخة، تطير قبعتي عن رأسي، وتضربنا العاصفة. أسقط منبطحاً على ظهري. ليس بفعل الرياح بل من قبل حصان يتحرر من قيده ويتخبط هنا وهناك، أذناه منبسطتان وعيناه تتقلبان. أصبح، امسكوا به . كلماتي هي لا شيء غير همسة،

لا أستطيع أنا نفسى سماعها. يتلاشى الحصان عن البصر مثل شبح. تدور الخيمة فى اللحظة نفسها، عالياً فى السماء. أقذف بنفسى فوق حزمة اللباد، ممسكاً بها أرضاً، مهمهماً بغضب لنفسى. ثم على يدى وقمى، ساحباً اللباد، أعود ببطء باتجاه الفتاة. الأمر أشبه بالزحف ضد تيار مائى جار. قد سدت تواء، بالرمال عيناى، أنناى، فمى، ألثى كى أتتفس.

تقف الفتاة ويداهما مبسوطتان مثل جناحين فوق رقبتى حصانين تبدو كأنها تتحدث معهما: وعلى الرغم من توهج مقتلتهما، فانهما ساكنان.

ذهبت خيمتنا! أصرخ فى أذنها، ملوحاً بذراع تجاه السماء. تستدير: وجهها تحت القبة ملفوف بوشاح أسود، مغطياً حتى عينيها. أصبح ثانية، خيمة قد ذهبت! . تومئ برأسها.

نجم خمس ساعات خلف خشب الوقود والخيول بينما تجلداً الريح بالثلوج، الجليد، المطر، الرمل، الحصى. نتوجع برداً حتى العظام تماماً. خواصر الخيول التى تواجه الريح، مغطاة بطبقة من جليد. نحشد معاً، إنساناً وحيواناً، متقاسمين دفئنا، محاولين الصمود.

بعدئذ فى منتصف النهار تتسحب الريح فجأة وكأنما بوابة قد أغلقت فى مكان ما. ترن آذاننا فى الهدوء غير المألوف. يجب علينا تحريك أطرافنا الخدرة، تنظيف أنفسنا من الأتربة، تحمل

الحيوانات، وأن نعمل لجعل الدم يجرى فى عروقنا، ولكن كل ما نريده هو ان نستلقى مدة أطول فى مكمنا. خمول منحوس! ينقشط صوتى عن بلعومى، تعالوا أيها الرجال، دعونا نحمل .

ارتفاعات محدبة فى الرمال تدل على أماكن متاعنا المبعثر المدفون. نبحث مع اتجاه الريح لكننا لا نجد علامة ما تدل على خيمتنا المفقودة. نساعد الخيول الصارة على الوقوف ونحملها. برودة العاصفة تعد صفراً قياساً للبرودة التى أعقبته، والتى تستقر علينا مثل حجاب كثيف من جليد فوقنا. تتحول أنفاسنا إلى قشرة جليدية، نرتعش فى داخل أغطيتنا الواقية. ينهار الحصان الأول بعد ثلاث خطوات مرتبكة متأرجحة، يسقط على جزئه الخلفى: نرمى جانباً وقود الخشب الذى يحمله، نوقفه على قدميه بقائم، نضربه بالسياط. أشتم نفسى، ليس للمرة الأولى، لخروجه للسفر فى رحلة شاقة مع دليل غير موثوق فى موسم غدار.

* * *

اليوم العاشر: جو أدفاً، سماءات أصفى، رياح أعذب. نغذ السير عبر أراض منبسطة، عندما يصرخ دليلنا ويشير. الجبال! 'أنعم النظر ويثب قلبى. ولكنها ليست الجبال تلك التى يراها. البقع التى يشير إليها فى البعد هم رجال، رجال على ظهور الخيل: من غير البرابرة! أستدير نحو الفتاة، التى أقود

مطيئتها اليطيئة الحركة. أقول، لقد وصلنا تقريباً. هناك أناس أمامنا، سنعرف سريعاً من هم . غم الأيام الماضية يرتفع عن كاهلى. متحركاً إلى المقدمة، مسارعاً خطواتى، أدير مسيرتنا تجاه الشخصوس الثلاثة الضئيلة فى البعد.

نشد السير نحوهم قرابة نصف ساعة قبل أن ندرك أننا لا نقترب البتة منهم. كلما نتحرك يتحركون أيضاً. انهم يتجاهلوننا. أفكر فى ذلك وأرى اللجوء إلى إيقاد نار. ولكننى عندما أطلب توقفاً، تتوقف البقع الثلاث، وعندما نعاود سيرنا، يبدأون هم بالحركة. أتعجب، هل هم انعكاسات لنا، هل إنها خدعة الضياء؟ لا نقدر على سد الفراغ بيننا. كم مضى على تعقبهم إيانا؟ أم تراهم يعتقدون بأننا نتعقبهم؟

أقول للرجال، توقفوا، لا فائدة من ملاحقتهم، دعونا نر إن أرادوا مقابلة واحد منا على انفراد . وهكذا أمتطى حصان الفتاة وأسير منفرداً نحو الغرباء. لوهلة قصيرة يبدوون ساكنين بلا حراك، يراقبون وينتظرون. يبدأون فى التراجع بعدئذ يومضون على حافة الغبار الضبابى. حصانى ضعيف جداً غير قادر الأعلى السير خبياً على الرغم من حثى إياه أتخلى عن المطاردة، أنزل عن الحصان، وأنتظر وصول رفاقى إلى.

من أجل المحافظة على قوة الخيول بدأنا نجعل سيرنا أقصر وأقصر. لا نقطع فى سيرنا أكثر من ستة أميال فى عصر ذلك

اليوم عبر تضاريس أرض منبسطة صلبة، وباستمرار يحوم راكبو الخيول الثلاثة ضمن مدى رؤيتنا، قبل أن نقيم مخيماً. أمام الخيول ساعة من الزمن للرعى على الحشائش المنخفضة الضئيلة التي قد توجد، بعدها نفوم بربطها في حبل طويل إلى الخيمة ونقيم حارساً عليها. يسقط الظلام، تبرز النجوم في سماء مضربة. نستلقى حول نار المخيم نلتمس الدفء، مستمتعين بالأم الأطراف المتعبة، متحاشين التجمع في خيمة واحدة. بوسعى أن أقسم، متقرباً شمالاً على استطاعتي رؤية وميض نار أخرى، ولكنني عندما أحاول تحديدها للآخرين، يكون الليل حالك السواد غير قابل للنفاذ.

يستطوع الرجال الثلاثة للنوم خارج خيمة، متناوبين المراقبة. أتأثر لما بدر منهم. أقول، بعد بضعة أيام، عندما يكون الجو أدفاً. ننام ملء جفوننا، أربعة أجساد محشورة معاً في خيمة واحدة تكفي اثنين، الفتاة باحتشام في الطرف الأبعد.

أستيفظ قبيل الفجر متقرباً صوب الشمال. بينما تتحول الألوان الحمراء - الوردية والبنفسجية الزاهية لشروق الشمس إلى اللون الذهبي، تتجسد البقع مرة أخرى على الوجه الأسود للسهم، ليس ثلاثاً منها ولكن ثمان، تسع، عشر، ربما اثنتي عشرة.

بعمود وقطعة من قميص كتاني أبيض، أعمل راية وأسير

على حصان متوجها نحو الغرباء. لقد توقفت الريح، الهواء صاف، أعد وأنا في طريقى: اثنا عشر شكلاً صغيراً على جانب مرتفع وعلى مسافة بعيدة خلفهم الأساس الباهت الشبحى لزرقة الجبال. وبينما أرقب أنا، تبدأ الأشكال بالتحرك. يتجمعون في خط الواحد خلف الآخر ومثل نمل يتساقون المرتفع. عند الحافة يتوقفون. تحجبهم موجة من غبار ثم يظهرون مجدداً. اثنا عشر راكباً عند خط السماء. أغذ السير، والراية البيضاء تخفق فوق كتفى. ومع أننى أبقي بصرى ثابتاً على الحافة، فإننى أفشل فى الانتباه إلى اللحظة التى اختفوا فيها.

أقول لمجموعتى، علينا ببساطة إهمالهم. نحمل ثمانية ونعاود السير نحو الجبال. يحز قلوبنا اللجوء إلى السياط من أجل تحميل حيواناتنا الضامرة، مع أن الأحمال تزداد خفة فى كل يوم.

تنزف الفتاة، ذلك الوقت من الشهر قد حل عليها. لا تقدر على إخفاء الأمر، لا خصوصية تمتلكها، وليست هناك مجرد شجيرة للاختفاء خلفها. إنها مرتبكة والرجال مرتبكون. إنها القصة القديمة: تدفق دم من المرأة فأل سيئ، سيئ للصيد، سيئ للصيد، سيئ للخيل. يزدادون كآبة: يريدون إبقاءها بعيداً عن الخيول، الأمر لا يمكن لا يريدونها أن تلمس طعامهم. خجلة، تبقى وحدها طوال النهار لا تتضمن إلينا لطعام العشاء.

بعد أن أنتهى من طعامى، آخذ إناء من الفاصوليا وكمية من لقمة القاضي إلى الخيمة حيث تجلس.

تقول، ألا يتوجب عليك لقيام بخدمتى، وعلى أن لا أبقى حتى فى الخيمة. ولكن لا يوجد مكان آخر للذهاب إليه . إنها لا تجادل فى أمر استثنائها.

أقول لها، لا بأس عليك . ألمس بيدى خدها. أجلس برهة من الزمن أرقبها وهى تأكل.

انه عبث فى إقناع الرجال بالنوم فى الخيمة معها. ينامون فى الخارج، محتفظين بالنار مشتعلة، متناوبين الحراسة. فى الصباح، من أجلهم، أمر عبر طقوس تطهير مختصرة مع الفتاة (لأننى لم أعد طاهراً بعد نومي معها فى خيمة واحدة): بواسطة عصا أرسم خطأ على الرمال، أقودها لتعبر عليه، أغسل يديها ويدي، ثم أقودها عائداً، عبر الخط إلى الخيمة. تدمدم، يجب عليك أن تفعل الشيء نفسه ثانية صباح يوم غد . فى الأيام الاثنتى عشر للطريق، ازددنا قريباً أكثر من العيش معاً فى مكان واحد أشهراً.

لقد وصلنا التل عند سفح الجبل. الفرسان الغرباء يكدون السير على مسافة بعيدة عنا أعلى القاع الملتوية لجدول جاف. لقد توقفنا عن محاولة اللحاق بهم. ندرك الآن أنهم فى تتبعهم لنا، يقومون أيضاً بإرشادنا.

كلما ازدادت التضاريس صخرية، ازداد ببطء تقدمنا وتباطأت سرعتنا. عندما نتوقف للراحة، أو نفقد مرأى الغرباء في التواءات الجدول، لا يساورنا الخوف من اختفائهم.

فما بعد، متسلقين أخدوداً، متملقين الخيول، نجهد وندفع ونشد، نجد أنفسنا فجأة فوقهم. من مكان خلف الصخور، من خارج أخدود غير ظاهر، يظهرون للعيان، رجال يمتطون جياداً صغيرة شعثناء، اثنا عشر أو أكثر، يرتدون معاطف من جلد خروف، سمر الوجوه، برونزية بفعل تأثير العوامل الجوية، ضيقو العيون، البرابرة بلحمهم على أرضهم. أنا قريب إلى الحد الذى أشمهم فيه من حيث أنا واقف: عرق جياد، دخان، جلد نصف مذبوح. أحدهم يشير إلى صدرى بيندقية قديمة يطول رجل تقريباً، بمسند ذى ركيزتين مثبتة قريباً من الفوهة. يتوقف قلبى. أهمس، لا : وبحذر متقن. أسقط عنان الحصان الذى أقوده، وأعرض يدين خاليتين. بينما أدير ببطء ظهري أتسلم العنان، ومنحدرًا ومنزلقًا على ركام الحجارة أقود الحصان الخطوات الثلاثين نازلًا إلى سفح الأخدود حيث ينتظر رفاقى.

البرابرة، واقفون والخطوط الخارجية لإشكالهم تبرز قبالة السماء فرقنا. هناك ضربات قلبى، لهاث الخيول، تأوهات الريح، ولا صوت آخر. لقد تجاوزنا حدود الإمبراطورية. انها ليست اللحظة التى يتعامل معها بسهولة.

أساعد الفتاة في النزول عن حصانها. أقول، أصغى جيداً، سأخذك إلى أعلى المنحدر وبإمكانك التحدث إليهم. خذى عكازيك، الأرض رخوة، لا يوجد طريق آخر للصعود، بعد انتهاء كلامك معهم، بإمكانك أن تقرري ما تريدينه. إن أردت الذهاب معهم، إن أرادوا إعادتك إلى عائلتك، اذهبي معهم. إن قررت العودة معنا، بإمكانك العودة معنا. هل تفهمين؟ اننى لا أرغمك. تومئ. إنها متوترة جداً.

بذراع واحدة حولها، أساعدها في صعود منحدر الحصباء. لا تبدر حركة ما من البرابرة. أعد ثلاثاً من البنادق ذوات الماسورة الطويلة، وما عدا ذلك يحملون الأقواس القصيرة المألوفة بالنسبة لى. وعندما نصل القمة يتراجعون قليلاً.

أقول لاهثاً، هل بإمكانك رؤيتهم؟

تدير رأسها بتلك الطريقة الغريبة غير المحفزة، تقول، ليس جيداً.

عمياء: ما هى الكلمة المرادفة لعمياء؟

تخبرنى. أخطب البرابرة. أمل، عمياء، متلمساً جفنى. لا تصدر عنهم استجابة ما. البندقية المستقرة بين أننى الجواد الصغير ما تزال مسددة نحوى. عينا صاحبها تتألقان فرحاً. يطول الصمت.

أقول لها، تحدثي إليهم، قولي لهم لماذا نحن هنا. احكي لهم قصتك. قولي لهم الحقيقة .

تتطلع جانبياً نحوى وترتسم على وجهها ابتسامة صغيرة.
هل تريدني حقا أن أقول لهم الحقيقة؟

قولي لهم الحقيقة. ماذا هناك غيرها للقول؟

الابتسامة لا تفارق شفتيها. تهز رأسها، تحتفظ بصمتها.

قولي لهم ما يعجبك. لكن. الآن وقد عدت بك إلى أبعد مسافة أستطيع الوصول إليها، أود أن أسألك وبوضوح تام العودة إلى البلدة معي. حسب اختيارك المحض . أقبض على ذراعها وأضيف، أهل تفهمين؟ ذلك ما أريده .

لماذا؟ الكلمة تسقط من بين شفتيها بنعومة مميتة. تعرف أنها ترعجني، وقد أزعجتني منذ البداية. يتقدم الرجل ذو البندقية ببطء حتى يكاد يصل إلينا. تهز رأسها. لا. إنني لا أريد أن أعود إلى ذلك لمكان .

أندفع نازلاً المنحدر. أقول للرجال، أوقدوا النار، اغلوا الشاي، سنتوقف هنا ، من فوق يصلني حديث الفتاة المتدفق السناعم المتقطع بفعل لريح. تتحنى على عكازيها، الرجال ينزلون عن خيولهم ويتجمعون حولها. لا أقدر أن أفهم كلمة واحدة. أفكر، يا لمضيعة الوقت، كان بإمكانها تمضية

الأمسيات الطويلة الخالية بتعليمي لغتها! الآن قد فات الأوان .

* * *

من خرج السرج، أخرج الطبقيين الفضيين الكبيرين اللذين حملتهما معي عبر الصحراء. أخرج قطعة ملفوفة من قماش حريري طولها ٤٠ ياردة^(*)، أقول، أود أن تتقبلي هذه الحاجيات . أرشد يدها كي تقدر على تلمس نعومة الحرير، ثم مثلست الطبقيين، المحفور عليهما اسمان وأوراق شجر. كما جلبت أيضاً رزمتها الصغيرة. لا أعرف ماذا تحوي. أضعها على الأرض. هل سيأخذونك كل الطريق؟

تومئ برأسها، يقول مع حلول منتصف الصيف. يقول إنه أيضاً يريد حصاناً، لي .

قولي له بأن أماننا طريق طويل وصعب. واسأليه، إن كان في استطاعتنا شراء جياذ منهم بدلها. قولي إننا سندفع بالفضة .

تترجم للرجل العجوز بينما أنتظر أنا ينزل رفاقه عن جياذهم ولكنه ما يزال جالساً على حصانه، البندقية الكبيرة القديمة في حمالتها فوق ظهره. ركاب السرج، السرج، اللجام الزمام: غير معدنية، بل من عظم وخشب مقسى بالنار قد خيط

(*) Bolt : ٤٠ ياردة.

بأوتار أمعاء وثبت بأسيرة جلدية. أجساد مغطاة بالصوف وجلود حيوانات قد تغذت منذ طفولتها على اللحم والحليب، غريبة على رقة ملمس الكتان، مزايا الحبوب والفوكه: هؤلاء هم الناس الذين أرغموا على لدفع بعيداً عن السهول إلى الجبال مع اتساع الإمبراطورية. لم ألتق أنا من قبل بشماليين على أرضهم على أسس متكافئة: البرابرة الذين أعرفهم هم أولئك الذين يزورون الواحات من أجل المقايضة، والفلة التي تقيم في مخيم على طول النهر وأسرى حول البائسين. أى مناسبة وأى عار أيضاً أن أكون هنا في هذا اليوم! فى يوم ما سينظم من يخلفوننى مجموعات من نتاج مصنوعات هؤلاء الناس: رؤوس سهام، مقابض سكاكين محفورة، أواني خشبية، للعرض إلى جوار بيوض طيور، وأحجية خطية. وها أنا هنا أرفع العلاقات بين رجال المستقبل ورجال الماضى، عائداً بأعذار، جسد قمنا بامتصاصه حتى الجفاف - وسيط، ثعلب إمبراطورية فى ثياب نعجة!

يقول لا .

أتناول واحداً من الفضبان الفضية من كيسى وأمسكه عالياً له. قولى هذا مقابل حصان واحد . ينحنى إلى الأمام، يتناول القضيب اللامع، ويحذر يعض عليه، ثم يختفى القضيب فى داخل جيبه. يقول لا. الفضة فى مقابل الحصان الذى لن يأخذه. إنه لن يأخذ حصانى، يأخذ الفضة بدلاً عنه . أفقد

أعصابى تقريباً، ولكن ماذا ستفيد المماحكات؟ إنها ذاهبة، لقد ذهبت تقريباً. هذه هي المرة الأخيرة للنظر جلياً إليها وجهاً لوجه، نأتفحص ميول قلبى، محاولاً أن أفهم من تكون حفاً. وبعدها، عرف أنى سأبدأ بإعادة تشكيلها من خلال ذخيرة من ذكريات على وفق رغباتى المشكوك فيها، ألمس خدها، أتناول يدها. عند أطراف هذا التل المنحدر البارد جداً فى منتصف الصباح لا أقدر العثور فى داخلى على أى أثر من تلك الآثار الحسية المخدرة التى اعتادت على جذبى ليلة بعد ليلة إلى جسدها أو حتى مشاعر رفقة الطريق. هناك فراغ فقط وحزن بسبب حتمية وجود مثل هذا الفراغ. عندما أشدد قبضتى على يدها، لا أجد استجابة. أبصر فقط بوضوح تام ما أراه: فتاة ممثلة الجسم بقم عريض وشعر ذى قصة على الجبين تتطلع من فوق كتفى نحو السماء، غريبة، زائرة من مناطق غريبة فى طريفها الآن إلى بيتها بعد زيارة لا يمكن وصفها بالسعيدة. أقول، مع السلامة. تقول، مع السلامة. لا حياة فى صوتها أكثر من تلك التى فى صوتى. أبدأ النزول منحدرأ، وفى الوقت الذى أصل فيه إلى السفح كانوا قد أخذوا العكازين منها وأخذوا يساعدونها فوق متن جواد صغير.

* * *

بقدر ما يكون المرء متأكداً، فإن الربيع قد أقبل، الهواء

عليل. الأطراف الخضراء لحشيش جديد بدأ يبرز هنا وهناك، هبات من طيور السمان تتطارد أمامنا. لو كنا قد غادرنا اليوم الواحات بدلاً من أسبوعين ماضيين لكنا قد سافرنا بصورة أسرع ولم نكن قد خاطرنا بحياتنا. من جهة أخرى، هل كنا محظوظين بما فيه الكفاية للعثور على البرابرة؟ أنا واثق من انهم فى هذا اليوم بالذات يطوون خيامهم، يحملون عرباتهم، يجمعون مواشيهم تحت تأثير السياط من أجل هجرة الربيع. لم أكن مخطئاً فى تحمل المخاطرة، على الرغم من معرفتى بأن الرجال يلوموننى. (أن يجلبنا إلى هنا فى الشتاء أتخيلهم يقولون. كان علينا عدم الموافقة بتاتاً! وما الذى يجب أن يفكروا به الآن بعد أن أدركوا أنهم لم يكونوا جزءاً من بعثة إلى البرابرة كما ألمحت ولكنهم وببساطة حماية لامرأة، سجينه بربرية كانت تركت خلفاً، مخلوق لا أهمية له، مومس القاضى؟)

نحاول إعادة تتبع أثر طريقنا القديم بالدقة الممكنة، اعتماداً على المعرفة بالنجوم. لقد كنت دقيقاً فى تعيين مواقعها. الريح خلفنا، الجو أدفأ، أحمال الخيول أخف، نعرف المكان الذى نحن فيه، ليس هناك من سبب يحتم علينا عدم السفر بسرعة. ولكن عند استراحة الليلة الأولى تقع انتكاسة. أستدعى إلى موقع نار المخيم حيث يجلس أحد الجنود الشباب مهموماً واضعاً رأسه بين يديه. كان قد خلع حذائيه، رباطى قدميه غير مشدودين.

يقول دليلنا، انظر إلى قدميه، سيدى .

القدم اليمنى متورمة وملتهبة. اسأل الفتى، ما الخطأ؟ .
يرفع قدمه ويرينى كعباً مغطى بفشرة متصلبة من دم وصديد.
بل وحتى أشم رائحة تلوث فى رباط القدم وأتبين رائحة تعفن.

أصيح، منذ متى وقدمك على هذه الحالة؟ يخفى وجهه.
لماذا لم تقل شيئاً؟ ألم أوصكم جميعاً بوجوب الحفاظ على
أقدامكم نظيفة، وأن تغيروا جواربكم بين يوم وآخر وأن تقوموا
بغسلها، ان تضعوا مرهماً على البثور وتربطوها؟ لقد أعطيت
تلك التعليمات لسبب ما! كيف يمكننا لسفر وقدمك بهذا
الوضع؟

الفتى لا يجيب يهمس أحد رفاقه، إنه لم يرد إعاقتنا .

أصيح، انه لم يرد إعاقتنا ولكنه الآن فى حاجة إلى عربة
لنقله طوال طريق العودة. اغلوا ماء، راقبوا قيامه بتنظيف
قدمه ولفها بضمادا!

أنا على حق. فى اليوم التالى، عندما حاولوا مساعدته
لارتداء حذائه طويل الرقبة، لم يستطع إخفاء ألمه. بقدمه
المضمدة الموضوعة والمربوطة بكيس، لم يقدر على السير
عرجاً فوق الأرض الممهدة ولكن كان عليه الامتطاء فى معظم
مراحل الطريق.

سنكون جميعنا سعداء عند انتهاء هذه الرحلة. لقد سئمتنا
رفقة بعضنا لبعض.

فى اليوم الرابع نخترق قعر البحيرة الميتة ونتتبعها نحو
لجنوب - الشرق عدة أميال قبل أن نصل بئرنا القديمة
ومجموعة أشجار الحور اليابسة عندها. نرتاح هناك مدة يوم،
لنستجمع قوانا للمرحلة الأصعب. نقلى زادا من كعكة دهنية
ونسلق آخر إناء مملوء من فاصوليا طعاماً للخيول.

ابقى منعزلاً. يتحدث الرجال بأصوات منخفضة وعندما
أقترب منهم، يخيم الصمت عليهم. الإثارة المنبثقة من البعثة قد
زالت برمتها، ليس فقط لأن نروتها كانت مخيبة للآمال - هذر
فى الصحراء سالكين الطريق نفسه - بل لأن حضور الفتاة
كان قد استحث الرجال إلى عرض مظاهر الذكورة، فى منافسة
أخوية أخذت تزول الآن متحولة إلى تهيج واكتئاب موجه طوعاً
أو كرهاً ضدى لأخذى إياهم فى رحلة متهورة، ضد الخيول
بسبب حرونتها، ضد رفيقهم صاحب القدم المتقيحة لإعاقة
إياهم، ضد المعوقات التى عليهم تحملها، بل وحتى ضد
أنفسهم. أضرب لهم مثلاً بمد فراشى الملفوف بالقرب من النار
تحت النجوم مفضلاً برودة الهواء الطلق على الدفء الخانق
لخيمة مع ثلاثة رجال ساخطين. فى الليلة التالية، اختار
الجميع، دون تفكير طويل ترك الخيمة، ونمنا جميعاً خارجها.

مع حلول اليوم السابع نشق طريقناً عبر قفار ملحية. نفد حصانا آخر. الرجال منهكون من رتابة الفاصوليا والطحين المسمن، يسألون ذبحه للطعام، أوافق على طلبهم ولكننى لا أنضم إليهم. سأمضى قدماً مع الخيول ، أقول لهم. لأدعهم يستمتعون بوليمتهم. دعنى لا منعهم من تخيل أنها رقبتى التى يقطعونها، وأحشائى التى يمزقونها، وعظامى التى يكسرونها. ربما سيكونون بعد ذلك أكثر مودة.

أتذكر بحنين الروتين المألوف لواجباتى، مع قترب الصيف، والقيلولات الطويلة الحاملة، محادثاتي مع الأصدقاء ساعة لغسق تحت أشجار الجوز، وفتيان يجلبون الشاي وعصير الليمون المسكر والفتيات الجديرات بالإعجاب يتترهن أمامنا فى الساحة اثنتين معاً أو ثلاث وهن بملابسهن الأنيقة. لم تمض غير أيام فقط على مفارقتى الفتاة الأخرى، وأجد أن وجهها يتصلب أكثر فى ذاكرتى، يصبح كامداً غير نافذ، وكأنها تفرز محارة فرق نفسها. سائراً بتثاقل عبر المملح أنتبه لنفسى فى لحظة اندهاش كيف أننى تمكنت من حب واحدة من مملكة بعيدة جداً. كل ما أريده الآن هو أن أعيش بقية حياتى فى راحة واطمئنان فى عالم مألوف، أن أموت فى فراشى وأن أشيع إلى القبر من قبل أصدقائى القدامى.

* * *

من مسافة بعيدة تقارب عشرة أميال، نستطيع تمييز نتوءات أبراج المراقبة تواجه السماء، في الوقت الذي ما زلنا فيه على الطريق الجنوبي للبحيرة فإن اللون الأصفر للجدران يعزلنا عن الخلفية لرمادية للصحراء. ألقى نظرة سريعة على الرجال من خلفي. إنهم أيضا يسارعون الخطى، يكادون غير قادرين على إخفاء انفعالهم. نحن لم نغتسل أو نغير ملابسنا منذ ثلاثة أسابيع، رائحتنا قذرة، بشرتنا جافة متغضنة بالسواد بفعل التعرض للرياح والشمس، نحن مجهدون، ولكننا نسير كالرجال، حتى الفتى الذي يمشى الآن متثاقلاً على قدمه المضمدة وصدره يسبقه.

ربما، كان من الممكن أن يصبح الأمر أفضل، ولكن كان من الممكن أن يصبح أسوأ. حتى الخيول، التي انتفخت بطونها بحشائش المستنقعات، تبدو وكأنها عادت إلى الحياة.

براعم الربيع بدأت تظهر في الحقول، الألحان الواهنة لبوق تصل أسماعنا، فريق الترحيب من راكبي الجياد يتقدمون عبر البوابة، الشمس تنعكس عن خوذهم. يبدو مثل فزاعات: كان الأمر سيبدو أفضل لو كنت أخبرت الرجال أن يرتدوا دروعهم في هذه الأميال القليلة المتبقية. أرقب راكبي الجياد في خيبتهم نحونا، متوقعا منهم في أي لحظة التغير إلى الغدر، أن يطلقوا بنادقهم في الهواء وأن يصيحوا. ولكن سلوكهم يبقى نظاميا،

انهم ليسوا بفريق ترحيب على الإطلاق. أبدأ بالإدراك، ليس هناك أطفال يتراكمون خلفهم: ينقسمون قسمين ويحيطون بنا، لا يوجد بينهم وجه واحد أعرفه، أعينهم خالية من التعبير، لا يجيبون عن أسئلتى ولكنهم يسرون بنا عائدين كسجناء عبر البوابة المفتوحة.

آخر الأمر حين نظهر للعبان فى الساحة ونرى الخيام ونسمع اللفظ نفهم: أن الجيش هنا، الحملة الموعودة ضد البرابرة تمضى فى التقدم.

* * *



يجلس رجل إلى منضدتي في المكتب خلف قاعة المحكمة. لم أره من قبل مطلقاً ولكن علامة على سترته الأرجونية - الزرقاء تقول لي انه ينتمي إلى المكتب لثالث للحرس المدني. كمية من الملفات البنية مرزومة بأشرطة وردية تستقر عند مرففه، أحدها مفتوح أمامه. أتعرف على الملفات: انها تتضمن تقارير عن الضرائب والجباية، تعود إلى ما قبل خمسين عاماً. أيقدر هو حقاً على القيام بتدقيقها؟ ما الذي يبحث عنه؟ أتكلم: هل هناك من أمر ما أستطيع مساعدتك فيه؟

يتجاهلني هو والجنديان المتصلبان اللذان يفومان بحراستي، يبدو كأنهما مصنوعان من خشب. لا أثمر البتة. لا يمكن أن يعد وقوفي مهماً، بعد أسابيغي في الصحراء، أمراً صعباً. إضافة، أتحسس رائحة خفيفة لبهجة بسبب التوقع ان تلك الصداقة الزائفة بيني وبين المكتب الثالث قد تصل إلى نهاية.

أقول، أيمكنني التحدث إلى العميد جول؟ إطلاقاً في الظلام: من سيفول إن جول قد عاد؟

إنه لا يجيب، يواصل تظاهره بقراءة الوثائق. إنه رجل وسيم، ذو أسنان بيضاء متناسقة وعينين زرقاوين جميلتين.

أعتقد أنه فارغ. أتصوره جالساً في سرير بجوار فتاة، ممرناً عضلاته لها يقات على إعجابها. ذلك النوع من الرجال الذي يسير جسده مثل ماكينة. أتخيله جاهلاً أن له إيقاعاته الخاصة له. عندما سيتطلع إلى، كما سيفعل في خلال لحظة، سينظر من خلف ذلك الوجه الوسيم الثابت ومن خلال تلك العينين الصافيتين، كما ينظر ممثل من خلف قناع.

يرفع بصره عن الورقة. الأمر تماماً كما توقعت. يقول، أين كنت؟

كنت مسافراً في رحلة طويلة. يؤلمني أننى لم أكن هنا عند قدومك لتقديم واجبات الضيافة لك. ولكن الآن وبعد عودتى، فكل ما يعود لى هو لك .

علامته تقول إنه ضابط صف. ضابط صف. فى المكتب الثالث: ما الذى يعنى ذلك؟ فى ظنى، خمسة أعوام من ركل الناس وضربهم، الاحتقار للشرطى النظامى وللإجراءات القانونية المطلوبة، للكلام النبيل الناعم الذى يشبه كلامى. ولكن ربما أظلمه أنا - لقد كنت بعيداً عن العاصمة مدة طويلة.

يقول، لقد كنت تقوم بمفاوضات تتطوى على الخيانة مع العدو .

لقد اتضح الأمر إذن. مفاوضات تتطوى على الخيانة :

عبارة مأخوذة من كتاب. أقول، نحن فى سلام هنا، لا أعداء لنا. صمت هناك. أقول، ما لم أكن مخطئاً. ما لم نكن نحن الأعداء .

لست واثقاً من أنه يفهمنى. يقول، لسكان المحليون فى حرب معنا .

أشك فى أنه قد تطلع يوماً إلى بربرى فى حياته. لماذا كنت تتفاوض معهم؟ من سمح لك بمغادرة موقعك؟

لا أبالى بالاستفزاز. أقول، إنها مسألة شخصية، عليك أن تثق بكلامى حول الأمر. لا أنوى مناقشته، فيما عد القول إن قاضى المقاطعة ليس بموقع يمكن أن يتخلى عنه مثل موقع بواب .

هناك حيوية فى مشيتى بينما أقاد بين حارسى إلى السجن. أقول، آمل أن تسمح لي بالاغتسال . ولكنهما يتجاهلاننى. لا بأس.

أنا مدرك لمصدر زهوى: تحالفى مع حراس الإمبراطورية قد انتهى فقد وضعت نفسى فى المعارضة، القيد انكسر. أنا رجل سعيد، من ذا الذى لا يبتسم؟ ولكن ما أخطرها من فرصة! الحصول على لخلص يجب ان لا يكون سهلاً جداً. وهل هناك مبدأ ما خلف معارضتى؟ ألم أستثر أنا ببساطة إلى

ردة فعل لمشهد أحد البرابرة الجدد وهو يغتصب منضدتي وينبش في أوراقى؟ فيما يتعلق بهذه الحرية التى أنا فى الطريق لطرحها جانبا، أى قيم تعنيها بالنسبة لى؟ هل أنا قد تمتعت حقا بالحرية المطلقة لهذا العام المنصرم الذى كانت فيه حياتى أكثر من أى وقت مضى يخصنى تشكيلها أثناء احتجازى لها؟ أضرب مثلا: حريتى فى أن أجعل من الفتاة أى شىء اعتقدت أنه يعجبنى، زوجة أو محظية أو ابنة أو عبدة كلها مرة واحدة أو لا شىء، فى نزوة، ذلك لأننى لم ألتزم بأى واجب تجاهها ما عدا ما خطر ببالى أن أتحمسه من لحظة إلى لحظة: من اضطهاد لحرية مثل هذه من ذا الذى لا يرحب بحرية السجن؟ لا شىء بطولى فى معارضتى - دعونى لا أنسى ذلك لحظة واحدة.

إنها الغرفة نفسها فى التكنات التى استخدموها لتحقيقاتهم فى العام الماضى. أقف جانبا بينما تسحب بسط الجنود الذين ينامون ومرتباتهم هنا إلى الخارج وتكوم عند الباب. رجالى الثلاثة ما زالوا قذرين بملابسهم الرثة، يخرجون من المطبخ للتحديق. أصبح، ما هذا الذى تأكلونه؟ اجلبوا لى شيئا منه قبل أن يسجنونى! يأتينى أحدهم مهرولا بإناء فيه حصته من عصيدة الدخن الساخنة، يقول، خذه. يومئ لى الحراس بالدخول. أقول، لحظة واحدة فقط، دعهم يجلبون لى لفة فراشى، ولن أزعجكم بعدها ثانية. ينتظرون بينما أقف فى

بقعة مشمسة أغترف العصيدة كرجل مشرف على الموت
جوعاً. الفتى ذو القدم الملتهبة يقف مبتسماً بالقرب من مرفقى
ومعه طاسة من الشاي. أقول، شكراً ولا تقلقوا، لن يؤذوكم،
كنتم تتفنون ما أمرتم به لا غير . مع لفة فراشى وفراء الدب
القديم تحت نراعى أدخل زنزانتي. علامات السخام ما تزال
على الجدار حيث كانت المجرمة توضع. ينغلق الباب ويسقط
ظلام.

أنام طيلة النهار والليل، نادراً ما أزعج من ضربات فأس
خلف الجدر عند رأسى أو من أصوات كركبة عربات يد
ونداءات عمال. فى أحلامى، أنا فى الصحراء ثانية، أسير
متثاقلاً عبر مساحات لا نهاية لها نحو هدف مجهول. أتتهد
وأبلى شفتى. أسأل حينما يجلب الحارس طعامى، ما هذا
الصوت؟ يقول لى، إنهم يهدمون البيوت التى بنيت فى مواجهة
الجدار الجنوبى للثكنات، وهم عازمون على توسيع الثكنات
وبناء زنزانات مناسبة. أقول، آه، نعم، إنه أوان ازدهار الورد
السوداء للحضارة . لا يفهم.

لا نافذة فى المكان، مجرد فتحة فى أعلى الجدار. ولكن بعد
يوم أو يومين بدأت عيناى فى التكيف مع العتمة. يتوجب على
أن أحمى عيني من النوم عندما يفتح الباب وأطعم صباحاً
ومساءً. الصباح المبكر هو الساعة الأفضل، عندما أستيقظ من

النوم وأستلقي مصغياً إلى أول تغريد لعصفور، مراقباً فتحة
الضباب الرقيق في اللحظة التي تستسلم فيها الظلمة للضياء
الأول الأبيض- الرمادي.

أطعم أنا من حصة أرزاق الجنود الاعتياديين نفسها. تغلق
بوابة التكتات ساعة من الزمن، ويسمح لي في خلالها بالخروج
للاغتسال ولتريض. هناك على الدوام وجوه منضغطة على
قضبان البوابة، تتفرج على مشهد سقوط من كان في يوم ما
عظيماً. أتعرف على الكثير منها، ولكن لا أحد يسلم على.

في الليل، عندما يهدأ كل شيء، تخرج الصراصير
للاستكشاف. أسمع أو ربما أتخيل، الطقطقة الخشنة لأجنحتها،
عدو أقدامها عبر الأرضية المرصوفة، تغويها رائحة الدلو في
الزاوية، كسر الطعام على الأرض، وبلا شك جبل اللحم الذي
تفوح منه روائح متنوعة للحياة والتفسخ. وأصحو ذات ليلة
على خطوات في خفة ريشة لواحد منها يعبر بلعومي. بعد ذلك
اليوم، أصحو مرتجاً خلال الليل، منتفضاً بقوة، نافضاً منظفاً
نفسى، متحسباً وهم سبر مجساتها على شفتى، على عيني. لقد
حذرت: من مثل هذه البدايات تنمو الوسوس.

أصدق طوال النهار في الجدران الخالية، غير قادر أن
أصدق أن طبقات كل الآلام ولمهانة التي تحويها لن تتجسد
 يوماً تحت نظرة مركزة تماماً، أو اننى اغلق عيني محاولاً أن

أضبط حاسة سمعى إلى تلك الدرجة اللامتناهية من الضعف،
التي لا بد أن عندها تواصل صرخات من تعذبوا هنا، دوما من
جدار إلى جدار. أتمنى مجيء ليوم الذى فيه تهدم هذه الجدران
وتقدر آنذاك الترددات المضطربة أن تخلق أخيرا، على الرغم
من صعوبة تجاهل صرت أجرة توضع فوق أجرة أخرى فى
الجوار.

أتطلع بتوق لرياضة الصباح، عندما أتمكن من تحسس
الريح على وجهى والأرض تحت أخمص قدمى، أرى وجوهاً
أخرى وأسمع حديث البشر، بعد يومين من الوحدة، تحس
شفتاى برخاوتيهما وبعدم فائدتهما، ويبدو كلامى أنا غريبا
بالنسبة لى. حقا إن الإنسان لم يخلق كي يعيش وحيدا. أعزز
يومى بشكل غير معقول على مدار الساعات حول الوقت الذى
أطعم فيه. ألتهم طعامى مثل كلب. حياة بهيمية تحولنى إلى
بهيمة.

وعلى الرغم من ذلك فإننى فى الأيام الخالية فقط عندما
أنصب كلياً على نفسى وفيها أنصرف جدياً باستحضار أرواح
وقعت فى الشرك بين هذه الجدران لرجال ونساء لم يعودوا بعد
زيارة واحدة لهذا المكان يحسون بأنهم راغبون فى الحمل أو
قادرون على لسير برن مساعدة من أحد.

هناك باستمرار فى مكان ما، طفل يضرب. أفكر فى واحدة

كانت على الرغم من عمرها ما تزال طفلة، التي جلبت إلى هنا وأوذيّت أمام عيني والدها، الذي راقبته وهو يهان أمامها، وأدركت أنه قد علم بما رأيته هي.

أو ربما أنها في ذلك الوقت لم تعد قادرة على الإبصار، وكان عليها الإدراك بوسائل أخرى: النبرة التي ظهرت في صوته عندما توصل إليهم أن يتوقفوا لحظة واحدة.

أجد في نفسي على الدوام هذه اللحظة من الانكماش من تفاصيل ما جرى هنا.

بعد ذلك لم يعد لها أب. والدها كان قد أفنى نفسه، كان رجلاً ميتاً. لا بد أن الأمر قد حدث في هذه المرحلة، حينما أغلقت نفسها عنه، لأنه رمى نفسه على مستجوبه، إن تضمنت قصتها شيئاً من الحقيقة، وهجم عليهم بأصابعه مخمشاً مثل حيوان جامح حتى أسقط أرضاً ضرباً بالهراوات.

أغلق عيني عدة ساعات بلا انقطاع، جالسا في وسط أرضية الزنزانة، في الضياء الباهت للنهار، أحاول أن أستحضر صورة ذلك الرجل الذي يذكر بالكثير من السوء. كل ما أراه شكل يسمى أب قد يكون شكل أى أب يعرف أن طفلة تتعرض للضرب ولا يقدر هو على حمايتها. لا يستطيع أن يفى بواجبه تجاه من يحب. يعرف أنه من أجل هذا لن يغفر له أبداً. هذه المعرفة بخصوص الآباء، هذه المعرفة بخصوص الإدانة، هي

أكبر من أن يقدر على تحمله. فلا عجب ان رغب في أن يموت.

منحت الفتاة حمايتي، مبدئياً بطريفتي المراوغة أن أكون والدها. ولكنني جئت بعد فوات الأوان. بعد أن كانت قد توقفت عن الإيمان بالآباء. أردت أن أفعل ما كان صواباً. أردت أن أحقق تعويضاً: لن أنكر هذا الدافع الكريم، كيفما امتزج بدوافع مشكوك فيها أكثر: يجب أن يكون هناك على الدوام فرصة مناسبة للكفارة والتعويض، مهما يكن، كان على ألا أسمح قط لبوابات البلدة أن تفتح لأناس ممن زعموا أن هناك اعتبارات أرفع من تلك التي تتعلق بآداب لسلوك. لقد عرضوا والدها أمامها عارياً وجعلوه يهذر ألماً: لقد كموها ولم يستطع هو إيقافهم (في يوم أمضيته مشغولاً بدفتر الحسابات في مكتبي) بعد ذلك لم تعد إنسانا كاملاً، أختاً لكل واحد منا. مشاركات وجدانية معينة ماتت. نزعات معينة للقلب لم تعد ممكنة بالنسبة لها. أنا أيضاً، إن عشت زمناً طويلاً كافياً في تلك الزنزانة مع أشباحها ليس فقط للأب وللابنة ولكن للرجل الذي لا يرفع عن عينيه القرصين الأسودين حتى في ضوء مصباح والتابع الذي كان عمله أن يغذى الموقد باستمرار، سأكون متأثراً بالعدوى ومتحولاً إلى مخلوق لا يؤمن بشيء.

وهكذا أستمر في الانقضااض والدوران حول شخص الفتاة المتعذر تحويله إلى وضع سرى، أرمى شبكة من معان فوق

أخرى. إنها تتوكل على عكازيها تتطلع نحو الأعلى في نظرة
كليلة. ما الذى تراه؟ الجناحان الحافظان لطائر القطرس(*)
الحارس أو الشكل الأسود لغراب جبان يخاف أن يهاجم بينما
ضحيته ما تزال تتنفس.

* * *

على الرغم من أن لدى الحراس أوامر بعدم الدخول معى
فى مناقشات، فليس من الصعب أن أخيط أجزاء إلى بعضها فى
قصة متماسكة من نتف أحاديث أسمعها عند خروجى إلى
الساحة. كل الأحاديث الأخيرة هى عن حريق على طول ضفة
النهر. قبل خمسة أيام، كان الحريق مجرد لطفة سوداء تجاه
الضباب فى الشمال الشرقى. وهو بعد ذلك الوقت كان قد التهم
كل ما فى طريقه منحدرًا ببطء مع مجرى النهر، متلاشيًا أحيانًا
ولكنه منتعش باستمرار، وهو يرى الآن بوضوح من البلدة مثل
كفن بنى فوق الدلتا حيث ينضم النهر إلى البحيرة.

أستطيع أن أخمن الذى حدث. أحد ما قد قرر أن ضفاف
النهر تمنح غطاءً واقياً أكثر مما ينبغى للبرابرة، وأن النهر
يشكل خطاً دفاعياً أقوى ان أخليت جوانبه. وهكذا أشعلوا
النيران فى الدغل. وبمساعدة الريح الهابة من الشمال، انتشرت

(*) القطرس : طائر بحرى كبير

لنيران عبر الوادى المنخفض الضحل بأكمله. لقد رأيت من قبل حرائق عاصفة. تتسابق النيران فى خلال القصب، تتأجج أشجار لحور كالمشاغل، تهرب الحيوانات التى تمتلك سرعة مناسبة - وعول، أرنب برية، قطط، أسراب من طيور تطير فى فرع، وكل شيء عدا ما ذكرت يفنى. إلا أن هناك مساحات كثيرة جداً، من إمدادات قاحلة على طول النهر نادراً ما تنتشر فيها النيران. فمن الواضح فى هذه الحالة إنن أنه لا بد من جماعة تقوم بمتابعة الحريق على النهر وتراقب ضرورة تطوره. وهم لا يبالون من أن الأرض متى ما أصبحت جرداء كل يوم فإن الريح تبدأ بفرض التربة وتتقدم الصحراء إلى الأمام وهكذا تستعد قوات البعثة لمحاربة البرابرة، ومن أجل حملتها، تخريب الأرض، تبيد الميراث.

* * *

الأرفف قد أخليت، نظفت وجلت. يشع سطح المكتب بطلاء عميق، أجرد إلا من طبق لكرات زجاجية بمختلف الألوان. الغرفة نظيفة للغاية. على المنضدة فى الزاوية وضعت مزهرية فيها زهور الخبازى تملأ الهواء بالعطر. هناك سجادة جديدة على الأرض. لم يبد مكتبى أبداً أكثر جانبية.

أقف بجوار حارسى، بالملابس نفسها التى سافرت بها. غسلت ملابسى الداخلية مرة أو مرتين إلا أن سترتى ما تزال

تفوح برائحة دخان الخشب، منتظراً. أراقب تلاعب أشعة الشمس عبر براعم اللوز خارج النافذة، وأنا قانع.

يدخل بعد مدة طويلة، يلقي بحزمة من أوراق على الطاولة، ثم يجلس. يحدق فيّ دون أن يتكلم. وهو يحاول مع شيء من الأداء المسرحي المبالغ فيه، أن يترك لدى انطباعاً معيناً. إعادة التنظيم المعتنى به لمكتبي من أشياء كانت مركومة عليه وتنظيفه من الغبار إلى هذه الدرجة من النظافة المتبذلة، مشية الاختيال البطيئة التي يقطع بها الغرفة، الوقاحة المدروسة التي يعاينني بها، مقصودة كلها لتقول شيئاً، ليس فقط إنه المسؤول الآن (كيف يمكنني تفنيد ذلك؟) ولكنه إلى حد كبير يعرف كيف يتصرف في مكتب، يعرف حتى كيف يقدم ملاحظة بخصوص فعالية رائعة. لماذا يجدني مستحقاً عنا، هذا العرض؟ لأنني على الرغم من ملابسى النتنة ولحيتي الغليظة، ما زلت أنتمي إلى فصيلة متمرسة كيفما اضمحلت بوضاعة حتى العدم هنا خلف الآخرة؟ هل يخشى اننى سأستهزئ به ما لم يحصن نفسه بزخارف داخلية انتقاها، دون شك، عن ملاحظة متأملة لمكاتب من هم أعلى منه درجة في المكتب الثالث؟ وهو لن يصدقني إن قلت له إن الأمر لا يهم. يجب أن أكون حذراً كي لا أبتسم.

ينظف حنجرته. يقول، سأقرأ عليك الشهادات الخطية التي قمنا بجمعها، أيها القاضي، كي تتكون عندك فكرة عن خطورة

التهم الموجهة إليك . يشير بيده ويغادر الحرس الغرفة؟

من الأولى: سلوكه فى المكتب تخلى عن كثير مما هو مطلوب. أحكامه اتسمت بالاعتباطية، كان على طالبى الالتماس عند بعض الحالات الانتظار أشهراً من أجل الاستماع إلى الحجج، وهو لم يمسك نظام حسابات قانونى للمال . يضع الورقة على الطاولة. قد أشير إلى أن معاينة لحساباتك أكدت على عدم قانونيتها . على الرغم من كونه موظفاً إدارياً رئيساً لهذه المقاطعة، فإنه أنشأ علاقة غرامية مع مومس استولت على معظم طاقته وأدى ذلك إلى الإضرار بواجباته الرسمية. كان للعلاقة تأثير محبط على هيئة الإدارة الإمبراطورية لأن المرأة المعنية كانت قد أقامت علاقات مع جنود عاديين وكانت موضوعاً للعديد من القصص الداعرة . لن أعيد تلك القصص.

دعنى أقرأ عليك تلك من الشهادة الثانية . فى الأول من آذار، قبل أسبوعين من وصول البعثة، أعطى أوامر لى ولجنديين آخرين (ذكرت أسماءهم) للاستعداد فوراً لرحلة طويلة. وهو لم يقل فى ذلك الوقت إلى أين كنا ذاهبين. لقد أصابتنا الدهشة عندما اكتشفنا أن الفتاة البربرية ستكون مسافرة معنا. ولكننا لم نطرح أسئلة. لقد دهشنا أيضاً للسرعة التى تمت فيها الاستعدادات. لم نفهم لماذا لا يتوجب علينا الانتظار حتى ذوبان الثلوج فى الربيع. لم نفهم إلا بعد عودتنا أن غرضه كان

تحذير البرابرة من الحملة القادمة... لقد أجرينا اتصالات مع البرابرة وبالتحديد فى الثامن عشر من آذار. كانت لديه مداولات مطولة معهم، والتي أبعدنا عنها. كما تم تبادل هدايا أيضاً. لقد تناقشنا فى هذا الوقت فيما بيننا عن ما يمكننا أن نفوم به إن أمرنا أن نذهب إلى حيث البرابرة. وقررنا أننا سنقوم برفض عرضه ونجد طريقنا نحو الوطن... عادت الفتاة إلى أهلها. كان مسلوب العقل من قبلها، ولكنها لم تأبه به .

وهكذا. يضع الأوراق على الطاولة بعناية ويساوى زواياها. التزم الصمت. قرأت مقتطفات فقط. كى يكون بإمكانك فهم أبعاد الأمور. يبدو الأمر سيئاً عندما نضطر للتدخل وتطهير الإدارة المحلية، والأمر حتى ليس واجباً . سادافع عن نفسى فى محكمة قانونية .

وهل ستفعل؟

لست مندهشاً ما يفعلون. أنا أعرت جيداً وزن تلك المؤسسات والفروقات الضئيلة فى المعنى التى يمكن اللجوء إليها كى تقبل، أو كيف أن سؤالاً يمكن أن يطرح بطريقة معينة كى تملى على الشخص الجواب عنه. سيستغلون القانون ضدى إلى أبعد مدى يخدمهم. ثم سيستديرون إلى طرق أخرى. ذلك هو أسلوب المكتب الثالث. بالنسبة لأشخاص لا يعملون فى ظل نظام أساسى، تعتبر الإجراءات القانونية ببساطة أداة من بين أدوات كثيرة.

أحدث، لن يجرؤ أحد على التفوه في تلك الأمور أمامي.
من المسؤول عن الشهادة الأولى؟ يهزّ يداً ويستند إلى الخلف.
لا بأس. ستال فرصتك للإجابة .

وهكذا يتأمل واحدنا الآخر في سكون الصباح، حتى يحين
الوقت المناسب له كي يصفق بيديه للحراس كي يبعدوني.

أفكر فيه كثيراً في وحدة زنزانتى، محاولاً أن أفهم حقه،
محاولاً أن أرى نفسى كما هو يرانى. أفكر في الاهتمام الذى
أبداه تجاه مكتبى. إنه ببساطة لم يجمع أوراقى في زاوية ولم
يضع حذاءه فوق طاولتى، ولكنه عوضاً عن ذلك يتحمل عناء
استعراض مفهومه للذوق السليم. لماذا؟ رجل ذو خصر فتى
وعضلات مقاتلى شوارع محشو فى الزى الأرجوانى -
الأزرق الذى ابتدعه المكتب الثالث لنفسه. فارغ، جائع للمديح،
أنا واثق من ذلك. مفترس نساء، غير راض، غير مرض. هو
الذى قيل له إن امرءاً ما لا يستطيع الوصول إلى القمة إلا عن
طريق تسلق هرم من الأجساد. هو الذى يحلم من أنه فى يوم
من هذه الأيام سيضع قدمه على رقبتى ويكبس. وأنا؟ أجد
الأمر صعباً أن أكرهه فى المقابل. الطريق إلى القمة لابد أن
يكون صعباً لرجال شباب بلا مال، بلا وساطة، مع تعليم
ضئيل، رجال يدخلون عالم الجريمة بالسهولة نفسها التى
ينضمون فيها إلى خدمة الإمبراطورية (ولكن أى شعبة أفضل

للخدمة يمكن أن يختاروها أفضل من المكتب الثالث!).

ومع ذلك، أنا غير مقبلٍ على تحمل نلّ السجن. أحياناً، جالساً على حصيرتي متفرساً في ثلاث بفع على الجدار. أجد نفسي تتساق للمرة الألف تجاه الأسئلة، لماذا هي في صف واحد؟ من وضعها هناك؟ هل هي تشير لشيء ما؟، أو أجدني وأنا أذرع المكان أعد واحد - اثنين - ثلاثة - أربعة - خمسة - ستة - واحد - اثنين - ثلاثة...، أو أحك وجهي بلا تفكير بيدي، أدرك كيف سمحت لهم أن يجعلوا عالمي صغيراً جداً، إلى أي مدى أصبح يوماً بعد يوم أكثر شبيهاً بالبهيمة أو ماكينة بسيطة. عجلة دوارة لطفل، على سبيل المثال، مع ثمانية شخوص ضئيلة يقدمون أنفسهم على الإطار: أب، عاشق، فارس، سارق... ثم أستجيب بحركات فزع دوارة أندفع في خلالها حول الزنزانة راجاً يدي هنا وهناك، ناتفاً لحيتي، أضرب الأرض بشدة بقدمي. فاعلاً أي شيء لمباغطة نفسي، لتذكير نفسي بعالم في الخلف، يتصف بالتنوع وبالوفرة.

هناك أيضاً أشكال أخرى من الذلّ. التماسي من أجل الحصول على ملابس نظيفة تم تجاهله. لا أمتلك شيئاً يرتديه غير ما جلبته معي. في كل يوم تريض، تحت بصر الحارس، أغسل قطعة واحدة، قميصاً أو زوجاً من السراويل الداخلية، برماد وماء بارد، وأعيدها إلى زنزانتى كي تجف (القميص

الذى تركته فى الساحة ليحف اختفى بعد يومين). فى خياشيمى
على الدوام رائحة ملابس لم تر الشمس.

وأسوأ. تحت ظل النظام السائد لممل للحساء والعصيدة
والشاي، أصبح أمر إطلاق أمعائى يسبب لى لماً مبرحاً -
أتردد عدة أيام حاساً بالتصلب والانتفاخ قبل أن أقدر على حمل
نفسى على الجلوس مفرفصاً على الدلو وتحمل طعنات الألم،
تمزق الأغشية التى تصاحب مثل هذا لنوع من الإفرغ.

لا أحد يضربنى، لا أحد يجوعنى، لا أحد يبصق على. كيف
أعد نفسى ضحية الاضطهاد فى حين

أن معاناتى خفيفة هكذا. ومع ذلك فإنهم جميعاً أكثر انحطاطاً
بسبب تفاهتهم. أتذكر مبتسماً عندما أغلق الباب خلفى فى المرة
الأولى ودار لمفتاح فى القفل، بدا الأمر ليس بعقوبة كبيرة فى
الانتقال من عزلة الوجود اليومي لى عزلة زنزانة فى حين أن
بإمكانى أن أحمل معى عالماً من الأفكار والذكريات. ولكننى
الآن أبدأ فى إدراك كم بدائية هى الحرية. أى حرية قد تركت
لى؟ حرية أن أكل أو أموت جوعاً، أن أحتفظ بصمتى أو أثثر
لنفسى أو أضرب على لباب أو أصرخ. إن كنت الهدف لظلم،
ظلم طفيف، عندما أغلقوا الباب على هنا، فإننى الآن لست أكثر
من كومة غير سعيدة من دماء وعظام، ولهم.

طعام عشائى يجلب من قبل الحفيد الصغير للطباخة. أنا

وائق من أن الأمر يحيره إن القاضى القديم قد سجن وحده فى
غرفة مظلمة، ولكنه لا يطرح أى سؤال. يدخل منتصب القامة
ومحترماً نفسه، حاملاً الصينية، بينما الحارس يمسك الباب
مفتوحاً. أقول، شكراً، أنا سعيد لقدمك. كنت بدأت أحس
بجوع شديد... أريح يدي على كتفه، املأ الفراغ بيننا بكلمات
إنسانية، بينما ينتظر برصانة إجابتي كي أذوق وأستحسن.
وكيف حال جدتك اليوم؟

إنها بخير، سيدى .

والكلاب؟ هل الكلب قد عاد الآن؟ (من الجهة الأخرى
للساحة يصل نداء، جدته).

لا، سيدى'.

أنت تعرف، إنه الربيع، موسم المزاوجة. تذهب الكلاب
لزيارات، تبقى مدة من الوقت، ثم تعود إلى أماكنها دون أن
تقول أين كانت. عليك ألا تقلق، سيعود'.

نعم، سيدى .

أذوق الحساء، كما يريدنى أن أفعل وأتلمظ بشفتى. أقول
لجدتك، شكراً على العشاء، إنه لذيذ .

نعم، سيدى. النداء ثانية: يرفع عن الأرض قدح الصباح
وإنائه ويستعد للمغادرة.

قل لى أيضا: هل الجنود قد عادوا الآن؟ أسأله بسرعة.

لا سيدى .

أبقى الباب مفتوحاً وأقف فى مدخل الباب أصغى إلى آخر زقزقات العصافير فى الأشجار تحت السماء البنفسجية الواسعة بينما يعبر الغلام الساحة بصينيته. لا أملك شيئاً كى أعطيه ولا حتى برعماً. بل إننى لا أملك وقتاً كى أريه كيف يجعل مفاصله تطلق أو كيف يمسك أنفه بقبضته.

إننى أنسى الفتاة، منجرفاً نحو النوم، تخطر على بالى بوضوح باهت، ذلك أن يوماً بأكمله قد مر دون أن أفكر بها فى خلاله. الأسوأ، أننى لا أقدر أن أتذكر، بالتأكيد كيف تبدو تقريباً. من عينيها الفارغتين، كان يبدو باستمرار ما يشبه ضباباً ينتشر، فراغاً يستبد بأجمعها. أترس فى الظلمة منتظراً تشكل صورة ما، ولكن الذكرى الوحيدة التى أسكن إليها كلياً هى يداى المزيقتان تنزلقان على ركبتيها، على ريلة ساقها، كاحليها. أحاول أن أتذكر اتصالاتنا الحميمة القليلة ولكنى أشوشها بذكريات كل الأجساد الدافئة الأخرى التى غمدت نفسى فيها عبر مسيرة حياتى بأكملها. إننى أنساها، وأنساها، أعرف أناء، عامداً. ليس من تلك اللحظة التى وقفت فيها أمامها عند بوابة التكنات وانتقيتها كنت قد عرفت جوهر حاجتى إليها، والآن أنا مشغول بانتظام فى دفنها فى النسيان. يدان تعوزهما

العاطفة، قلب ميت: أتذكر المثل السائر: أضع راحتي إلى خدى. أتهد فى الظلام.

فى الحلم هناك شىء ما يركع فى ظل جدار. الساحة خالية تماماً، الريح تسوق الغبار نحو الغيوم، تربض خلف ياقة معطفها، تسحب قبعها نحو الأسفل لتخفى سكينها.

أقف مشرفاً عليها. أقول، 'أى مكان يؤلمك؟ أحس بالكلمات تتشكل فى فمى، ثم أسمعها تتبعث واهية، بشكل غير عادى، مثل كلمات نطقت من قبل شخص آخر.

تقدم ساقها نحو الأمام فى ارتباك وتلمس كاحليها. إنها صغيرة الجسم إلى حد كبير بحيث إنها تكاد تضيع فى معطف الرجل الذى ترتديه. أجلس، أفك شريط الجوارب الصوفية، أحل الأربطة. تتمدد القدمان أمامى فى التراب، طليقتين، فظيقتين، سمكتين جانحتين، حبتى بطاطا كبيرتين.

أرفع إحداهما إلى حضنى وأبدأ فى تفريتها. تسيل الدموع من خلف جفنيها، منهمة على خديها، إنها ملتهبة! تتوح بصوت واه. أقول، إننى سأدفنك أرفع القدم الأخرى وأحتضن الاثنتين معاً. تسكب الريح غباراً فوقنا، حبيبات رملية خشنة على أسناني. الليل ساكن، القمر أسود. أستلقى مدة من الزمن محدقاً فى الظلمة، ثم أنسل عائداً إلى الحلم.

أدخل قوس بوابة التكنات وأواجه ساحة لا نهاية لها كأنها صحراء. لا أمل هناك للوصول إلى الجانب الآخر، ولكنى أسير بثقل، أحمل الفتاة، المفتاح الوحيد الذى أملكه للمتاهة، يتدلى رأسها على كتفى، قدمها الميئتان تتدليان فى الجهة الثانية.

هناك أحلام أخرى يتغير فيها، شكل ما أسميه الفتاة، حجماً، جسماً، هيئة: فى واحد من الأحلام هناك هيئتان تثيران الفرع فى: كبيرتان وفارغتان، تكبران وتكبران حتى تملأ كل المكان الذى أنام فيه. أصبحو مختقاً، صارخاً، حنجرتى منتفخة.

إن نسيج الأيام، من جهة أخرى، ممل مثل عصيدة. لم يحتك أنفى قط من قبل بالأمور اليومية.

إلى هذا الحد الذى يحدث الآن. تلفق الأحداث فى العالم الخارجى، الأبعاد المعنوية لقضيتى، إن يكن الأمر كذلك، قضية، بل حتى احتمالات الدفاع عن نفسى فى المحكمة فقد فقدت عنصر التشويق، تحت ضغط الشهية والوظائف البدنية، وضجر العيش ساعة بعد أخرى. لقد تعرضت لبرد، كل وجودى منشغل فى التنشق والعطس، إنه لبؤس أن تكون ببساطة جسداً يحسن بنفسه معتلاً ويريد استعادة صحته.

* * *

فى أصيل يوم، الأصوات الضعيفة غير المتناسقة لكشط

وصلصلة مساحة عمال بناء الآجر لتسوية الجانب الآخر من الجدار تتوقف فجأة. مستلق فوق حصيرتي، أرهف السمع: هناك في الجو دوى في البعد، باهت و ذو خاصية مثيرة بالنسبة إلى سكون ساعة الأصيل الذي يخل في تبذير نفسه إلى أصوات مميزة ولكنه يتركني متوتراً وقلقاً. أهى عاصفة؟ على الرغم من أنني أضغط بأذني على الباب فإنني لا أستطيع أن أميز شيئاً. ساحة التكنات خالية.

يعاود عمال بناء الآجر خشخشتهم.

قراءة المساء يفتح الباب ويدخل صديقي الصغير بعشائي. أستطيع أن أدرك أنه يكاد يتفجر لإخباري بشيء ما، ولكن الحارس يدخل معه ويقف ويده على كتفه. ولهذا فإن عينييه وحدهما تتكلمان معي: متوقدتان بالانفعال، باستطاعتي أن أقسم انهما تقولان إن الجنود قد عادوا. في تلك الحالة لماذا لا ينفخون في الأبواق ولا يطلقون صيحات التهليل؟ لماذا لا تجتاز الخيول الساحة الكبيرة خبياء، لماذا لا تعلو أصوات الاستعدادات للوليمة؟ لماذا يقبض الحارس على الولد بشدة إلى هذا الحد ويدفعه مسرعاً إلى الخارج قبل أن أتمكن من منحه قبلة على رأسه الحليق؟ الجواب الواضح هو أن الجنود قد عادوا ولكن ليس بانتصار. إن كان الأمر كذلك، يتوجب على التزام الحذر.

في المساء، بعدئذ، هناك تفجر مفاجئ لصوت قادم من

الساحة وهمهمات أصوات. أبواب تفتح وتغلق بقوة. أقدام تروح وتجيء. أستطيع سماع بعض مما قيل، أستطيع سماعه بوضوح: لا تتحدثوا عن الاستراتيجية أو جيوش البرابرة ولكن عن أقدام متألّمة وتعب، ومناقشة حول رجال مرضى في حاجة ماسة إلى أفرشة. في غضون ساعة يهدأ كل شيء ثانية. الساحة خالية. لا سجناء هناك إذن. ذلك على الأقل سبب الابتهاج.

* * *

إنه منتصف النهار وأنا لم أتناول الإفطار. أذرع غرفتي، معدتي تفرقر كمعدة بقرة جائعة. يسيل لعابي عند التفكير بالعصيدة المالحة والشاي الأسود. لا أستطيع أن أمنع نفسي عن ذلك.

لا توجد علامة ما تدل على أنهم سيسمحون لي بالخروج، على الرغم من أنها ساعة التريض.

عمال بناء الأجر يعاودون عملهم، وتصل من الساحة أصوات فعاليات يوم عادي، بل إنني حتى أسمع الطباخة وهي تتنادى على حفيدها. أضرب على الباب، ولكن لا أحد يبدى أى اهتمام.

بعدئذ، وفي منتصف ما بعد الظهر، يدور المفتاح في القفل

ويفتح الباب. يقول حارسي، ماذا تريد؟ لماذا كنت تدق على الباب؟ لا بد أنه يمقتني إلى حد ما! أن يمضي امرؤ أياماً من حياته مستمراً في مراقبة باب مغلق وقديم خدمات للاحتياجات البهيمية لرجل آخر. لقد سرقت منه أيضاً حرите. ويعتقدني السارق.

ألن تسمحوا لي اليوم بالخروج؟ لم أحصل على أي شيء آكله.

أمن أجل هذا ناديت على؟ ستحصل على طعامك. تعلم بعض الصبر. على أي حال، إنك بدين جداً.

انتظر، لابد أن أفرغ دلوى. رائحة كريهة تتبعث منه هنا. أريد أن أغسل الأرضية. أريد أن أغسل ملابسى أيضاً. لا أستطيع أن أظهر أمام العميد بملابس لها مثل هذه الرائحة الكريهة. إنها ستجلب الخزي لحراسى. أريد ماء ساخناً وقطعة من صابون وخرقة. دعنى أفرغ دلوى بسرعة وأن أجلب ماءً ساخناً من المطبخ.

حسنى حول العميد كان مصيباً، لأنه لم يناقضنى. يوسع فتحة الباب ويقف جانباً يقول، أسرع.

لا أحد في المطبخ غير خادمة غسل الصحون. تفاجأ بدخولنا، معاً، بل في الحقيقة تبدو كأنها موشكة على الهرب من

المكان. أى نوع من قصص يتناقلها الناس عنى؟

يأمر الحارس، أعطيه بعض الماء الساخن. تحنى رأسها وتستدير نحو الموقد حيث يوجد باستمرار رجل ماء يغلى.

من فوق كتفى أقول للحارس، دلو - سأجلب دلواً للماء. بخطوات واسعة قليلة، أجتاز المطبخ إلى الخلية المعتمدة حيث، مع أكياس الطحين والملح والدخن المسحوق ولبازلاء لمجففة والفاصولياء، تحفظ ماسحات الأرضية والمكانس. على مسمار بعلو الرأس يوجد مفتاح القبو حيث تعلق أطراف لحم الضأن. فى لحظة أضعه فى جيبي. عند عودتى أحمل فى يدي دلواً خشبياً. أرفعه بينما تغرف الفتاة ماءً مغلياً فيه. أقول، كيف حالك؟ ترتجف يدها إلى حد كبير الأمر الذى يدفعنى إلى تناول المغرفة منها. هل بإمكانى الحصول على قطعة من صابون وخرقة قديمة، رجاءً؟

بعد عودتى إلى زنزانتي أتجرد من ملابسى وأغتسل فى الماء الساخن الترف. أغسل قطعة من ملابسى الداخلية الإضافية، والتي تفوح منها رائحة بصل متعفن، أعصرها، أعلقها على مسمار خلف لباب، وأفرغ الدلو على أرضية الغرفة المرصوفة. ثم أستلقى على الفراش منتظراً حلول الليل.

* * *

المفتاح يدور بنعومة فى القفل. كم من الناس غيرى يعرفون أن مفتاح القبو يفتح الباب المؤدى إلى غرفة سجنى، كما أنه يفتح أيضا الخزانة الكبيرة للأطباق فى القاعة الرئيسة للتكنات، وأن المفتاح الخاص بجناح الغرف فوق المطبخ هو نسخة من المفتاح لـباب مستودع الأسلحة، وأن المفتاح لمدخل البرج الشمال- غرب يفتح أيضا مدخل برج الشمال- شرق، وخزانة الأطباق الصغيرة فى القاعة، والفتحة الصغيرة فوق أنبوب المياه فى الفناء؟ المرء لا يمضى ثلاثين عاما غاطسا فى التفاصيل المتعلقة بحياة مستوطنة صغيرة عبثا .

تبرق النجوم فى سماء صافية سوداء. تبدو عبر قضبان بوابة الساحة، ومضة من نار فى الساحة التى وراءها. بجوار البوابة، أستطيع إن أجهت بصرى، أن تُبين هيئة داكنة، رجلا يجلس مستندا على الجدار أو متكورا وهو نائم. هل يرانى فى مدخل زنزانتى؟ أقف دقائق منتبها. إنه لا يتحرك، بعدها أبداً السير مع حافة الجدار، تصدر قدمائى العاريتان أصواتا هامسة على المساحات الصغيرة المفروشة بالحصى.

أستدير حول الزاوية وأجتاز باب المطبخ. الباب التالى يؤدى إلى سلم شقتى القديمة. إنه مغلق. الباب الثالث والأخير مفتوح، إنه الباب إلى لغرفة الصغيرة التى تستعمل أحيانا كمستشفى، وببساطة أحيانا لإيواء الرجال فيها. منحنيا، متحسسا

بيدى ما أمامى، أزحف نحو المربع الأزرق للنافذة المزلجة،
خائفاً من التعثر فوق الأجساد التى أسمع نفاسها فيما حولى.

خيـط واحد يبدأ فى الانسحاب من خصلة لخيوط: الشخص
لنائـم عند قدمى يتنفس بسرعة، وفي كل زفير يصدر أنه
واهنة. أحلم هو؟ أتوقف قليلاً على مسافة بضعة إنجات عنه،
مثل ماكينة، يستمر فى اللهاة والأنين فى الظلام. ثم أزحف
مجتازاً إياه.

أقف عند النافذة وأتطلع منها إلى ساحة البلدة، نصف متوقع
نيران مخيم، خطوطاً من خيول مربوطة وحزماً من تشكيلات
بنادق، صفوفاً من خيام. ولكن لا يوجد شيء يمكن رؤيته
تقريباً: جمرات نار وحيدة خامدة، وربما ومضة خيمتين
بيضاوين بعيداً تحت الأشجار. إذن لم تعد قوات البعثة! أو هل
من الممكن أن النفوس لقليلة التى هنا هى كل ما تبقى منها؟
يتوقف قلبى للفكرة عن لـخفقان. ولكن هذا غير ممكن! هؤلاء
الرجال لم يذهبوا إلى حرب: فى أسوأ الأحوال كانوا يتجولون
فى البلدة الواقعة عند أعالي النهر، يطاردون رعاة مواشى غير
مسلحين، يغتصبون نساءهم، ينهبون بيوتهم، يبعثرون قطعانهم،
وفى أفضل الأحوال، لم يقابلوا أحداً على الإطلاق - بالتأكيد
ليس القبائل البربرية المحتشدة، التى لـضرواتها قد غدا المكتب
الثالث متورطاً بالدفاع عنا.

أصابع بخفة أجنحة فراشة تلمس كاحلي. أجتو على ركبتى.
صوت يفضى لى بما فى نفسه، أنا عطشان. إنه الرجل الذى
كان يلهث. إذن فهو لم يكن نائماً. أهمس، بهدوء يا بنى
متفرساً، أستطيع أن أتبين بياض عينيه المرفوعتين نحوى،
ألمس جبهته: إنه محموم. ترتفع يده وتمسك بيدي. يقول كنت
عطشاناً إلى حد كبيراً!

أهمس فى أذنه، سأجلب لك ماء، وعليك بعد ذلك التزام
الصمت. هناك رجال مرضى فى المكان، يجب أن يناموا.

الظل بجوار البوابة لم يتحرك. ربما لا يوجد شيء ما هناك،
ربما كيس قديم أو حزمة من حطب الوقود. أسير على أطراف
أصابعى عبر الحصى إلى حوض الماء حيث يغتسل الجنود.
الماء غير نظيف ولكننى لا أقدر على تحمل غلق الماسورة.
من طرف الحوض يتدلى قدر قديم، أملؤه وأعود على أطراف
أصابع قدمى.

يحاول الفتى أن يجلس ولكنه لا يقدر بسبب ضعفه الشديد.
أسنده بينما يشرب.

أهمس، ما الذى يحدث؟ يتحرك واحد من النائمين. هل
جرحت أم أنك عليل؟ أحس بحرارة شديدة! يئن يريد دفع
البطانية عنه ولكننى أمنعه. أهمس، يجب أن ترشح السخونة
خارجاً. يهز رأسه ببطء من جهة إلى أخرى. أمسك برأسه

حتى يغوص ثانية في النوم.

هناك ثلاثة قضبان قائمة في إطار خشبي: كل نوافذ الطابق السفلي مغلقة بقضبان. اضغط بقدمي على الإطار، أمسك بالقضيب الأوسط وأدفع. أعرق وأتعب، هناك وخزة ألم في منتصف ظهري. ولكن القضيب لا يتحرك. ثم وعلى حين غرة، ينكسر الإطار وتوجب على التشبث كي أمانع نفسي من السقوط إلى الخلف. يبدأ الفتى بالتأوه ثانية، نائم آخر يتنحج. أنا أوشك أن أصبح مبالغاً بالألم الذي يصيبني عندما أضع كل ثقل على قدمي اليمنى.

النافذة وحدها مفتوحة. رافعا القضبان بقوة إلى جهة واحدة، أدمس رأسي وكنتفى عبر الفتحة، شاقاً طريقى إلى الخارج، وأكبو على الأرض في النهاية خلف صف من شجيرات قلمت أعاليها على طول السور الشمالى للثكنات.

كل ما أقدر على التفكير به هو الألم، كل ما أرغب فيه هو أن أترك لأستلقى فى أفضل وضع أجده مناسباً لى، على جنبى وركبتاى مرفوعتان نحو ذقتى. مدة ساعة على الأقل، أستلقى هنالك بينما كان بإمكانى متابعة هربى، أسمع عبر النافذة المفتوحة أنفاس النائمين، صوت الفتى وهو يدمدم لنفسه. تخمد الجنوة الأخيرة للنار الموقدة فى الساحة. الكل نائم، إنسان وحيوان. إنها الساعة التى تسبق الفجر، الساعة الأقسى برداً.

أحس ببرودة الأرض تدخل عظامى. إن استلقيت مدة أطول هنا سأتجمد وأدحرج خلفاً إلى زترانتى صباحاً بعربة يد. مثل حلزون مجروح أبدأ الزحف فى موازاة السير باتجاه مدخل الشارع الأول الذى يمتد بعد لسانة.

لبوابة المؤدية إلى لفحة الصغيرة الواقعة خلف الفندق، تقع فى الخلف، وهى رديئة المفاصل. المنطقة بأجمعها تشى بالتفسخ، قشور، عظام، فضلات طعام، رمد، كلها ترمى هنا من المطبخ كى تذى فى الأرض، ولكن الأرض قد غدت متعبة، المذرة التى تطمر هذا الأسبوع ترفض تقليب ما طمر فى لأسبوع الماضى. الهواء فى خلال النهار مملى بالذباب، وعند الخسق تستيقظ الخنفساء السوداء والصرصار.

تحت السلم الخشبى الصاعد إلى الشرفة وأقسام الخدم يقع موضع منعزل حيث يخزن الحطب وحيث تهجع القطط عندما تمطر السماء. أزحف إلى الداخل وأنطوى على نفسى فوق حقيبة قديمة. تفوح منها رائحة بول، وهى بالتأكيد مليئة بالبراغيث، أشعر ببرد شديد تصطاك له أسناني، ولكن كل ما يشغلنى فى هذا الصباح هو تهئة الألم فى ظهري.

* * *

صحوت من النوم على طقطقة أقدام على السلم. انه ضياء نهار. مرتبكاً، مشوش الرأس، أجلس جاثياً على ركبتى فى

خلوتى. أحدهم يفتح باب المطبخ. دجاجات من كل الزوايا تأتي
عدواً. الأمر مسألة زمن فحسب قبل أن أكتشف.

بأكبر جرأة امتلكها، ولكن مجفلاً على الرغم من نفسى،
أصعد السلم. لا بد أن منظرى يبدو فظيماً للعالم بقميصى
وينطلونى القذرين، قدمى الحافيتين، ولحيتى الشعثاء؟ مثل
خادم، أرجو ذلك، سائس خيل يعود إلى البيت بعد ليلة أسرف
خلالها بالشراب.

الممرّ خال، الباب المؤدى إلى غرفة الفتاة مفتوح. الغرفة
نظيفة ومرتبّة كما فى السابق: الجلد والصوت الناعم بجوار
الفرش | الستارة ذات المربعات الحمر منسدلة على النافذة،
صندوق الأدوات الشخصية مدفوع إلى الجدار الأبعد وأعلى
منه شماعة للملابس. أدفن رأسى فى عبير ملابسها وأفكر فى
الولد الصغير الذى جلب طعامى، وكيف عندما استقرت يدي
على كتفه، كنت أشعر بالقوة الشافية لتلك اللمسة تسرى فى
جسد قد أصبح متصلباً بفعل عزلة غير اعتيادية.

الفرش قد رتب. عندما أمررت يدي بين الشراشف، أتخيل
أننى قادر على الإحساس بأثر ضئيل متخلف من دفئها. لا
شيء سيسعدنى أكثر من أن ألتف على نفسى فى فراشى، أضع
رأسى على مخدتها، أنسى أوجاعى وآلامى، متجاهلاً المطاردة
التي لا بد أنها قد بدأت الآن بحثاً عني، ومثل الفتاة الصغيرة

فى القصة أهوى فى النسيان. كم بترف أحس جانبية النعومة،
الدفء، أريج هذا الصباح. بتهيدة أركع وأدفع جسدى تحت
الفراش. وجهى نحو الأسفل، منضغطاً بشدة بين الأرض
والشرائح الخشبية للسريـر، بحيث إننى عندما أحرك كـتفى
يرتفع السريـر، أحاول أن أشكل نفسى كى أبقى مختفياً يوماً
واحداً.

أنام نوماً خفيفاً وأصحو، منجرفاً من حلم لا شكل له إلى
آخر. عند منتصف النهار يصبح الجو ساخناً يتعذر فيه النوم.
أتمدد أطول مدة ممكنة، أتصيب عرقاً فى المأوى السرى
المغبر. ثم، وعلى الرغم من تأجيلي الأمر، فإن الزمن - قد
حان لوجوب إراحة نفسى. متألماً أدفع نفسى إلى الخارج
وأقرفص فوق مـبولة غرفة النوم. مرة أخرى الألم، التمزق.
أمسح نفسى بمنديل أبيض مسروق، أراه بعدئذ ملوثاً بالدم.
تنتشر رائحة قدرة فى الغرفة: حتى أنا، الذى كنت أعيش لعدة
أسابيع مع دلو القذارة فى الزاوية، أشعر بالاشمئزاز. أفتح
الباب وأسير حجلاً فى الممر. تطل الشرفة على صفوف من
أسقف، وخلفها فوق السور الجنوبى تمتد الصحراء، فى رقعة
منبسطة. لا يوجد أحد يمكن أن يقع عليه البصر غير امرأة فى
الجانب الآخر من الزقاق تكنس عتبة دارها. وخلفها طفل
يزحف على يدين وركبتين يدفع شيئاً ما فى التراب، لا أستطيع
أن أميز ما هو. عجزه الأملس الناعم يتكور نحو الأعلى فى

لهواء. عندما تستدير لمرأة بظهرها أخطو مبتعد عن الظل وأفرغ محتويات المبولة في كومة النفايات تحت. إنها لا تلاحظ شيئاً.

سبات قد بدأ الآن يستقر فوق البلدة، انتهت أعمال الصباح: متوقعين طوال مدة حرارة منتصف النهار، يبدأ لناس في العودة إلى باحاتهم المظلمة، أو إلى غرفهم لدخيلة الباردة. بليلة الماء في أخايد لشوارع تخمد وتتوقف. كل ما أتمكن من سماعه هو تكتكة مطرقة البيطري، سجع طيور لقمرية، وفي مكان ما بعيد جداً، صوت نحيب طفل.

متنهداً ألقى نفسي على الفرش في الشذا لعذب للزهور التي أتذكرها. كم يبدو الأمر مغريباً أن أشارك بقية البلدة نوم قيلولتها! في هذه الأيام، أيام لربيع، الساخنة هذه كأن الصيف فيها قد أقبل فعلاً- كم أجد سهلاً أن أتسلل إلى مزاجهم الذي يبعث على التراخي! كيف يمكنني أن تقبل المصيبة التي باغتت حياتي إلى هذا الحد بينما لعالم ما يزال يواصل الحركة- بهدوء عبر دوراته؟ لا يتطلب الأمر جهداً كي أصدق أنه عندما تبدأ الظلال تستطيل والهبة الأولى للريح تبدأ بتحريك أوراق لشجر، سأصحو وأثناء وأرتدى ملابس وأنزل لسلم وأجتاز الساحة إلى مكتبي، محيياً الأصدقاء والجيران الذين أمر بهم بهزة من رُسى، وإنني سأمضي هناك ساعة أو ساعتين، أرتب مكتبي،

أفقله، وأن كل شيء سيمضى متواصلاً كما كان على الدوام. علىّ في الواقع أن أهرز رأسي وأن أجعل عينيّ تطرفان كي أدرك أنني مستلق هكذا في هذا المكان رجل مطارّد، وأن الجنود وضمن سياقٍ واجبهم سيأتون إلى هنا ويفودونني خارجاً ويسجنونني ثانية بعيداً عن مشهد السماء وعن الكائنات البشرية الأخرى. لماذا؟ أئن للوسادة: لماذا أنا؟ لم يكن هناك أبداً شخص في العالم مرتبكاً إلى حد كبير وبريئاً مثلي أنا. طفل حقيقى! ومع ذلك إن استطاعوا فسيسجنونني بعيداً كي أبلى، أخضع جسدى لاهتماماتهم الدنيئة، ثم يوماً بعد يوم بدون تحذير يجلبونني خارجاً ويدفعونني بسرعة عبر إحدى المحاكمات المغلقة التى يجرونها بموجب سلطات الطوارئ، ويقوم العميد لصغير المتصلب بترؤسها ويقرأ تابعه الاتهامات واثنان من الضباط أقل رتبة كمساعدين من أجل إضافة جو من الشرعية على الإجراءات فى قاعة محكمة خالية بطريقة ما، وبعدئذ، على الأخص، إن كانوا قد عانوا من أمور معاكسة، على الأخص إن كان البرابرة قد أهانوهم، سيجدونى مذنباً بتهمة لخيانة- هل أحتاج إلى الشك فى ذلك؟ من قاعة المحكمة إلى الجلاد سيسحطونى رافساً نائحاً، متحيراً مثل اليوم الذى ولدت فيه، متشبتاً حتى النهاية بالإيمان من أن لا مكروه يحصل لمن لا نذب له. إنك تعيش فى حلم! أقول لنفسى: انطق بالكلمات عالياً، أحقق فيها، أحاول أن أفهم معانيها: "يجب أن تصحوا!

عمداً أذكّر نفسي بـصور لأبرياء قد عرفتهم: الولد لمتمدد في ظل مصباح ويداه تضغطان على ملتقى فخذه، البرابرة السجناء، يقرفصون في التراب يظللون أعينهم لقاء لشمس، ينتظرون أى شيء سيأتى لاحقاً. لماذا يكون الأمر غير مفتح من أن لبهيموث(*) الذى داسهم بأقدامه سيدوسنى أيضاً؟ أعتقد بحق أننى لا أخشى الموت. لشيء الذى أنكمش منه. كما أعتقد، هو العار من الموت غيباً ومشوشاً كما أنا.

هناك هبات من أصوات لرجال ونساء، تأتي من أسفل حيث لسااحة. بينما أتجمع فى مخبئي أسمع صوت أقدام على السلم. إنها تتراجع نحو لطرف لأقصى من الشرفة، ثم تعود ببطء متوقفة عند كل باب. الجدران لتي تفصل المهاجع لصغيرة فى الطابق العلوى حيث ينام لخدم هى مجرد شرائح خشبية مغطاة بورق جدران: أستطيع أن أسمع بوضوح صوت كل باب يفتح من يطاربنى بالتتابع. أضغط بنفسى تجاه الجدار. أمل ألا يشم رائحتى.

الخطوات تدور حول الزاوية وتبلغ الممر. يفتح بابى، يبنى مفتوحاً عدة ثوان، يغلق ثانية. لقد اجتزت إذن امتحاناً واحداً.

هناك خطوات أسرع وأخف: أحدهم يركض فى الممر

(*) لبهيموث: فرس لبحر و شخص أو حيوان ضخيم قوى.

ويدخل الغرفة. رأسى يستدير نحو الواجهة المخالفة، لا أقدر حتى على رؤية قدميها، ولكننى أعرف أنها فتاة. هذه هي اللحظة التى يتحتم على فيها الخروج من مخبئى، أتوسل إليها أن تخفينى لحين حلول الظلام وباستطاعتى أن أجد سبيلى للخروج من البلدة متوجها نحو الجنوب إلى ضفة البحيرة. ولكن كيف أفعل ذلك؟ فى ذلك الوقت الذى يكون فيه السرير متوقفاً عن الانتفاخ وأكون أنا قد خرجت من مكانى، فإنها ستكون قد هربت وهي تصيح فى طلب المساعدة. ومن ذا الذى يقول إنها ستقدم ملاذاً لواحد من الرجال الكثيرين الذين أمضوا وقتاً فى هذه الغرفة، واحد من رجال عابرين كثيرين، ترتزق منهم، رجل فى موقف مخز، هارب من العدالة؟ وهل أنها ستقدر حتى التعرف على وأنا فى هذه الحالة؟ قدماها تخفقان فى أرجاء الغرفة، متوقفة هنا، متوقفة هناك. لا أستطيع أن أضع مخططاً لحركتهما. أتمدد ساكناً، متنفساً بنعومة، عرق يتساقط منى. فجأة تكون قد غادرت: يقطع السلم، يحل الصمت.

سكون مؤقت يسقط على أيضاً، نوبة من بعد نظر، أرى فى خلالها كم هو سخيّف هذا الأمر، كل هذا الركض والاختباء، ما أسخفه من أمر أن أكون مستلقياً تحت سرير فى ظهيرة حارة، منتظراً فرصة للهرب بعيداً إلى اجمات القصب، وأعيش هناك على بيوض الطيور وسماك أصيده بيديّ، نائماً فى حفرة فى

الأرض، متحملاً زمني لحالي حتى تتطحن هذه المرحلة من لتاريخ منصرمة وتعود المناطق الحدودية إلى نعاسها الأول. الحقيقة هي أنني لم أعد أنا، لقد أصبت بدء الخوف، أدرك أنني منذ تلك اللحظة في زنزانتي لما رأيت أصابع لحارس تشد على كتف لولد الصغير لتذكيره بالألا يتحدث معي، وعرفت أنه مهما كان الأمر لذي قد حدث في ذلك ليوم، فإن علي أن أتحمّل اللوم بسببه. سرت إلى داخل لزنزانة رجلا سليم لعقل، واثقاً من عدلة قضيتي، مهما كنت غير كفاء، فإنني أوصل الحكم على نفسي لوصف ماذا يجب أن تكون تلك لقضية، ولكن بعد شهرين بين الصر صير دون شيء تقع عليه عيناى غير أربعة جدران وبقعة سخام مبهمة، ولا شيء أشمه غير نتانة جسدى، ولا أحد أتكلم معه غير شبح في حلم، تبدو شفقاته مختومتان، أنا قل ثقة بنفسى إلى حد كبير. التوق إلى أن ألمس من قبل جسد إنسان آخر يستولى على أحيانا بتلك القوة التى تدفعنى إلى لأنين. كم تطلعت توقاً إلى الاتصال لوحيد لفصير لأمد لذي كان كل ما قدرت لحصول عليه مع الولد، صباحاً، مساء! أن أستلقى بين ذراعى امرأة فى فراش جيد، أن يتوفر لادى طعام جيد أتناوله، أن أسير تحت الشمس - كم تبدو هذه الأمور أكثر أهمية من لحق فى اتخاذ قرار دون نصيحة من الشرطة الذين يجب أن يكونوا لى أصدقاء والذين هم أعدئى! كيف يمكننى أن أكون على صواب عندما لا أجد نفساً

فى البلدة تؤيد فرارى مع الفتاة البربرية أو من لا يحس بالمرارة تجاهى إن قتل شباب من هنا من قبل البربرى المحمى من قبلى؟ وما هدف المعاناة على أيدى الرجال المرتدين الأزرق إن لم أكن صلباً بمتانة الحديد فى يقينى؟ لا يهم أن أخبرت المحققين بالحقيقة أو سريت كل كلمة تفوهت بها عند زيارتى للبرابرة، لا يهم أيضاً أن مالوا إلى تصديقى، إنهم سيواصلون لضغط بأعمالهم البشعة، لأنه بند من إيمان بالنسبة إليهم من أن لحقيقة الأخيرة لا تقال إلا فى أقصى درجات الألم. أنا أبعد مهرولا من الألم والموت. لا أملك خطة للهرب. إن اختفيت فى أدغال القصب فسأموت جوعاً فى غضون أسبوع، أو أتلاشى إلى لا شيء. أنا ببساطة أبحث عن راحة البال، إن كان لابد من قول الحقيقة، أفرّ فقط إلى الفراش الناعم والأيدى المحبة الوحيدة التى بقيت لى.

خطوات أقدم ثانية. أميز خطوات الفتاة السريعة، إنما فى هذه المرة ليست بمفردها ولكن مع رجل. يدخلان الغرفة. أستدل من صوته أنه ليس إلا فتى. يقول بحدة، يجب عليك أن لا تسمحى لهم بمعاملتك بذلك الشكل! أنت لست عبدة لهم.

تجيب، أنت لا تفهم، على أى حال، لا أريد التحدث عن الأمر الآن. يسود الصمت برهة ثم مزيد من أصوات حميمية. يشيع الدم فى وجهى. إنه أمر غير محتمل أن أضطر إلى

لبقاء بسبب هذ . وعلى الرغم من ذلك مثل لديوٲ فى
مسرحية هزلية ساخرة أكتف أنفاسى؁ غاطسا كثر وأكثر فى
الخرى.

أحدهما يجلس على لسرير. ترمى لأحذية على الأرض؁
تخشش أثواب؁ جسدان يمددان أنفسهما على مسافة انج واحد
فوقى. شري؁ لسرير تتحنى؁ ضاغطة على ظهرى. أغلق
اذنى؁ خجلا من سماع لكلمات لتى يقولها أحدهما للآخر؁
ولكننى لا أقدر ن أمنع نفسى من سماع الارتعاشات و لتأوهات
اللى أتذكرها جيداً عن لفتاة عندما تستحوذ لبهجة عليها؁ الفتاة
لتى اعتلت أن أكن محبتي لها.

ضغط الشري؁ يشتد على ن أبسط نفسى أقصى ما أستطيع؁
يبدأ لسرير بالطقطقة. متعرقاً؁ متوهج الوجه أشمئز لإحساسى
بمدى استتارتى على الرغم من نفسى؁ أتأوه فى لحفيفة:
التهيدة الطويلة المنخفضة تلتوى فى حنجرتى وتختلط دون أن
ينتبه إليها أحد مع أصوات أنفاسهما اللاهثة.

ثم ينتهى الأمر. يتتهدان ويخمدن؁ تتوقف الارتعاشات
والحركات الخفيفة؁ يتمددان فى راحة جنباً إلى جنب مستغرقين
فى النوم؁ بينما أنتظر أنا؁ تعيساً؁ متوتراً؁ متيقظاً إلى أبعد حد؁
فرصتى للهرب. إنها الساعة التى ينام فيها الجميع نوماً خفيفاً
حتى الدجاج؁ الساعة التى يوجد فيها إمبراطور وحد؁ الشمس.

دفعاً بقدمي تجاه الجدار، أندفع تدريجياً حتى أتمكن من الجلوس بحذر شديد. الألم في ظهري، ألم رجل مسن، يعلن عن نفسه مرة أخرى. أهمس، أنا آسف: إنهما نائمان بعمق، كطفلين، ولد وبنت، عاريان، يد بيد، حبات عرق عليهما، وجهاهما مرتاحان وغافلان. مدّ الخزي يكتسحني بقوة مضاعفة. جمالها لا يوقظ فيّ أيّ رغبة، لكن الأمر بدلاً من ذلك، يبدو أكثر فحشاً من قبل فيما لو أن هذا الجسد العجوز الثقيل الرخو ذا الرائحة القذرة (كيف تمكنوا من عدم الانتباه للرائحة؟) كان ينبغي له في أي وقت مضى احتضانها بين ذراعيه. ما الذي كنت أفعله طول هذا الوقت، ضاغطاً بنفسى على أطفال مثل زهور ذات تويجات ناعمة- ليس عليها فقط، على الآخر أيضاً؟ كان على البقاء بين البدناء والمتفسخين حيث أنتمى: نساء سمينات ذوات آباط لاذعة وأمزجة سيئة، مومسات بمؤخرات كبيرة ورخوة. أخرج على أطراف أصابع قدمي، أحجل نازلاً السلم في وهج الشمس لذي يكاد يعمى العين.

باب الجناح العلوى للمطبخ مفتوح.. امرأة عجوز، بلا أسنان، منحنية، تأكل وهي واقفة من إناء معدني قديم. تتلاقى أعيننا، تتوقف عن الأكل، الملعقة في منتصف الطريق، فمها مفتوح. نتعرف على.

أرفع يدي وأبتسم- أندھش للسرعة التي تعود فيها

لابتسامة. تتحرك الملعقة، تتغلق لشفتان عليها، تروغ نظرتها، أجتازها.

البوابة الشمالية مغلقة ومزّجة. أصد لسلم إلى برج المراقبة فوق زوية لسور وأتطلع إلى الخارج بتوق شديد للمنظر الطبيعي الحبيب بالنسبة لى: حزم الخضرة الممتد على طول لنهر، قد سود الآن فى مساحات صغيرة، لأخضر الأفتح لونا للمستنفعات حيث لقصب الجديد يبد فى لظهور، وسط لبحيرة لذى يخطف البصر.

لابد ن هناك خطأ ما. كم قد مضى على حذى عن لعالم، شهر ن أم عشرة أعوم؟ القمح الطالع حديثاً فى لفدين تحت السور كان ينبغى أن يكون الآن قوياً بارتفاع ثمانية عشر إنجاً. ولكنه ليس كذلك. ماعدا عند قصى التخم لغربى للمنطقة المروية حيث لنباتات الجديدة الصفراء المعتلة والتى قد توقف نموها. هناك الكثير من المناطق الجرداء بالقرب من لبحيرة وصف من سيعان نباتات رمادية بجانب سور الأروء.

أمام عينى الحقول لمهملة، لساحة التى تسفها الشمس. الشوارع الخالية تتحول إلى هيئة جديدة منحوسة. لبلدة تهجر - ماذا هناك من شيء آخر لأفترضه؟- والأصوات التى سمعتها قبل ليلتين، كانت حتماً أصوات رحيل لا وصول! يترنح قلبى (خوفاً؟ أم امتناناً؟) للفكرة. ومع ذلك يجب أن كون مخطئاً.

عندما أحـدق باهـتمام أكبر فى الساحة، أستطيع رؤية ولدين يلعبان بهـدوء بكرات زجاجية صغيرة تحت أشجار التوت، ومما رأيته فى الفندق أيضاً، الحياة تتواصل كالمعتاد.

فى البرج الجنوبيـ الغربى يجلس حارس على مقعد مرتفع بلا مسند محدقاً ببلادة فى الصحراء. لا ينتبه إلى ولا يجفل إلا بعد أن أصبح على مسافة خطوة منه.

يقول بصوت منخفض، انزل، غير مسموح لك بالصعود هنا. لم أـره هنا مطلقاً. أدرك أننى منذ غادرت زنزانتى، لم أر واحداً من الجنود الذين كانوا يؤلفون الحامية القديمة. لماذا يوجد غرباء فحسب فى هذه الأرجاء؟

أقول، ألا تعرفنى؟
انزل.

سأفعل، ولكن قبل ذلك لديّ سؤال مهم جداً أسألك إياه. كما ترى، لا أحد غيرك كى أسأل- كل واحد آخر يبدو إما نائماً وإما بعيداً. الذى أريد أن أسأله هو: من أنت؟ أين جميع من كنت أعرفهم؟ ما الذى حدث بعيداً هناك فى الحقول؟ يبدو كأن اجتياحاً قد حصل. ولكن لماذا يكون هناك اجتياح؟ تضيق عيناه بينما استمر فى الثرثرة. أنا آسف لتوجيه مثل هذه الأسئلة الحمقاء، ولكننى كنت مصاباً بالحمى، وكنت التزمت السرير - تأتى العبارة الغريبة دون أن أسأل- واليوم هو

اليوم الأول الذى سمح لى فيه بالنهوض. ذلك هو...

يقول، يجب أن تحذر من شمس منتصف النهار، أبتي .
أذنأه تبرزان من تحت قبعة واسعة تماماً عليه. ستكون أفضل
حالا إن ارتحت فى هذا الوقت من النهار . أجل... هل تسمح
أن أتناول بعض الماء؟ يناولنى دورقه وشرب الماء الفاتر،
محاولاً أن لا يظهر مدى ضراوة عطشى. ولكن أخبرنى، ما
الذى قد حدث؟

البرابرة. لقد اقتطعوا جزءاً من السد هناك فى الجانب
لآخر وأغرقوا الحقول. لم يرههم أحد. جاءوا فى الليل. فى
ليوم التالى بدا الأمر مثل بحيرة ثانية. كان قد حشا غليونته،
يقدمه لى الآن. رفضه مجاملا (سأبدأ فى السعال آخر الأمر،
وذلك أمر سيء بالنسبة لى). أجل، لفلاحون غير سعداء
بالمرة يقولون إن المحصول قد دمر وإن لوقت أصبح متأخر
جداً للزراع ثانية.

ذلك أمر سيء. إنه يعنى أن شتاء قاسياً أمامنا. وأن علينا أن
نشد علينا أحزممتنا بقوة شديدة.

نعم، إننى لا أحسدكم أيها الناس. بإمكانهم أن يكرروا
الكرة، أليس هم بقادرين، لبرابرة. بإمكانهم إغراق هذه الحقول
فى أى وقت يختارونه.

ندخل فى نقاش حول البرابرة وغدرهم. إنهم لا يقاتلون

مواجهة، يقول ثم يضيف: طريقتهم هي أن يزحفوا خلسة صاعدين من خلفك ويغرزوا سكيناً في ظهرك. لماذا لا يمكنهم تركنا وحدنا؟ لهم مقاطعاتهم الخاصة أليس كذلك؟ أدير المناقشة نحو وجهة أخرى إلى الأيام الخوالي عندما كان من المعتاد أن يكون كل شيء هادئاً على الحدود. يناديني، أبتى، والتي هي طريقته الفلاحية لإظهار الاحترام، يصغى إلى كما يصغى أحدهم إلى رجل مسن مختل عقلياً من العامة، أى شيء يكون، ذلك أفضل، كما اعتقد من التحديق خارجاً في فراغ كل النهار.

أقول، أخبرني، سمعت قبل ليلتين أصوات خيالة وتوقعت أن الحملة الكبيرة قد عادت. يضحك لا، كانوا أولئك مجرد بضعة رجال أرسلوهم إلى هنا. أرسلوهم في إحدى تلك العربات الكبيرة. حتماً كان ذلك ما سمعته. لقد أصيبوا بالمرض من جراء الماء - الماء سيئ هناك، هذا ما أسمع - ولهذا فقد أعادوهم إلى هنا.

هكذا إذن! لم أستطع أن أفهم ماذا كان الأمر. ولكن متى تتوقع عودة القوة الرئيسية؟

سريعاً، لابد أن يكون ذلك سريعاً. إنك لا تقدر العيش على فاكهة الأرض الموجودة هنا، هل تقدر؟ لم أر من قبل مثل هذا البلد القاحل.

انزل درجات السلم. تركنتي محاورتنا حاساً بكوني موقراً

تقريباً. من الغريب أن أحداً لم ينبهه إلى الاحتراس من رجل سمين عجوز فى ملابس رثة! أو ربما وُضع هناك منذ الليلة الأخيرة دون أن يجد أحداً يكلمه؟ من كان يتصور أننى قادر على الكذب بهذا الشكل اللطيف! الوقت منتصف العصر: ظلى ينزلق بجوارى مثل بركة حبر. أبدو كأنى المخلوق الوحيد الذى يتحرك ما بين الأسوار الأربعة. أنا متباه بنفسى إلى الحد الذى أشعر فيه بالرغبة فى الغناء. حتى ظهرى المتألم لم يعد يهمنى.

أفتح البوابة الجانبية الصغيرة وأجتازها. صديفى فى برج المراقبة ينظر نحوى. ألوح له ويلوح راداً. ينادى، ستكون فى حاجة إلى قبعة! أربت على رأسى العارى، أهز كتفى، أبتسم. الشمس تضرب أشعتها إلى الأسفل.

قمح الريع قد خرب بالتأكيد. طين دافئ ضارب إلى الصفرة ينسحق بين أصابع قدمى. لم تزل بقع من ماء الأمطار عالقة فى بعض الأماكن. الكثير من المزروعات الحديثة النمو قد استنزفت واقتلعت. وهى بأجمعها ذات أوراق مصفرة، المنطقة الأقرب إلى البحيرة هى الأكثر تضرراً. لم يترك شيء ما واقفاً، إن المزارعين، بالتأكيد، قد بدأوا الآن فى جمع النباتات الميتة من أجل حرقها. بزوغ عدة أنجاس فى ارتفاع، قد أحدث كل الاختلاف. لربما إنن يكون بالإمكان إنقاذ ربع المزروعات.

أعمال الحفر الهندسية نفسها، الجدار الطيني المنخفض الذى يمتد إلى نحو ميلين يُخضع مياه البحيرة للمراقبة عند ارتفاعها إلى مستوى منسوبها الصيفى، قد أعيد إصلاحه، ولكن النظام المعقد للقنوات والبوابات التى توزع المياه حول الحقول، قد أزيل بأكمله تقريباً. السد والناعور القريب من ضفة البحيرة لم يتضررا، على الرغم من عدم وجود أثر ما للحصان الذى يدير الدولاب. أستطيع أن أقدر أن أسابع من عمل شاق بانتظار المزارعين. وفى لحظة، يمكن أن تذهب جهودهم سدى من قبل عدد ضئيل من رجال مسلحين بمعاول! كيف يمكننا أن ننتصر فى حرب كهذه؟ ما فائدة كتب مدرسية عن عمليات عسكرية، اندفاعات وحملات تأديبية فى قلب أرض العدو، بينما يمكن أن ننزف حتى الموت فى موطننا؟

أأخذ الطريق القديم الذى ينحرف خلف السور الغربى قبل أن يتلاشى إلى درب لا يؤدي إلى مكان غير الخرائب المملوءة بالرمال. هل ما زال يسمح للأطفال باللعب هناك، أتساءل بعجب، أم أن آباءهم يبقونهم فى البيوت عن طريق قصص عن البرابرة الذين يتربصون فى التجاويف؟ ألقى نظرة سريعة على السور، ولكن يبدو أن صديقي فى البرج قد استغرق فى النوم.

كافة الحفريات التى قمنا بها فى العام الماضى قد أهملت كفعل تراكمات الرمال. أعمدة الزوايا هى وحدها التى تبرز هنا

وهناك فى المكان القفر، حيث على لمرء أن يصدق أن أناساً عاشوا هنا فى زمن مضى. أهىء حفرة لنفسى وأجلس كى أرتاح. أشك فى مجيئ أحد ما للتفتيش عنى هنا. بإمكانى الاتكاء على هذا العمود القديم بزخارفه لمحفورة لدافين وأمواج كى تقرضنى الشمس وتجفنى الرياح وأتجمد فى نهاية المطاف بفعل الصقيع، ولن يعثر على لا فى بعض الأزمنة البعيدة للسلام، عندما يعود أطفال الواحات إلى ملعبهم ويلقون الهيكل العظمى، المكشوف بفعل الريح، لساكن صحراء مهجور مكسو بأسمال بالية لا يمكن التعرف عليها.

أستيقظ مثلاً. الشمس تستقر فى الأفق الغربى كبيرة وحمراء. الريح تتصاعد: رمال مندفة فى الهواء بدأت تواء فى إقامة سد إلى جنبى. وعيى يتركز على عطشى بالدرجة الأولى. الخطئة التى لهوت بها، فى تمضية الليل هنا بين الأشباح، أرتجف برداً، منتظراً أن تتجسد ثانية للعيان من الظلمة، الجدران وقمم الأشجار المألوفة، هى غير محتملة. لا شيء لى هناك خارج الأسوار غير الموت جوعاً. اركض من حفرة إلى حفرة مثل فأرة وأخسر حتى مظهر البراءة. لماذا أحول عمل أعدائى لمصلحتهم؟ إن أرادوا سفك دمى، دعهم على الأقل يتحملون وزر ذلك. الحزن القاتل لليوم الفائت قد فقد قوته. ربما لم تكن هذه المغامرة بلا طائل لو تمكنت من استعادة روح التمرد، مهما كان باهتاً.

* * *

أقعقُ بوابة ساحة الثكنات، ألا تعرفون من هنا؟ لقد نلت
اجازتى، والآن دعونى أدخل!

يأتى أحدهم راكضاً صوبى: ينظر أحدهنا إلى الآخر فى
لعنمة عبر القضبان: إنه الرجل الذى عيّن حارساً لى.
اصمت ، يهمس لى من بين أسنانه ويسحب الأقفال، خلفه
أصوات تدمدم وأناس يقتربون.

قابضاً على يدى يأخذنى راكضاً عبر الساحة. من هو؟
أحدهم ينادى. الإجابة على طرف لساني كى أرد، أن أخرج
المفتاح وألوح به، عندما يخطر على بالى أن هذا العمل قد يعد
طائشاً. وهكذا أنتظر أمام باب زنرانتى القديمة حتى يفتحه
حارسى، يدفعنى إلى الداخل، ويغلقه على كلينا. يصلنى صوته
عبر الظلمة شديد الغضب: اسمع، إن تحدثت لأى واحد عن
خروجك سأجعل من حياتك شقاء! هل تفهم! سأجعلك تدفع
الثلث! لا تقل شيئاً لأى واحد يسألك عما حدث هذا المساء، قل
إننى قد أخذتك للتريض، للسير، لا أكثر. هل تفهمنى؟

أفكّ أصابعه عن ذراعى وأنزلق بعيداً عنه. أمدم، !هل ترى
كم أن الأمر سيكون سهلاً علىّ للهرب والبحث عن مخبأ عند
البرابرة، لماذا فى اعتقادك قد عدت؟ إنك مجرد جندى عادى،
يمكنك فقط إطاعة الأوامر. مع ذلك: فكر فى المسألة. يقبض
على رسغى ومرة ثانية أحل أصابعه. فكر فى السبب الذى

دفعنى للعودة وماذ كان الأمر سيعنى إن لم كن قد فعلت ذلك. ليس بإمكانك أن تتوقع تعاطفاً من قبل الرجال المرتدين الأزرق، أنا واثق من أنك تعرف ذلك. فكر فيما سيحدث إن خرجت ثانية. مُسك أنا لأن بقبضته. وليكن لا تقلق، لن أتحدث: رتب أى قصة تريدُها وسأزِيدُك. عُرِف كيف يبدو الأمر عندما يكون المرء خائفاً! يحل بيننا صمت متوتر طويل. أقول: على تعرف أكثر شيء أرغب فيه. رُيد شيئاً آكله ، شيئاً أشربه. أحس بجوع شديد. لم أتناول شيئاً طول النهار.

وهكذا يعود كل شيء إلى ما كان عليه. ويستمر هذا لحجز للامعقول. تُمدد على ظهري أراقب بقعة الضوء من فوقى تنمو أقوى ثم تضعف يوماً بعد يوم. أصغى إلى الأصوات لبعيدة لمسحاة عمال البناء، ومطرقة لنجار وهى تصلنى عبر الجدار. آكل وأشرب ومثل أى فرد آخر، أنتظر.

* * *

هناك، أولاً صوت بنادق من بعيد خافت كصوت بندقية أطفال. ثم يأتى من مسافة أقرب من لمتاريس نفسها، وابل من إطلاقات مجيبة. هناك عبر للساحة أصوات خطوات جماعية قوية. أحدهم يصيح، "البرابرة ولكننى أظن أنه مخطئ". لجرس الكبير يبدأ بالجلجلة متعالياً على لضجيج بأكمله. جاثماً ورأسى على شق الباب، أحاول أن أفهم ما يجرى.

يستعظم الصوت القادم من الساحة من الهرج والمرج إلى صخب ثابت لا يمكن تمييز صوت منفرد فيه. لا بد أن المدينة بأكملها تتدافع خارجاً للترحيب، ألوفاً من النفوس المنتشية سروراً. إطلاقات الفرسان تتواصل مفرقة. ثم تتغير درجة الصخب مرتفعة في انفعال. وأخيراً تعلو عليها النغمة النحاسية للأبواق.

الإغراء كبير جداً، ما الذى لدى لأفقده؟ أفتح الباب. فى وهج يعمى البصر يتحتم على أن أحول عيني وأظللهم. أعبر الساحة، اجتاز البوابة وأنضم إلى مؤخرة الحشد. تستمر الإطلاقات وصخب التهليل. المرأة العجوز ذات الملابس السوداء التى تقف إلى جوارى تأخذ بيدي لتوازن نفسها وهى تقف على أطراف أصابع قدميها. هل بإمكانك الرؤية؟ تسأل. أجيب.. نعم، أستطيع أن أرى رجالاً على ظهور خيل، ولكنها غير مصغية.

أستطيع أن أرى صفّاً طويلاً من رجال يمتطون خيولاً وهم يجتازون، بين رايات مزخرفة، البوابة ويتوجهون إلى وسط الساحة حيث ينزلون من على خيولهم. هناك غيمة من غبار فوق الساحة بأجمعها، ولكننى أراهم يبتسمون ويضحكون: أحدهم وهو ممتط ويده مرفوعة بعلامة النصر، آخر يلوح بإكليل من زهور. يتقدمون ببطء، لأن الحشد يزدحم من

حولهم، يحاولون لمسهم يذفون الزهور، يصفقون وأيديهم فوق رؤوسهم من الفرخ، يدورون فى حلقات وحلقات تعبيراً عن نشوتهم الخاصة. يندفع أطفال مارين بى، يتدفعون بين أرجل الكبار كى يكونوا أكثر قرباً من أبطالهم. وابل من إطلاقات تأتي إثر وابل من المتاريس التى تشكل خطأ مع لجموع المهللة.

جزء من الخيالة لا ينزل عن ظهر الخيل، يترأسهم عريف شاب عابس الوجه يحمل الراية الخضراء الذهبية للكتيبة، يمرون من خلال حشد الأجساد المزدحمة حتى النهاية القصوى للساحة، ثم يشرعون بالدوران حول الساحة، يتدفق الحشد ببطء فى أثرهم. تسرى الكلمة مثل نار من واحد إلى من فى جواره: البرابرة !

جواد حامل الراية يقاد من قبل رجل يلوح بعصا ثقيلة ليفسح الطريق أمامه. يأتي خلفه فارس آخر يجر حبلاً، يأتي فى نهاية الحبل صف من رجال مربوطين رقبة إلى رقبة، برابرة، عراة كليا، رافعين أيديهم عاليا نحو وجوههم فى وضع غريب وكأنهم جميعا يعانون من ألم الأسنان. للحظة، تتتابنى الحيرة لهيئتهم، للرغبة الحنرة التى يقتفون لها أثر قائدهم، حتى ألمح ومضة معدن، وأفهم فى الحال. أنشطة بسيطة من سلك تمر عبر لحم يد كل رجل منهم وعبر فتحتين مثقوبتين فى خديه.

إنه يجعلهم بوداعة الحملان، أتذكر أن جندياً كان قد أخبرني بأنه رأى مرة هذا الفعل: إنهم لا يفكرون في شيء غير البقاء ساكنين. ينقبض قلبي. أأدرك الآن أنه ما كان على مغادرة الزترانة.

أضطر إلى أن أدير ظهري بمهارة كي لا أشاهد من قبل اثنين من رجال الحرس الممتطين فرسيهما، يحافظان على نظام المسيرة في الخلف، النقيب حاسر الرأس الذي انتصر الأول هو هذا، وإلي جواره عميد الشرطة جول الذي يبدو أنحف قامته واغمرق لوتاً بعد أشهره التي أمضاها في الحملة.

الحلقة تكاملت. كل واحد لديه فرصة لرؤية الأسرى البائسين الاثنى عشر، كي يؤكدوا لأولادهم أن البرابرة موجودون حقاً. يتدفق الحشد الآن، أنا على مضض في أثره، نحو البوابة الكبيرة، حيث يسد الطريق نصف دائرة من الجنود، حتى لا يتمكن الحشد من الترحزح بعد الضغط عليهم من الأمام والخلف.

أسأل الرجل المجاور لي، ما الذي يجري؟

يقول، لا أدري، ولكن ساعدني في رفعه. أساعده في رفع الطفل الذي يحمله على ذراعه إلى كتفيه. يسأل الطفل، هل بإمكانك الرؤية؟

نعم.

ماذا يفعلون؟

إنهم يرغبون البرابرة على الركوع. ما الذى سيفعلونه بهم؟
لا أعرف. دعنا ننتظر ونر.

ببطء، بقوة هائلة، بكل قوتى، أستدير وأبدأ فى دفع جسدى
خارج الحشد. أقول، اعذرني... اعذرني...، الحر - سيغمى
عليّ للمرة الأولى أرى رؤوساً تستدير وأصابع تشير.

يتحتم عليّ العودة إلى زيزانتى. وهى كحركة لن يكون لها
أى تأثير، وقد لا تلاحظ أيضاً. وعلى الرغم من ذلك، ومن أجل
نفسى، كإيماءة لنفسى فحسب، يتحتم على أن أعود إلى البرد
والظلمة وأغلق الباب وأثبت المفتاح وأصم أذنى عن أصوات
وطنية متحرقة للدماء وأصم شفتى وأن لا أتكلم قط ثانية.

من يدري، ربما أقترف أنا ظملاً تجاه رفاقى من أهل البلدة.
لربما أن صانع الأحذية يدق فى هذه الدقيقة الحذاء الذى بيده
ويضعه فى القالب، يدندن لنفسه ليتخلص من الأصوات العالية،
وربما أن هناك ربات بيوت يفشن البازلاء فى مطابخهن،
يروين قصصاً من أجل إلهاء أطفالهن الأرقاء، ربما أن هناك
مزارعين ما يزالون يواصلون إصلاح مصارف مياههم. إن
وجد رفاق مثل هؤلاء، كم هو أمر مؤسف أنى لا أعرفهم!
بالنسبة لى، فى هذه اللحظة التى أبتعد فيها بخطوات واسعة عن
الحشد، ما يهمنى أكثر من أى شيء سواه هو أن لا أدنس بهذا
العمل الشنيع الذى سيُعرف، ولا أسمم نفسى بكراهية عاجز

تجاه مرتكبيها. لأتحدث عن الأمر بأبسط ما يمكن التكلم عنه، إن جاء قط يوم وتحدثوا عنه، إن كان هناك قط أحد ما في مرحلة من مراحل لمستقبل البعيد اهتم أن يعرف طريفتنا في العيش، إنه في هذا المخفر الأمامي الأبعد من إمبراطورية النور، وُجِدَ رجل واحد لم يكن من أعماق قلبه بربرياً.

أجتاز بوابة التكنات إلى ساحة سجنى. عند حوض الماء في منتصف الساحة، ألنقط دلو فارغاً وأملؤه. الماء يتناثر من أطراف الدلو وأنا أحمله مرفوعاً أمامي، وأقترب من مؤخرة الحشد ثانية. معذرة، أقول وأدفع تشتمنى الناس، وتفسح لي الطريق، يميل الدلو ويطرطش الماء، أجرى إلى الأمام حتى أبدو فجاً جلياً في مقدمة الصف الأمامي للحشد خلف ظهر الجنود الذين يمسكون بعوارض بين الواحد منهم والآخر، كي يحافظوا على إخلاء الجزء الوسط من الساحة لما سيكون عبرة للمشاهدين.

أربعة من السجناء يركعون على الأرض. الثمانية الآخرون ما يزالون موقوفين، يجلسون القرفصاء في ظل جدار، يرقبون وأيديهم على خدودهم.

ينحنى السجناء الراكعون جنباً إلى جنب فوق عمود ثقيل طويل. يمتد حبل من عقدة السلك عبر فم الرجل الأول. ثم من تحت العمود، وأعلى إلى عقدة الرجل الثانى، ومن تحت

العمود، أعلى إلى العقدة الثالثة، من تحت العمود، عبر العقدة الرابعة. بينما أرقب جندياً، ينتزع الحبل ببطء ويشده قوياً وينحني السجناء أكثر وأكثر حتى يركعوا أخيراً ووجوههم تلامس العمود. أحدهم يلوي كتفيه متألماً متأوهاً، الآخرون ساكتون، تتركز أفكارهم تماماً على التحرك بنعومة مع الحبل، لئلا يمنحوا الحبل فرصة لتمزيق أجسادهم.

من يقود الجند بإشارات طفيفة من يده هو العميد جول. وعلى الرغم من أنني لست الشخص الوحيد في حشد يضم الآلاف، وعلى الرغم من كون عينيّه مظللتين كما في السابق، أحقق أنا فيه بصلاية بوجه يشرق بالتساؤلات لأنني أعرف أنه يراني في الحال.

اسمع من خلفي بوضوح كلمة القاضي. أتراني أتخيل الأمر أم أن من بجواري بدأوا يبتعدون عني؟

يتقدم العميد إلى الأمام. وبالتتابع ينحني عند كل سجين يفرك حفنة من تراب على ظهره العاري ويكتب بعصا من فحم نباتي كلمة. أقرأ الكلمات بالمقلوب: عدو... عدو... عدو... عدو. يعود إلى الوراء ويثني نراعيه. ومن مسافة لا تزيد عن عشرين خطوة يتأمل أحدها الآخر.

يبدأ بعدئذ الضرب. يستخدم الجنود عصياً من القصب الأخضر المتين، ينزلونها في لطمات ثقيلة، أشبه بأصوات

صادرة عن اللوح الخشبي الذي تغسل عليه الملابس، مسببة
آثاراً حمراء على ظهور السجناء وأردافهم. يحذر شديد، يمد
السجناء سيقانهم حتى يستلقون تماماً على بطونهم، كلهم ما عدا
السجين الذي يتأوه والذي يلهث الآن بشدة ثر كل ضربة.

الفحم النباتي الأسود والتراب الأصفر يبدآن بالسيلان مع
العرق والدم. اللعبة، كما أفهم، هي ضربهم حتى تتآكل
ظهورهم تماماً.

أرقب وجه فتاة صغيرة تقف في الصف الأول من الحشد
قابضة على ملابس والدتها. عيناها مدورتان، إيهامها في فمها:
ساكنة، خائفة، فضولية، تتشرب مشهد رجال كبار عراة
يضربون أمامها. على كل وجه من حولى، حتى أولئك
المبتسمون، أرى التعبير نفسه: ليس حقداً، ليس رغبة لإراقة
دم، بل فضول متوتر جداً إلى الحد الذي تستنزف فيه أجسادهم،
وتبقى أعينهم نابضة بالحياة، أعضاء لشهوة جديدة وضاربة.

علامات الإنهاك تبدو على الجنود الذين يتولون الضرب.
يقف واحد منهم ويده على ردفه لاهثاً، مبتسماً، مشيراً إلى
الحشد. تبدر كلمة من العميد جول: يتوقف الأربعة عن عملهم
ويتقدمون إلى الأمام يعرضون عصيتهم للمشاهدين.

فتاة ضاحكة، توارى وجهها، تدفع إلى الأمام من قبل
صديقاتها. يلحن عليها، اذهبي لا تكوني خائفة! جندي يضع

العصا فى يدها ويفودها إلى المكان. تقف مرتبكة، حائرة، يدها ما تزال على وجهها. تنهال عليها الصيحات، دعابات، توصيات مشينة. ترفع العصا، تهبط بها بقسوة على ردفى السجين، تسقطها أرضاً، وتعدو إلى الأمان إلى عاصفة من تصفيق.

هناك تدافع على العصي، يحافظ الجنود بصعوبة على النظام، يختفى عنى منظر الأسرى وهم على الأرض، بسبب من تدفع الناس إلى الأمام لأخذ دورهم أو ببساطة، للتفرج على الضرب من مكان أقرب. أقف منسياً والدلو بين قدمي.

ينتهى الجاد بعدئذ، يعاود الجنود إصرارهم على حقهم، يتدافع الحشد إلى الوراء، تهباً الساحة مجدداً، على الرغم من أنها قد أصبحت الآن أضيق من ذى قبل.

يمسك العميد جول بمطرقة فوق رأسه، يعرضها للحشد، مطرقة اعتيادية، وزنها أربعة أرطال، تستعمل لدق وتد الخيمة، ثانية، تلتقى نظراته لنظراتي: تهدأ البلبلة.

لا! اسمع الكلمة الأولى من حنجرتي، صدئة، غير مرتفعة إلى درجة كافية. ومرة ثانية: لا! ترن الكلمة فى هذه المرة مثلى جرس فى صدري. الجندى لذى يستطريقى يتعثر جانباً. فى الحلبة أنا، رافعاً ذراعى لتهدة لحشد: لا! لا! لا!

عندما أستدير نحو العميد جول الجدار واقفاً على بعد أقل

من خمس خطوات منى، أشير بأصبعي نحوه. أصبح، أنت
لأدع كل ما أريده يقال، لأجعله الشخص الذى يتكسر عليه
غضبى.

إنك تفسد هؤلاء الناس
إنه لا يجفل، لا يجيب.

أنت! يدى تشير نحوه مثل بندقية، صوتى يملأ الساحة.
صمت شامل هناك، أو ربما، إننى جد ثمل بفعلتى إلى الحد
الذى لا اسمح فيه شيئاً.

شيء ما من الخلف يشق طريقه نحوى بجلبة. انبطح على
التراب، ألّهت بشدة، أحس بلفحة الألم القديمة فى ظهري. عصا
تنحط علىّ، أمدّ يدى محاولاً الذود منها، أتلقي ضربة صاعقة
على يدى.

وفوقى يصبح ضرورياً، مهما يكن صعباً بسبب الألم الذى
يبعثه. أقف على قدمي وأتبين من هو ذلك الذى يضربنى. إنه
الرجل المتين الذى يحمل شارة الرقيب والذى أسهم فى عملية
الضرب. جاثم على ركبتيه، فتحت أنفه تستشيطان غيظاً، يفف
والعصا مرفوعة للضربة الثانية، انتظر! ألّهت ماداً يدى
المترنحة. أعتقد أنك قد كسرتها! يضرب، أتلقي الضربة على
ساعدى. أخفى يدى، أخفض رأسى، وأحاول أن أتחסس
طريقى نحوه وأتماسك معه بالأيدى. ننهال ضربات على رأسى

وكتفى. لا بأس: كل ما أريده هو بضع لحظات لإنهاء ما أقوله الآن والذي بدأته. أمسك بسترته وأجذبه إلى وعلى الرغم من صراعه، فإنه لا يقدر على استعمال عصاه، من فوق كتفه، أصبح ثانية:

ليس بتلك! أصبح المطرقة تضطجع محمية بين نراعى العميد المتينتين لست بقادر على استعمال المطرقة على حيوان، ليس على حيوان! في اندفاعه رهبة من غضب، أستدير نحو الرقيب وأقذفه بعيداً عنى. قوة إلهية قوتى. وهى فى دقيقة ستتلاشى: لأستخدمها بشكل جيد فى وقت وجودها!

أنظر! أصبح. أشير إلى السجناء الأربعة المستلقين على الأرض باستسلام، شفاهم على العمود، أيديهم، ممسكة بوجوههم مثل مخالب قرد، غافلين عن المطرقة، جاهلين ما يدور خلفهم، مرتاحين لأن علامة الإساءة قد صنت عن ظهورهم، آملي أن العقوبة قد وصلت نهايتها. أرفع يدي المكسورة إلى السماء. أصبح، أنظر! نحن معجزة الخلق الكبرى! ولكن هذا الجسد المعجز لا يستطيع إصلاح نفسه بفعل بعض الضربات! كيف! تخذلنى الكلمات. أنظر إلى هؤلاء الرجال! أعيد الكرة رجال أولئك الذين فى الحشد العاديين على أن يشرئبوا بأعناقهم للنظر إلى السجناء، وحتى نحو الذباب الذى يبدأ فى الاستقرار على ندوبهم النازفة، يبدأون بالهيجان.

أسمع الضربة وهى تنزل، أستدير لألقيها. تتلقانى فوق الوجه تماماً. أنا أعمى! أعتقد ذلك، مترنحاً إلى الخلف نحو الظلمة التى تسقط فى الحال. أبتلع دماً، يبرز شيء ما فجأة على وجهى، مبتدئاً بدفع متفائل، متحولاً إلى ألم متقد. أخفى وجهى فى يدي وأضرب الأرض بقدمي فى دائرة من حولي محاولاً ألا أصرخ: محاولاً ألا أسقط.

ما أردت أن أقوله بعدئذ، لا أقدر على تذكره. معجزة الخلق أتعب الفكر ولكنها تتملص منى مثل حزمة من دخان. يخطر ببالي أننا نسحق الحشرات تحت أقدامنا، إنها أيضاً معجزات الخلق، خنافس، ديدان، صراصير، نمل، فى حالاتها المختلفة.

أرفع أصابعى عن عيني وعالم رمادى ينبعث مجدداً سابحاً فى دموع. أنا ممتن بعمق لأننى توقفت عن الإحساس بالألم. بينما أدفع أنا، رجل عند كل مرفق، عائداً عبر الحشد المدمدم، إلى زنزانتي، بل وحتى أجد نفسى مبتسماً.

تلك الابتسامة وتلك الفورة من الفرح، تترك وراءها رواسب تثير القلق. أعرف أنهم يقتربون خطأ فى التعامل معى بهذه السرعة، أنا لست بخطيب. فماذا كان بمقدورى أن أقول إن كانوا قد سمحوا لى بمواصلة الكلام؟ ذلك أنه من الأسوأ أن تضرب قدما رجل حتى تتحولاً إلى عجينة من أن يقتل فى

معركة؟ إنه أمر يجلب العار على كل واحد عندما يسمح لفتاة أن تجلد رجلاً؟ وإن مشاهد القسوة تقسد قلوب الأبرياء! الكلمات التي منعوني من قولها ربما كانت جبيرة بالازدراء، نابراً ما تقدر الكلمات على إثارة الرعاع. ماذا أمثل أنا، بعد كل شيء، غير مبادئ وقواعد رجل ينسجم سلوكه مع مقياس رفيع من مقاييس السلوك الحسن تجاه أسرى أعداء، وما الذي أقف أنا ضده فضلاً عن العلم الجديد للانحطاط الذي يقتل الناس وهم راكعون، مرتبكون ومتجردون من الكرامة أمام أنفسهم؟ ياليتني لم أجرو على مواجهة الحشد وطلب العدالة لهؤلاء السجناء البرابرة المثيرين للسخرية ومؤخراتهم معروضة على الملاءة؟ العدالة: حالما تطلق تلك الكلمة، إلى أين سينتهي الأمر برمته؟ الأسهل أن تصرخ لا! الأسهل أن تتعرض للضرب وتصبح شهيداً. الأسهل أن أدفن وأن يوضع رأسي على كتلة من حجر من أن أدافع عن قضية العدالة بالنسبة للبرابرة: فإلى أين بإمكان تلك المناقشة أن تقودنا إلا إلى التخلي عن سلاحنا وفتح بوابات البلدة لأناس قمنا باغتصاب أراضيهم؟ القاضي القديم، المدافع عن حكم القانون، عدو بطريقته الخاصة للدولة، يُعتدى عليه ويسجن، الفاضل فوق الشك، ذلك لن يكون من غير استنعاره بوخر من ارتياب.

أعلم أن أنفي مكسور، وربما عظمتا الخد أيضاً حيث انفتح لحم بشرتي بضربة العصا. عيني اليسرى متورمة إلى حد أني لا أقدر على فتحها.

فى الوقت الذى ىنقضى فى الحذر؁ ىبدأ الألم ىعاودنى فى
تقلصات بىن دققة أو اثنتىن ما عدا شدة الانفعال الذى أنا فىه
وهو ما ىجعلنى غير قادر بعد على التمدد ساكناً. عند ذروة
التقلص؁ أسىر فى أرجاء الغرفة قابضاً على وجهى؁ أعوى مثل
كلب؁ أتنفس بعمق فى الودىان المباركة ما بىن ذرىوات التقلص؁
محاولاً أن أحتفظ بالسىطرة على نفسى؁ محاولاً أن تبدر منى
صىحة عالية مخزىة جداً. ىخىل إلى أنى أسمع جىشاناً وهجوماً
مؤقتاً فى الصوت الصادر عن الغوغاء فى الساحة؁ ولكننى لا
أقدر على التأكد من أن ذلك الهدىر هو ببساطة لىس فى طبلتى
أذنى.

ىجلسون لى وجبة المساء كالمعتاد؁ ومع ذلك لا أستطىع أن
أتناوله. لا أقدر على البقاء ساكناً؁ أضطر إلى السىر إلى الأمام
والى الخلف أو أن أتأرجح على عجزى كى أمنع نفسى من
الصراخ؁ ممزقاً ملابسى؁ ناشباً أظافرى فى لحمى؁ فاعلا أى
شئ؁ ىفعله الناس عندما ىتجاوزون حدود تحملهم. أبكى؁ وأحس
بالدموع تلسع لحمى المفتوح. أذنن بالأغنىة القدىمة عن الفارس
ودغل العرعر مرات ومرات؁ متشبثاً بالكلمات التى أتذكرها بعد
أن فقدت كل إحساس بها. واحد؁ اثنان؁ ثلاثة؁ أربعة... أعد.
أقول لنفسى؁ سىكون نصراً مشهوداً إن عشت هذه اللىلة.

فى الساعات الأولى من الصبأ؁ لما ىتتابنى دوار شدىد

بسبب التعب، أدور عند ذلك على قدميَّ ثم أستسلم أخيراً وأنتحب من أعماق قلبي مثل طفل: أجلس في زاوية في مواجهة الجدار وأنخرط في البكاء، تسيل الدموع من عيني بلا توقف. أبكي ثم أبكي بينما طلقات الألم تأتي وتروح حسب دوراتها. يندفع النوم صوبى وأنا في مثل هذه الحالة، مثل صاعقة. أنذهل وأنا أعود إلى نفسي في الضوء الشاحب الرمادى للنهار، مترهلاً في إحدى الزوايا، دون أى إحساس ولو ضئيل بمرور الزمن. وعلى الرغم من تواصل طلقات الألم، أتبين أننى قادر على تحملها، إن بقيت ساكناً. في الحقيقة، لقد فقدت غرابتها. وهى سرعان ما ستكون جزءاً منى كما التنفس.

وهكذا أتمدد بهدوء تجاه الجدار، أثنى ذراعى الملتهبة تحت إبطى ابتغاء الراحة وأغرق فى النوم ثانية، إلى بليلة من صورٍ من بينها واحدة أسبر غورها بدقة وبشكل خاص، دافعاً الأخريات التى تطير نحوى جانباً مثل أوراق شجر. إنها عن الفتاة. جائمة هى وظهرها نحوى أمام قصر الثلج أو قصر الرمال الذى تبنيه. وهى ترتدى ثوباً داكن الزرقة، عند اقترابى منها، أجدها تحفر فى جوف القصر.

تحس بوجودى وتستدير. لقد كنت مخطئاً. إنه ليس قصرًا ذلك الذى تبنيه ولكن فرناً من صلصال. يتصاعد الدخان ملتوياً

إلى أعلى من متفد إلى أعلى. تمد ذراعيها نحوى تقدم لى شيئاً،
كتلة بلا شكل، أطلع إليها أنا، من غير رغبة عبر ضباب.
ومع أننى أحرك رأسى، فإن الرؤية لا تتوضح أمامى.

إنها ترتدى قبة مستديرة مطرزة بالذهب. شعرها مجدول
فى ضفيرة ثقيلة تستقر على كتفيها: هناك خيوط ذهبية تتخلل
الضفيرة. أريد أن أسأل، لماذا ترتدين أفضل ثيابك، ألم أراك
مطلقاً تبدين بمثل هذا الجمال؟ تبتسم لى: يا لها من أسنان
جميلة تلك التى تمتلكها، وأى عينين صافيتين بلون الكهرمان
الأسود! كما أننى أستطيع أن أرى الآن من أن ما تقدمه لى هو
رغيف خبز، ما يزال ساخناً، بقشرة خشنة متكسرة بيتصاعد
منها البخار. تجتاح كيانى موجة عارمة من الامتنان. أريد أن
أقول، من أين تعلمت طفلة مثلك أن تخبز بهذا الشكل اللجيد فى
الصحراء؟ أفتح ذراعى لأحضنهما، ثم أعود إلى وعى
والدموع تلسع الجرح الذى فى خدي. روعلى. الرغم من أننى
أحبو فى الحال عائداً إلى حجر النوم فإننى لا أقدر على التدخل
ثانية إلى الحلم أو أتنوق مذاق الخبز الذى جعل لعابى يسيل.

* * *

يجلس العميد جول خلف المكعب فى غرفتى. لا توجد هناك
كتب أو ملفات، الغرفة خالية تماماً ما عدا زهرية فيها ورود
قطفت توا.

يرفع ضابط الصف الوسيم الذى لا أعرف اسمه، الخزانة المصنوعة من خشب الأرز ويضعها على المكتب ثم يتراجع إلى الخلف.

يتحدث العميد جول، وهو ينظر فى أوراقه، كانت هذه الخزانة الخشبية من بين الحاجيات التى وجدت فى شقتك. أود منك أن تتأمل الأمر. محتوياتها غير اعتيادية. وهى تحوى نحو ثلاثمائة شريحة من خشب الحور الأبيض. كل واحدة منها ثمانية فى اثنين انج تقريباً، الكثير منها ملفوفة بأطوال من الخيط. الخشب جاف وهش. بعض الخيوط جديدة وبعضها قديمة إلى درجة التلف.

إن حصل أحد ما خيطاً سيجد أن الشريحة تنفتح كاشفة عن سطحين مستويين داخليين. هذه الأسطح المستوية، مكتوب عليها بخط غير معهود.

أعتقد أنك ستؤيد هذا الوصف.

أحرق فى العدستين لسوداوين. يواصل كلامه.

الاستنتاج المقنع هو أن الشرائح الخشبية تتضمن رسائل تبودلت بينك وبين جماعات أخرى، لا نعرف متى، الأمر متروك لك لشرح ما هو مكتوب على هذه الرسائل ومن كانوا الجماعات الأخرى. يتناول شريحة من الخزانة ويدفعها

بضربة خفيفة عبر السطح الأملس الصقيل للمكتب نحوى.

أتطلع فى خيوط الأبجدية المكتوبة من قبل شخص غريب مات منذ زمن بعيد. لا أعرف أنا إن كانت تقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين. فى الأمسيات الطويلة التى أمضيتها متأملاً فيها مجموعتى، كنت قد أفرزت أكثر من أربعمئة رمز مختلف فى النص، أو ربما أربعمئة وخمسين. لا أمتلك فكرة عن المعانى التى ترمز إليها. هل إن كل واحد منها يشير إلى شيء مفرد، دائرة للشمس، مثلث للمرأة، موجة للبحيرة، أم أن الدائرة تعني الدائرة فحسب والمثلث هو المثلث والموجة هي الموجة؟ هل إن كل رمز يمثل حالة مختلفة للسان، الشفتين، الحنجرة، الرئتين، كما تجمع سوياً عند النطق فى بعض اللغات البربرية المتنوعة المنقرضة؟ أم أن رموزى الأربعمئة لا تعنى شيئاً بل مجرد شخبطات زخرفية لمجموعة أساسية من عشرين أو ثلاثين صيغة، لا أقدر أنا ضمن إمكانياتى العقلية على فهمها؟ أقول، إنه يبعث بتحياته إلى ابنته، أسمع بعجب الصوت الأخن الثخين الذى أصبح صوتى الآن. تمضى أصابعى متلمسة سطر الرموز من اليمين إلى اليسار. والتى كما يقول لم يرها منذ زمن بعيد. إنه يأمل أن تكون سعيدة، ناجحة. وهو يأمل أن موسم الحملان كان جيداً. إنه قد هيا هدية لها، ويقول بأنه سيحتفظ بها لديه حتى يراها ثانية. وهو يبعث حبه. ليس من السهل قراءة توقيعه هذا.

وقد يكون ببساطة والدك أو قد يكون شيئاً آخر، اسماً.

أتقدم من الخزانة وألتقط شريحة أخرى. ضابط الصف الجالس خلف جول، دفتر ملاحظاته مفتوح على ركبته، قلمه مثبت على الورقة يحدد نحوى بصلابة. أقول، تقرأ هذه الشريحة كما يأتي: إنني آسف لإرسال أخبار سيئة. جاء الجند وأخذوا أخاك بعيداً. لقد ذهبت إلى الحصن بصورة يومية لألتمس عودته. أجلس على التراب ورأسى عار. أمس وللمرة الأولى بعثو رجلاً ليتحدث معي. يقول إن أخاك لم بعد هنا. يقول إنه قد أرسل بعيداً. أين؟ سألت، ولكنه لم يخبرني. لا تخبري والدتك ولكن شاركني في الصلاة من أجل سلامته.

والآن دعونا نر ماذا تقول الشريحة الثالثة هذه. لقم ما يزال مثبتاً وهو لم يكتب شيئاً، ولم يتحرك. ذهبنا يوم أمس لاصطحاب أخيك. قادونا إلى غرفة حيث كان مدداً على منضدة قد خيط في داخل ملاءة؟ يميل جول ببطء، مستنداً على ظهر كرسيه. يخلق ضابط الصف دفتره ويفف نصف وقفة، ولكن جول بحركة من يده يهدئه. أرادوا مني أخذه بتلك الهيئة، ولكنني ألححت على إلقاء نظرة عليه. ماذا لو أنكم تعطونني جثة أخرى؟ قلت لهم لديكم أجساد كثيرة هنا، أجساد رجال في عمر الشباب. وهكذا فتحت ورأيت انه كان حقاً أخوك. على الرغم من أنني رأيت غرزة على كل جفن. قلت لماذا فعلتم به

هذا؟ قال، 'إنه تقليد نتبعه. مزقت الملاعة وفتحتها على وسعها ورأيت كدمات في كل أجزاء الجثة، ورأيت أن قدميه كانتا متورمتين ومكسورتين. قلت، ماذا حدث له قال الرجل، لا أعرف، الأمر غير مذكور في الورقة، إن كانت لديك أسئلة عليك بالذهاب إلى الرقيب، ولكنه مشغول جداً. واضطربنا إلى دفن أخيك هنا، خارج حصنهم، لأنه كان قد بدأ ينتن. رجاء أبلغى والدتك وحاولى مواساتها.

والآن دعونا نر ماذا تقول الشريحة التالية. انظر، هناك رمز واحد فقط. إنه الرمز البربرى الذى يعنى حرب، ولكن له معانى أخرى أيضاً. فهو قد يرمز إلى كلمة انتقام، إن قلبته رأساً على عقب هكذا، فإنه لذلك يصلح ليقراً عدالة. ليس من المعلوم أى المعانى هى المقصودة. إنه جزء من مكر البرابرة.

الأمر نفسه مع بقية هذه الشرائح. أغمد يدي السليمة فجأة في داخل الخزانة وأقلب ما فيها.

إنها جميعاً تشك قصة رمزية. ويمكن أن تقرأ على وفق ترتيبات عديدة. فضلاً عن ذلك، يمكن قراءة كل شريحة منفردة بطرق متعددة. وكلها معا يمكن قراءتها كسجل وطنى، أو تقرأ كخطة حرب، أو يمكن قلبها على طرفها الآخر وتقرأ كتاريخ للأعوام الأخيرة للإمبراطورية- الإمبراطورية القديمة، ذلك ما أعنيه. ليس هناك اتفاق بين الباحثين حول كيفية تفسير

هذه الذخائر العائدة للبرابرة القدماء. مجموعات ذات استعارات مثل هذه يمكن أن يجدها المرء مفقونة في سائر أرجاء الصحراء. وقد وجدت هذه المجموعة على مساحة ثلاثة أميال من هنا في بقايا مبنى عام. للمقابر هي مكان جيد آخر للبحث، على الرغم أنه ليس من السهل دائماً معرفة مواقع مقابر البرابرة. وينصح عادة أن تحفر ببساطة اعقباطاً، ربما ستعثر في البقعة نفسها التي تقف على قصاصة، كسرة، بقايا الموتى. وأيضاً الهواء: الهواء مليء بتهديدات وصرخات. هذه الأشياء لا تتلاشى مطلقاً: إن أصغيت بانتباه، بأذن متعاطفة، ستسمع رجوع صداها يتردد إلى الأبد في العالم لثاني. الليل هو الأفضل: عندما تجد في بعض الأحيان صعوبة في النوم، ذلك لأن أنفك قد وصلتها صرخات الموتى والتي هي مثل الكتابة، عرضة لتفسيرات عديدة.

شكراً لك لقد انتهيت من الترجمة.

لم أخفق في مراقبة جول طوال الوقت. وهو لم يتحرك من مكانه مرة أخرى، ما عدا وضع يد على كم مرؤوسه في اللحظة التي أشرت فيها إلى الإمبراطورية، ووقوفه متأهباً للانقضاض على.

إن تقدم منى سأضربه بكل القوة التي يمتلكها جسدي. لن أختفي تحت الأرض دون أن أترك علامة عليهم.

يتكلم العميد، إنك لا تدري كم هو ممل تصرفك. إنك الموظف الأول والوحيد الذى عيّن للعمل معنا على الحدود والذى لم يمنحنا تعاونه التام. بصراحة، يتحتم عليّ إخبارك بأننى غير مهتم بهذه العيدان. يشير يداً إلى الشرائح المتناثرة على المكتب. من المحتمل جداً أن تكون عيدان مراهنه. أعرف أن قبائل أخرى على الحدود تفامر بالعيدان.

أسألك أن تتمعن برزانة: أى نوع مستقبل يكون لك هنا. لن يسمح لك البقاء فى وظيفتك. لقد ألحقت العار بنفسك تماماً. حتى إن لم تحاكم فى آخر الأمر أصيح، أنا فى انتظار أن تحاكمونى! متى ستفعلون ذلك؟ متى ستقدموننى إلى المحاكمة؟ متى سأمنح فرصة للدفاع عن نفسى؟ غضب شديد يجتاحنى. لا أثر من عجز اللسان الذى شعرت به أمام الحشد ابتلى به. إن كان عليّ مواجهة هؤلاء الرجال الآن، أمام الناس، فى محاكمة عادلة فسأجد الكلمات التى ستخزيهم. إنها مسألة صحة وقوة: أحس أن كلماتى الساخنة تنتفخ فى صدرى. ولكنهم لا يقدمون أبداً رجلاً إلى محاكمة وهو يتمتع بصحة وقوة كافية لِقهرهم. سيسجنوننى بعيداً فى الظلام حتى أصبح أبله مدمماً، شبهاً لنفسى، ثم سيسحبوننى أمام محكمة مخلقة وفى دقائق خمس يتخلصون من الالتزامات القانونية التى يجدونها مملة جداً.

يقول العميد جول، بسبب استمرار حالة الطوارئ، كما

تعلم، فإن إدارة العدالة قد أصبحت خارج نطاق السلطة المدنية وانحصرت مسؤوليتها في أيدي المكتب. يتتهد. أيها الحاكم، يبدو أنك تعتقد من أننا لا نجرؤ على تقديمك للمحاكمة لأننا نخشى كونك شخصاً ذا شعبية كبيرة في هذه البلدة، لا أتصور أنك تعي مدى خسارتك الكبيرة جراء إهمالك لواجباتك، متحاشياً أصدقائك، معاشراً أناساً وضعيين. لا يوجد واحد ممن تكلمت معهم لم يحس في وقت من الأوقات بالإهانة جراء تصرفاتك.

حياتي الخاصة، ليست شأناً من شئونهم!

مع ذلك، أود أن أعلمك أن قرارنا بإعفائك من مسؤولياتك قد لقي ترحيباً من قبل كافة الأطراف. أنا شخصياً، لا أحمل شيئاً ضدك. حينما عدت من السفر قبل بضعة أيام، كنت قد قررت أن كل ما أردت منك هو جواب واضح عن سؤال بسيط. بعد ذلك كان بإمكانك العودة إلى محظيتك رجلاً حراً.

يخطر لي فجأة أن الإهانة قد لا تكون بلا مبرر، ذلك أن هذين الرجلين وربما لأسباب مختلفة سيرحبان إن فقدت السيطرة على أعصابي. مشتعلًا بالغضب، متوترًا في كل عضلة، أحافظ على صمتي.

على أي حال، يبدو أن لديك طموحاً جديداً، يمضي في حديثه، يبدو أنك تريد أن تخلق لنفسك صيتاً كأنك الرجل

العادل الوحيد، الرجل المستعد للتضحية بحريته من أجل مبادئه.

ولكن دعني أسألك: هل تعتقد أن تلك هي الكيفية التي ينظر بها إليك أبناء بلدتك بعد المشهد السخيف الذي خلقته في الساحة في اليوم السابق؟ صدقني أنت بالنسبة للناس في هذه البلدة لست الرجل الأوحى، إنك ببساطة مهرج، رجل مجنون. إنك قذر، رائدتك نتنة، بإمكانهم أن يشموا رائحتك من مسافة ميل. إنك تبدو مثل متسول عجوز، نفاية حثالة، إنهم لا يريدونك أن تعود بأي صفة. لا مستقبل لك هنا.

أنت تريد أن يرد اسمك في التاريخ كشهيد. أشك في ذلك. ولكن من ذا الذي سيضعك في كتب التاريخ؟ مشاكل الحدود هذه لا أهمية لها. إنها ستتقضى في مدة زمنية قصيرة ثم تعود الحدود إلى النوم عشرين سنة أخرى. الناس غير مهتمين بتاريخ مكان منزلك.

أقول، لم تكن هناك اضطرابات حدود قبل مجيئك.

يقول، هراء، أنت ببساطة جاهل بالحقائق. إنك تعيش في عالم ينتمي إلى الماضي. أنت تعتقد بأننا نتعامل مع جماعات يدوية صغيرة ومسالمة في الحقيقة أننا نتعامل مع عدو جيد التنظيم. لو كنت سافرت مع قوة الحملة، لكنت اطلعت على ذلك بنفسك.

أولئك السجناء المثيرون للشفقة والذين قمت بجليهم إلى هنا- هل لأنهم العدو الذى يتوجب على الخوف منه؟ أهذا ما تقول له؟ إنك العدو، أيها العميد! لم أعد قادرا على كبت ما فى نفسى بعد الآن.

أدق على المنضدة بقبضتى. أنت العدو، أنت من أضرم الحرب، وأنت الذى أعطيتهم كل الشهداء الذين يحتاجونهم - لم يبدأ الأمر الآن ولكن قبل عام مضى عندما اقتربت هنا أول أعمالك البربرية القذرة - سيؤيدنى التاريخ فى ذلك .

هراء - لن يكون هناك أى تاريخ، القضية تافهة جداً . يبدو غير متأثر، ولكننى واثق من أننى قد جعلته يهتز .

إنك دعر تمارس التعذيب. إنك تستحق الشنق .

يادمم، هكذا يتحدث العاضى، الرجل العادل الوحى .

يحق أحدها فى عيني الآخر .

يقول، مرتباً الأوراق أمامه: الآن، أود الحصول على بيان بكل ما جرى بينك وبين البرابرة فى زيارتك الأخيرة لهم غير المصرح بها .

أنا أرفض .

حسن جدا . مقابلتنا قد انتهت . يستدير نحو مساعده، إنك المسؤول عنه. يقف، يسير خارجاً .
أواجه ضابط الصف .

* * *

الجرح الذى على خدى، لم يغسل أبداً ولم يضمّد، وهو متورّم وملتهب. تشكّلت عليه قشرة مثل يرقّة سمينة. عيني اليسرى مجرد شق طويل، أنفى كتلة مختلجة لا شكل له. يتحتم على أن أتتفس عبر فمى.

أستلقى أنا فى مكان تفوح منه رائحة قىء قوية ومزمنة، مشغول البال بفكرة الماء. لم أجد شيئاً أشربه منذ يومين.

لا يوجد ما يشرف فى معاناتى. القليل مما أسمىه معاناة هو الألم المطرد. ما أرغمت على تحمله خاضع لأهم الاحتياجات الأولية لجسدى: أن أشرب، أن أفرج عنه، أن أجد الوضعية الأفضل من أجل تفادى الألم. عندما أعادنى ضابط الصف ماندل ومساعدته إلى هنا للمرة الأولى، وأضاء المصباح وأغلق الباب، أذهل لمقدار الألم الذى سيكون فى قدرة رجل عجوز سمين أن يتحمّله باسم أفكاره المنحرفة حول الكيفية التى يتحتم على إمبراطورية أن تدير نفسها. ولكن الفائمين على تعذيبى لم يكن يعنّيهم درجات الألم. كل ما كان يهمهم هو أن يبرهنوا لى ماذا يعنى العيش فى جسد، مثل جثة، جسد لا يمكنه أن يضمّر أفكاراً عن العدالة إلا فى دوام كونه سالماً ومعافى، وهو سرعان ما سينساها عندما يقبض بقوة على رأسه وتدفع أنبوبة إلى بلعومه ويصب فيها مقدار ثمن غالون من ماء مملح حتى يبدأ بالسعال ويحاول التقيؤ، ويضرب بعصا ويفرغ نفسه. إنهم

لم يجيئوا لإرغامى على قول حقيفة ما قلته للبرابرة وما قاله البرابرة لى. ولهذا لم تتوفر لى فرصة لإلقاء الكلمات الرنانة الجاهزة فى وجوههم. جاءوا إلى زنزانتى ليظهروا لى معنى الإنسانية، وفى خلال ساعة من الزمن أظهروا لى الكثير منه.

* * *

ولست هى مسألة من الذى يتحمل أطول. اعتدت أن أفكر فى حالتى، إنهم يجلسون فى غرفة أخرى يبحثون فى أمرى. وهم يقولون بعضهم لبعض ، كم سيدوم الأمر قبل أن يعفر وجهه بالتراب؟ سنعود إليه فى غضون ساعة أخرى ونرى .

ولكن الأمر ليس كذلك. إنهم لا يملكون نظاماً مدروساً للألم والحرمان الذى يخضعوننى له. أعيش يومين بلا طعام وماء. فى اليوم الثالث أطعمت. أنا آسف . يقول الرجل الذى يجلب طعامى، لقد نسينا . الأمر ليس حقداً ذلك الذى جعلهم ينسون. القائمون على تعذيبى لهم حياتهم الخاصة التى يعيشونها. أنا لست مركز كون لهم. من المحتمل أن مساعد ماندل، يمضى أيامه فى عد الأكياس فى مخزن التموين أو يكشف على أعمال الحفر الهندسية، متذمراً فى نفسه من حرارة الجو. أما ماندل نفسه، فأنا واثق من أنه يمضى وقتاً أكثر فى تلميع شريطه المعدنى وأزراره من ذلك الوقت الذى ينفقه عليه وهو عندما يحلو له المزاج يأتى ويلفنى درساً فى الإنسانية. كم من زمن

أحتاج كي أصمد أمام خطباتهم العشواء؟ وماذا سيحدث إن استسلمت، بكيت، تذلت، بينما يستمر في الوقت نفسه هجومهم على؟

ينادونني إلى الساحة. أقف أمامهم خافياً عري، مدارياً يدي المتورمة. دب عجز دُجّن بفعل هجمات متواصلة. يقول مانديل: اركض. اركض حول الساحة تحت الشمس الملهبة. عندما أرتخي يضربني بخيزرانتة على عجزى فأسرع راكضاً. يتخلى الجنود عن قبولتهم ويرقبون من مواضعهم الضليلة، الخادمت المكلفات بغسل الأواني يستندن إلى باب المطبخ، أطفال يحدقون من خلال قضبان البوابة. لا أقدر! ألهم بشدة. قلبي! أتوقف، أنكس رأسي، أنشب أظفري في صدري. ينتظر كل واحد بصبر حتى أسترد أنفاسي. ثم تتخسني العصا وأستمر في السير متثاقلاً، لا تزيد خطوتي عن سير رجل.

أو بطريقة أخرى أقوم بأعمال معينة لهم. يقومون بمد حبل بعلو ركبة وأقفز أنا من فوقه إلى الأمام وإلى الخلف. ينادون على الحفيد الصغير للطباخة ليحضر ويعطونه طرفاً من الحبل ليمسك به. احتفظ به ثابتاً. يقولون، لا نريده أن يعثر. يمسك الولد بطرف من الحبل بكلتا يديه، مركزاً على هذا الواجب المهم، منتظراً إياي أن أقفز. أتوقف فجأة. رأس الخيزرانة تجد طريقها إلى ما بين ردفى وتتخس. يدمدم مانديل، أقفز.

اركض، أطفرف ققرة صغيرة، أأخبط على الحبلى؁ وأقف هناك. أشم رائحة غائط. غير مسموح لى بالاغآسال. يلاحقنى الذباب فى كل مكان؁ محوِماً حول الورم المآثر للشهية فوق خدى؁ أأط إن وقفت ثابتاً دقية واحدة. الحركة المحلقة لىدى أمام وجهى لمطاربآهم قد غدت آلية مثل ضربة ذىل البقرة الخاطفة.

يقول مآندىل للولد: قل له إن عله أن يفز أفضل فى المرة القادمة. يبتسم الولد وىأطلع بعيداً. أجلس فى التراب منآظراً العمل الآلى. يقول للولد؁ هل تعرف كيف أطفرف الحبلى؟ أعط الحبلى للرجل واطلب منه أن يعلمك كيف أطفرف. واطفر.

المرة الأولى كلفآى عذابآ من خزى عندما اضطرت إلى الخروج من خلوتى والوقوف عارىاً أمام هؤلاء الآافهين أو أهز جسدى هنا وهناك من أجل إمتاعهم. قد آجاوزآ الخزى الآن. ىأوجه آفكيرى تماماً لخطر اللحظة التى آآبال فىها ركبتاى أو أأس أن قلبى ىآشبآ بى كسرطان؁ وعندئذ ىكون على أن أقف ساكناً؁ وفى كل مرة أكتشف بدهشة أننى بعد استراحة قصيرة؁ بعد آطبىق عملى للقليل من الألم؁ أنه بالإمكان أن أأفع إلى الآحرك؁ القفز؁ الطفر؁ أو الحبو أو الركىض بصورة أسرع. هل هناك مرحلة ما سأستلقى عندها أرضاً وأقول؁ أقتلونى - أنا أفضل الموت على الاستمرار فى الحياة؟ أعتقد أأيانا أننى أأآرب من آلك المرحلة؁ ولكننى أكون على خطأ باستمرار.

ليس هناك من عزاء مهيب فى أى من هذه. وعندما أُستيقظ متأوهاً فى الليل ذلك لأننى أحيأ فى أحلامى ثانية أحر حالات الخزى. ليست هناك من طريفة للموت مباحة لى، كما يبدو، غير أن أموت مثل كلب فى زاوية ما.

* * *

بعدئذ وفى أحد الأيام أطلقوا الباب مفتوحاً، وأخطو أنا خارجاً لا لكى أواجه رجلين بل فرقة واقفة فى حالة انتباه. يقول مانديل، الآن، يناولنى ثوباً قطنياً نسائياً، البس هذا.

لماذا؟

حسن جداً، إن أردت الذهاب عارياً، اذهب عارياً.

أمرر الثوب من فرق رأسى. انه يصل إلى منتصف فخذى. ألمح نظرات خاطفة من خادمتين شابتين وهما تسرعان السير عائدتين إلى المطبخ وتذوبا ن قهقهة. رسغاي مدفوعان نحو ظهري ومقيدان، يهمس مانديل فى أذنى لقد آن الأوان أيها الحاكم، تصرف كأفضل ما يكون كرجل. أستطيع شم رائحة الكحول فى أنفاسه، بكل تأكيد.

يسيرون بى إلى خارج الساحة. وهناك تحت أشجار التوت حيث الأرض أرجوانية من أثر عصير ثمار التوت المتساقطة، يقبع مجموعة من الأشخاص فى الانتظار. بعض الأطفال

يتسلقون فروع الأشجار . عندما أقترَب يخيم الصمت على الجميع .

يرخي جندي طرف حبل جديد من القنب أبيض اللون، يقذفه إلى أعلى، يلتقطه واحد من الأطفال من على الشجرة، يعقده على غصن، ثم يسقطه تحت .

أعرف أن الأمر مجرد خدعة، وسيلة جديدة لتمضية وقت الأصل لرجال ملوا رسائل التعذيب القديمة، مع ذلك فإن أحشائي امتلأت بولاً . أهمس، أين العميد؟ لا أحد يبالي .

يقول مانديل، هل تريد أن تقول شيئاً؟ قل ما تتمناه؟ نحن نمنحك هذه الفرصة .

أنظر في عينيهِ الصافيتين الزرقاوين وكأنهما عدستان بلورتان شفافتان قد انزلقتا فوق كرتيهما . يتطلع فيّ بالمقابل، ليست لدى فكرة عما يدبره . مفكراً فيه رددت مع نفسي كلمتي عذاب... معذب، ولكنهما كلمتان غريبتان، وكلما رددتهما أكثر، تزدادان غرابة حتى تستقران مثل حجرتين على لسانى . قد يكون هذا الرجل والرجل الآخر الذى يجلبه معه لمساعدته فى عمله وعميدهما، من المعذبين، وربما أن هذا هو عنوان وظيفتهم المكتوبة على ثلاث بطاقات فى مكتب دفع النفود فى مكان ما فى العاصمة، مع أن الأمر الأكثر احتمالاً أن البطاقات تصفهم بضباط أمن . مع ذلك، عندما أتطلع إليه أرى ببساطة

عينين زرقاوين صافيتين، الملامح الصارمة الجذابة من غير ريب، الأسنان أطول بعض الشيء من المعتاد في حين تتراجع اللثة. إنه يتعامل مع نفسه. يطوى في كل يوم بشرفي جانباً ويعرض روحى للنور، من المحتمل أنه قد شاهد عدداً كبيراً من النفوس عبر مسيرة حياته العملية، ولكن يبدو أن الاهتمام بالنفوس لم تترك أثراً أكثر مما يتركه الاهتمام بالقلوب على الجراح.

أقول، إننى أحاول جاهداً أن أفهم مشاعرك تجاهى . لا أقدر أن أمتنع نفسى من التمتمة، صوتى غير ثابت، أحس بالخوف، والعرق يتساقط منى. إنها أكثر بدرجات من كونها فرصة كبيرة أن أخاطب هؤلاء الناس الذين ليس لدى ما أقوله لهم، هل لى أن أطلب كلمات قليلة منك وسأضعها موضع التقدير. من أجل فهم الدافع الذى جعلك تكرس نفسك لهذا العمل. وأستطيع أن أسمع ما تحسه تجاهى، أنا من أذيتنى كثيراً ويبدو الآن أنك عازم على قتلى.

أتفكر بانذهال فى هذا القول المنمق بينما ينسل خارجاً منى. هل أنا مجنون إلى حد كاف لمحاولتى استفزازه؟

يقول، هل ترى هذه اليد؟ يمد يده إلى مسافة انج واحد عن وجهى، عندما كنت أصغر سناً، - يثنى الأصابع - اعتدت أن أكون قادراً على دس إصبعى هذا - يمد إصبع السبابة - عبر

غلاف يقطينة . يضع طرف إصبعه على جبهتي ويضغط عليها، أترجع خطوة إلى الخلف.

بل إنهم يحملون غطاء رأس جاهز من أجلى. كيس ملح يدخلون رأسى به ويشدونه حول رقبتى بحبل. عبر خيوط الكيس المشبكة، أراقبهم وهم يجلبون السلم ويسندونه إلى الغصن. أقاد أنا إليه، توضع قدمى على الدرجة السفلى وتستقر الأنشطة تحت أذننى. يقول مانديل، الآن اصعد السلم .

أدير رأسى وأرى شكلين قاتمين يمسكان بطرف الحبل. أقول، لا أقدر على الصعود ويدائ موثقتان . يدق قلبى كمطرقة. يقول، اصعد ، مثبتاً إياى بذراعه. يشتد الحبل. يأمر، اقبض عليه بشدة .

أصعد، يصعد خلفى، يوجهنى. أعد عشر درجات. أوراق الشجر تحتك بوجهى. أتوقف. يقبض على يدى بقوة أشد، يقول هل تظننا نلعب؟ يتحدث بغضب عبر أسنان مطبقة بشكل لا أفهمه. هل تعتقد أننى لا أعنى ما أقول؟

العرق يلسع عينى فى داخل الكيس. أقول، لا ، أنا لا أعتقد أنك تلعب . أعرف ان الحبل مادام مشدوداً فانهم يلعبون. إن ارتخى الحبل وانزلقت، سأموت.

ماذا تريد أن تقول لى الآن؟

أريد أن أقول إنه لا شيء قد جرى بينى وبين البرابرة له
علاقة بمسائل عسكرية: كانت مسألة خاصة. ذهبت لإعادة
البنات إلى أهلها. لا لسبب آخر .

أهذا كل ما تريد أن تقوله لى؟

أريد أن أقول إنه ما من فرد يستحق الموت . وأنا فى ثوبى
النسائى وكيسى الغريبين وغيثان الجبن فى فمى، أقول: أريد
أن أعيش. مثل أى فرد آخر يريد أن يعيش. أن أعيش وأعيش
وأعيش. لا يهم كيف .

ذلك ليس بكاف . يطلق نراعى حراً. أترنج على درجتى
العاشرة، يحافظ الحبل على توازنى. يقول، هل ترى؟ يعود
نازلاً السلم، تاركاً إياى وحدى.

إنها ليست حبات عرق بل دموع.

هناك حفيف فى أوراق الشجر القريبة منى. صوت طفل:
هل بإمكانك الرؤية، يا عم؟
لا.

أحدهم يصيح من تحت، ها، قرود، انزلوا! .

عبر الحبل المشدود بإحكام أحس بالاهتزاز الناتج عن
حركتهم بين الأغصان.

أقف، لهذا السبب، مدة طويلة، محافظاً بعناية على توازنى فوق السلم. متحسناً رفاهية الخشب فى انحناءة أخمص قدمى، محاولاً أن لا أتمايل، محافظاً على ثبات توتر الحبل بأقصى ما يمكن.

كم من الوقت يحتاجه حشد من العاطلين كى يشبعوا رغباتهم بمراقبة رجل واقف على سلم! سوف أقف أنا هنا حتى يسقط كل اللحم عن عظامى، عبر عواصف ووايل من برد وفيضان، كى أحيأ.

ولكن الحبل يشتد الآن. بل إننى أسمع يقشط لحاء الشجرة وهو يمر عليه، حتى يتطلب الأمر منى أن أمت جسدى، متجنباً أن يشنقنى.

هذه ليست مباراة فى الصبر، إذن: ان كانت عامة الناس غير مقتتعة تغير القوانين. ولكن ما فائدة إلقاء اللوم على عامة الناس؟ كبش الفداء سمي، واحتفال أعلن، القوانين غلقت: من ذا الذى يحتشد للتفرج على الحفلة؟ على ماذا أعترض أنا فى مشاهد التحقير والمعاناة والموت التى يقوم بها نظامنا الجديد غير افتفارها للياقة؟ ما الذى سيتذكره الناس عن إدارتى فضلاً عن نقل المجازر من ساحة السوق إلى ضواحي البلدة قبل عشرين عاماً لضمان مستلزمات العيش اللائق؟ أحاول أن أستجد بشيء، بكلمة الخوف المصمت، بصرخة، ولكن الحبل

مشدود الآن بقوة شديدة إلى الحد الذى أحس فيه بأثنى أختنق،
لا أقدر على الكلام. الدم يدق فى أثنى، أشعر أثنى أفقد
السيطرة على أطراف أصابع قدمى. أتأرجح بسهولة فى
الهواء، أتخبط بالسلم، أضرب بقدمى. صوت طبل فى أثنى
يتباطأ ويعلو حتى يصبح هو الصوت الوحيد الذى أسمعه.

إننى واقف أمام الرجل العجوز، أغمض عيني نصف
إغماضة اتقاء الريح، منتظراً إياه أن يتحدث. البندقية القديمة ما
تزال مستقرة بين أثنى الحصان، ولكنها غير موجهة نحوى. أنا
واع لمدى اتساع السماء من حولى وكذلك الصحراء.

أرغب شفتيه. سيتحدث الآن فى أى لحظة: يجب أن أصغى
بانتباه كى لا يفوتنى أى جزء من الكلام، ولكى بالتالى، أرده
مع نفسى، متمعناً فيه، متمكناً من اكتشاف جواب لسؤال قد
طار فى هذه اللحظة مثل عصفور من ذاكرتى.

بمقدورى أن أرى كل شعرة فى عرف الحصان، كل تجعيدة
فى وجه الرجل، كل صخرة وكل أخدود فى سفح التل.

الفتاة بضفيريتهما السوداوين المعلقتين على كتفها على
الطريقة البربرية، تجثم على حصانها خلفه، رأسها منحني، إنها
أيضاً تنتظر أن يتكلم.

أتنهّد. كم هو مؤسف، أفكر. أصبح الأمر متأخراً جداً
الآن .

إننى أتأرجح حراً طليقاً. يرفع النسيم ثوبى ويتلاعب بجسدى العارى. أنا مسترخ، عائم، فى ثياب امرأة.

كيف يمكن أن تكون لمسة قدمى على الأرض، على الرغم من كونهما مخدرتين عن كل الأحاسيس. أبسط نفسى باعتناء بكامل طولى، خفيفاً مثل ورقة شجرة. مهما كان ذلك الشيء الذى قيد رأسى بقوة، فإن قبضته تتراخى. يتلاشى من داخلى حاجز ذو قضبان حديدية ثقيل.

أنتفس. كل شيء على ما يرام.

ثم ينزع الغطاء. الشمس تبهر عيني، أطرح على قدمى، يدور كل شيء أمامى. أمضى فارغاً من أى معنى.

كلمة طيران تهمس نفسها فى مكان ما عند حافة وعين. نعم إن الأمر صحيح. لقد كنت أطيّر.

أنا أتطلع فى عيني مانديل الزرقاوين، تتحرك شفّته ولكننى لا أسمع كلمة واحدة. أهر رأسى، وأجد أننى ما إن برزت إلى الوجود وانطلقت حتى وجدت أننى غير قادر على التوقف.

يقول، كنت أقول، سنريك الآن شكلاً آخر للطيران.

يقول أحدهم، إنه غير قادر على سماعك. يقول مانديل، إنسه يستطيع أن يسمع. يسحب الأنشطة عن رقبتى ويعقدها حول الحبل الذى يربط رسغى. إقلعه من هنا.

إن استطعت أن أحتفظ بذراعى متصليتين، إن كنت بهلوانا
بدجة مناسبة تسمح لى أن أدير قدماً إلى أعلى وأعقفا حول
الحبل، فسأكون قادراً على التعلق رأساً على عقب من أجل أن
لا أشعر بالأذى: كانت تلك فكرتى الأخيرة قبل أن يبدأوا
برفعى. ولكننى واهن القوى مثل طفل، ترتفع ذراعى بغير
علمى، وعندما تترك قدماى الأرض أحس بتمزق شديد فى
كتفى وكأنما صفائح كاملة من عضلات تتخلع. يصدر من
حنجرتى أول حوار حزين جاف، كأنهمار الحصى. ينزل ولدان
صغيران من الشجرة، ويداً بيد، دون أن ينظرا خلفا، يهرولان
بعيداً. أجار مرة أخرى وأخرى، ليس بمقدورى أن أفعل شيئاً
كى أوقفه، فالصوت صادر عن جسد يعرف نفسه متضرراً
فوق احتمال ترميم ويزار رعبه. لا أستطيع أو أوقف نفسى
حتى لو سمعنى كافة أطفال البلدة. دعونا نتضرع فقط أن لا
يقوموا بتقليد ألعاب من هم أكبر منهم سنة، وإلا فسوف تحدث
فى الغد كارثة من جنث صغيرة متدلّية من الأشجار. أحدهم
يقوم بدفعى وأبدأ فى الطفر خلفاً وأماماً فى قوس يرتفع قدماً
عن الأرض مثل فراشة كبيرة هرمة وجناحها معقوصان معاً،
تجار وتصرخ. أحدهم يبدى ملاحظة، إنه ينادى أصدقاءه
البرابرة، تلك هى لغة البرابرة التى تسمعها'. ضحكة تعلو.

* * *

يبرز في الليل. وقبل أن تهبط الظلمة، يتوجب إحضار آخر معزة إلى الداخل، تغلق البوابات، حارس يوقف عند كل فتحة لينادي بالوقت. طوال الليل. كما يقال، يجوس البرابرة حول المكان وقد صمموا على القتل أو السلب. أطفال في أحلامهم يرون مصاريع التوافذ تتشق والوجه البربرى يطل بنظرة خبيثة. البرابرة هنا! يصرخ الأطفال ولا يمكن إعادة الطمأنينة إليهم. ملابس تختفى من على حبال الغسيل، الطعام من حيث يحفظ، مها كان الفقل متيناً. البرابرة قد حفروا نفقاً تحت الجدران، يقول الناس، انهم يجيئون ويروحون حسبما يشاءون، يأخذون ما يرغبون فيه، لا أحد آمن بعد اليوم. الفلاحون ما يزالون يحرثون الأرض، ولكنهم لا يذهبون منفردين أبداً بل في جماعات. يعملون من دون همّة: البرابرة ينتظرون فقط كي ينضج المحصول، يقولون، قبل أن يُغرقوا المزارع بالمياه ثانية.

لماذا لا يوقف الجيش البرابرة؟ تتذمر الناس. الحياة على الحدود أصبحت صعبة جداً. يتحدثون عن العودة إلى الوطن القديم ولكنهم يتذكرون بعدئذ أن الطرق لم تعد سليمة بسبب البرابرة. الشاي والسكر لم يعد من الممكن شراؤهما من فوق

طاولة العرض مباشرة، ذلك لأن أصحاب المتاجر أصبحوا يخزنون بضائعهم. أولئك الذى يأكلون جيداً يأكلون خلف أبواب مغلقة، خوفاً من إثارة حسد جيرانهم.

قبل ثلاثة أسابيع اغتصبت طفلة. لم يفتقدها أصدقائها فى أثناء لعبهم فى مجارى الري، إلا بعد أن عادت إليهم وهى تنزف غير قادرة على الكلام. استلقت عدة أيام فى منزل ذويها محدقة فى السقف. لم يقنعها أى شىء لحثها على أن تروى قصتها. اعتادت عندما يطفأ المصباح أن تبدأ بالبكاء. يدعى أصدقائها أن البرابرة فعلوا ذلك. لقد رأوه يركض مبتعداً نحو دغل القصب. لقد تعرفوا عليه بربرياً بسبب قبحه. الآن أصبح ممنوعاً على الأطفال اللعب خارج البوابات، والمزارعون يحملون هراوات وحراباً فى أثناء ذهابهم إلى الحقول.

كلما تصاعدت المشاعر ضد البرابرة، انزوى أكثر فى زاويتي، آملاً ألا أذكر.

لقد مضى زمن طويل منذ أن غادرت القوة العسكرية للحملة الثانية بشجاعة فائقة مع أعلامها وأبواقها ودروعها اللامعة وخيولها المتوثبة لدفع البرابرة عن الوادى وتلقيهم درساً سوف لن ينساه أطفالهم وأحفادهم مطلقاً. ومنذ ذلك الحين لم ترد رسالة ولم يأت رسول، ولم يتم أى اتصال. بهجة أزمنة، حينما كان من المعتاد أن تقام استعراضات عسكرية يومية فى

الساحة، عروض للفروسية، معارض أسلحة، قد مضى زمن بعيد على اختفائها. بدلاً منها يمتلئ الجو بإشاعات مثيرة للقلق. يقول بعضهم إن ألف ميل من الحدود بأكمله قد انفجر في نزاع، وإن برابرة الشمال قد وحدت قواتها مع برابرة الجنوب وإن جيش الإمبراطورية لم ييسط نفوذه إلا على مساحات ضئيلة، وإنه في يوم من هذه الأيام سيرغم على التخلي عن الدفاع ضد نقاط الحدود البعيدة مثل هذه، من أجل تركيز مواردها لحماية قلب الوطن. يقول آخرون إننا لا نتلقى أى أخبار عن الحرب لا شىء إلا لأن الجنود قد توغلوا عميقاً في مقاطعة العدو وأنهم منهمكون جداً في توجيه ضربات ثقيلة، على أن يبعثوا رسولا. وسريعاً، يقولون، في الوقت الأقل توقعاً بالنسبة لنا، سيعود رجالنا سيرا إلينا مرهقين ولكن منتصرون وأننا سوف نحظى بالسلام في عصرنا.

من ضمن الحماية الصغيرة التي تركت في الخلف، هناك أعداد من المخمورين أكثر مما عرفت قط في السابق، وأكثر عجرفة نحو سكان البلدة. حوادث عديدة وقعت ذهب فيها الجنود إلى المخازن، حاملين كل ما يريدون وغادروا دون أى يدفعوا الثمن. ما فائدة وضع أجهزة الإنذار بالخطر عندما يكون المجرمون والحرس المدنى هم الأشخاص أنفسهم؟ يتظلم أصحاب المخازن لمائدل، يتولى المسؤولية في ظل نظام الطوارئ في الوقت الذي ذهب فيه جول مع الجيش. يعطى

مانديل الوعود ولكنه لا يفعل شيئاً. ولماذا يفعل؟ إن كل ما يهمه أن عليه أن يبقى محبوباً من قبل رجاله. برغم استعراض لجنة الأمن الأهلية فوق الاستحكامات والنظرة الشاملة التي تلقى أسبوعياً على طول شاطئ البحيرة (للتربص بالبرابرة، على الرغم من عدم القبض قط على واحد منهم)، النظام مهمل.

في الوقت نفسه، أنا المهرج العجوز الذي فقد آخر أثر للسلطة في اليوم الذي أمضاه معلقاً من شجرة في ثياب امرأة يصيح في طلب النجدة، الكائن الفاحش البذء الذي بقي يلحق طعامه أسبوعياً من على رصيف الشوارع مثل كلب لأنه فقد استخدام يديه، أنا لم أعد سجيناً. أنا في زاوية ما من ساحة التكنات، أزحف هنا وهناك بثوبي الفضفاض القذر وعندما ترتفع قبضة نحوي أنكمش مرتعداً. أحياناً مثل بهيمة عند الباب الخلفي يحس بجوع شديد، ربما أبقى على قيد الحياة كدليل على الحيوان الكامن في داخل كل محب للبرابرة. أعرف أنني غير آمن. أقدر أن أتحمس أحياناً ثقل نظرات الحنق تستقر على، لا أرفع بصري، أعرف أنه بالنسبة لبعضهم فإن الإغراء لا بد أن يكون قوياً لتنظيف الساحة بإطلاق رصاصة عبر جمجمتي من نافذة في طابق علوي.

لقد حدث تدفق من اللاجئين إلى البلدة، صيادون من المستوطنات الصغيرة المتناثرة على طول النهر وشاطئ

البحيرة الشمالى، يتحدثون بلغة لا يفهمها أحد، حاملين حاجياتهم المنزلية على ظهورهم فضلاً عن كلابهم الهزيلة وأطفالهم المترنحون يدبون فى ثقاقل خلفهم. عندما جاءوا للمرة الأولى، احتشد الناس حولهم، هل كان البرابرة هم الذين قاموا بطردكم إلى هنا؟ سألوا بوجوه ضارية، يشدون أقواساً وهمية.

لم يسأل أحد ما عن الجنديّة الإمبريالية أو عن حرائق الأدغال التى يضرمونها.

كان هناك فى بادئ الأمر تعاطف مع هؤلاء البدائيين، لناس جلبت لهم الطعام والملابس القديمة، حتى بدأوا ينصبون أسقف القش التى يلتجئون تحتها تجاه جدرانهم فى جانب الساحة بالقرب من أشجار الجوز، وامتك أطفالهم الجرأة الكافية للتسلل إلى مطابخ والسرقة منها، وفى ليلة ما قام قطيع من كلابهم بالدخول إلى زريبة أغنام ومزقوا رقاب دزينة من النعاج. تحولت عندئذ المشاعر ضدهم. اتخذ الجنود موقفاً، أطلقوا النار على كلابهم على مرأى منهم وأيضاً فى صباح يوم من الأيام وعندما كان الرجال ما يزالون عند البحيرة، مزقوا كامل صف ملاجئهم. اختبأت جماعة الصيادين فى أدغال القصب عدة أيام. ثم واحداً بعد واحد بدأت أسقف القش العائدة إليهم تظهر مجدداً، فى خارج البلدة هذه المرة تحت الجدار الشمالى. لقد سمح لأكوأخهم أن تقام ولكن الحراس عند البوابات تلقوا أوامر

لمنعهم من الدخول. الآن وبعد أن أصبح القانون مرتخياً، أصبح بالإمكان رؤيتهم في الصباح وهم ينادون على بضاعتهم من السمك المنظم في خيوط متتقلين من باب إلى باب كل صباح. لأنهم لا يمتلكون خبرة بالنقود، بدأوا يتعرضون للخداع بشكل فظيع، وهم على استعداد للتخلي عن كل شيء مقابل ملء كستبان من شراب الروم.

إنهم أناس نحيلون نوو عظام بارزة، وصدور أشبه بصدر الحمام. نساؤهم يظهرن في حالة حمل مستمرة، أطفالهم معوقو النمو، في قلة من فتياتهم آثار جمال عيون شفاقة، أما في البقية فلا أرى غير الجهل، المكر، والقدارة. وبعد ذلك، ما الذي يروونه هم في، إن وقعت على أعينهم يوماً ما؟ بهيمة تتطلع من خلف بوابة إلى الخارج. الجانب السفلي القذر لهذه الواحات الجميلة حيث وجدوا أماناً مترعزاً.

في يوم ما، يسقط ظل على جسمي حيث أغفو في الساحة، قدم تخزني، أرفع رأسي وأتطلع في عيني مانديل الزرقاوين. يقول، هل نقوم بإطعامك بشكل جيد. هل بدأ وزنك يزداد من جديد؟

أومئ برأسي، جالساً عند قدميه.
لأننا لا نقدر على إطعامك إلى الأبد.
يمتد بيننا صمت طويل يتأمل فيه أحدهما الآخر.

متى ستبدأ العمل من أجل كسب قوت يومك؟

إننى سجين فى انتظار محاكمة. لا يعمل السجناء الذين ينتظرون محاكمة من أجل كسب أرزاقهم. هذا هو القانون. تصرف نفقاتهم من خزينة الدولة .

ولكنك لست بسجين، أنت حر فى الذهاب إلى حيث تشاء .

ينتظرنى كى ألتقط طعام العرض الذى قدمه لى بشكل أخرق. لا أقول شيئاً. يمضى فى كلامه.

كيف تكون سجيناً فى حين أننا لا نملك محضراً لك؟ هل تعتقد أننا لا نقوم بمسك سجلات؟ ليس لدينا سجل خاص بك. يجب أن تكون رجلاً حراً.

أنهض وأتبعه عبر الساحة نحو البوابة. يناوله الحارس المفتاح هل ترى؟ البوابة مفتوحة .

أتردد قبل أن أجتازها. هناك شىء ما أريد معرفته. أتطلع إلى وجهه مائلاً، فى العينين الصافيتين، نافذتى نفسه، إلى الفم الذى من خلاله تعبر روحه عن حقيقتها. أقول، هل تمنحنى دقيقة من وقتك؟ نقف عند البوابة، والحارس واقف فى خلفية الساحة متظاهراً بأنه لا يسمع. أقول، ألم أعد شاباً على الإطلاق، وأى مستقبل كان لى فى هذا المكان قد دمر. أومئ نحو أطراف الساحة، نحو الغبار الذى يندفع أمام الرياح

الساخنة لأواخر الصيف حاملاً الآفات والأوبئة. فضلاً عن أنني قد مت مئة واحدة قبل الآن، على تلك الشجرة، ولكنك فقط قررت أن تبقى على حياتي. ولهذا السبب، هناك شيء ما أريد معرفته قبل ذهابي. إن لم يكن الوقت قد أصبح جد متأخراً، والبرابرة عند البوابة. أحس بابتسامة مكرة ضئيلة تمس شفتي برقة، لا أستطيع تقاديها. ألقي نظرة خاطفة على السماء. أعذرني أن كان السؤال وقحاً، ولكنني أريد أن أطرحه عليك: كيف تجد الأمر ممكناً بعد أن كنت... تعمل مع الناس؟ ذلك سؤال سألت نفسي عنه على الدوام حول جلادين وأناس آخرين مثلهم. أنتظر! أصغ إلى دقيقة أخرى، أنني صادق في ما أقول، لقد تطلب الأمر مني للوصول إلى هذا الشيء الكثير، بما أنني كنت خائفاً منك، لم تكن هناك ضرورة لإخبارك به. أنا متأكد من أنك تعي المسألة. هل تجد سهولة في تناول الطعام بعدئذ؟ لقد ظننت أن المرء سوف يكون في حاجة إلى غسل يديه. ولكن أي غسل اعتيادي لن يكون كافياً، المرء يحتاج إلى تدخل كهنوتي، إلى شعائر تطهير، ألا تعتقد ذلك؟ شكل من أشكال تطهير الروح أيضاً - تلك هي الكيفية التي ظننتها. وإلا كيف يكون بالمستطاع العودة إلى حياة يومية - الجلوس لتناول الطعام، مثلاً، وتقاسم الخبز مع أفراد عائلته أو مع رفاقه؟

يرد ولكن بيد متمهلة أشبه بمخلب، أنجح في الإمساك بذراعه. أقول، لا تخطئ فهمي، إنني لا ألومك أو أتهمك، لقد

تجاوزت ذلك منذ زمن بعيد. تذكر، أننى أيضاً قد كرست حياة
للقانون، أعرف معاملاته، أعرف أن عوامله هى فى الغالب
مبهمه. إننى أحاول أن أفهم فحسب. أحاول أن أفهم النطاق
الذى تحيا ضمنه. إننى أحاول كيف تتنفس أنت وتأكل وتعيش
من يوم إلى يوم. ولكننى لا أستطيع! ذلك ما يقلقنى! لو كنت
هو، أقول هذا لنفسى، فستحس يدائ بأنهما قدرتان جداً وأنهما
ستسببان لى غصه

يسحب نفسه منى طليقاً، ويضربنى بقسوة فى صدرى مما
يجعلنى ألث وأندفع إلى الخلف. يصيح، أنت يا ابن الزنا! أنت
أيها المجنون الداعر! اخرج من هنا! اذهب ومت فى مكان ما!

ومتى ستقدم على تقديمى للمحاكمة؟ أصبح نحو ظهره
المتراجع. لا يبالى مطلقاً.

لا يوجد أى مكان للاختفاء. ولماذا يجب أن أفعل؟ أكون من
الفجر وحتى الغسق تحت مرمى الأنظار فى الساحة، متجولاً
حول الإسطبلات أو جالساً تحت ظل الأشجار. وتدرجياً، ومع
انتشار الكلام فى الجوار من أن القاضى الهرم قد امتص محنته
واجتازها، تكف الناس عن الصمت أو إدارة الظهر عندما
أصبح قريباً. أكتشف أننى لست بدون أصدقاء، على الأخص
بين النساء، اللواتى يبدن توقهن لسماع وجهة نظرى فى
القصة. متجولاً فى الشوارع، أمر بالزوجة الممتلئة الجسد

لأمين الإمدادات والتموين في الجيش، وهي تعلق ملابس الغسيل. نتبادل التحيات، تقول، كيف حالك، سيدى؟ سمعنا أنك قد اجتزت زمناً صعباً للغاية. تشرق عيناها مع حذر شديد. ألا تدخل لتناول قحاً من الشاي؟ .

وهكذا نجلس معاً عند مائدة المطبخ، ونقوم بإرسال الأطفال ليلعبوا في الخارج. وبينما أحتسى الشاي وأكل بمثابة من إناء فيه نوع من البسكويت اللذيذ من دقيق الشوفان، تبدأ هي بأولى الخطوات في لعبة الطرق الملتوية للسؤال والجواب؟ لقد اختفيت زمناً طويلاً، تساءلنا في شك إن كنت ستعود يوماً... وفضلاً عن كل ذلك العناء الذى تعرضت له! كم قد تغيرت الأمور! لم يكن شيء من هذه الفوضى عندما كنت مسؤولاً. كل هؤلاء الغرباء من العاصمة، يفسدون الأمور! أتسلم دورى، أتتهد: نعم، إنهم لا يعرفون كيف ندير الأمور فى الأقاليم، أليس كذلك! هل يعرفون: كل هذا العناء من أجل فتاة... التهم قطعة أخرى من البسكويت. أحرق فى الحب، يثير السخرية ولكنه ينال السماح فى النهاية. بالنسبة لى كان الأمر ببساطة بديهياً أن أعود بها إلى عائلتها، لكن كيف يمكن للمرء أن يجعلهم يدركون ذلك؟ أتحدث بنحو غير مترابط، تستمع إلى أنصاف الحقائق هذه، تومى برأسها، ترقبني مثل صقر، نتظاهر أن الصوت الذى نسمعه هو ليس صوت الرجل الذى تلى من شجرة مستجداً طالباً الرحمة بصوت عال بدرجة توقظ

الموتى. على أى حال، لنأمل أن كل ذلك قد انتهى. ما زلت أعانى من آلام - ألمس كتفى جسد المرء يشفى ببطء كلما تقدم فى السن...

وهكذا أغنى لفوت يومى. وإن كنت ما أزال جائعاً فى المساء، إن أنتظر عند بوابة الثكنات من أجل الصفارة التى تدعو الكلاب كى أنسلل إلى الداخل بهدوء تام، فأنا أتمكن عادة أن أحصل بالتملق للخاديمات على بقايا من طعام عشاء الجنود، صحناً من الفاصوليا لباردة أو ما يكشط من القعر الدسم لفرد الحساء أو نصف رغيف من الخبز.

أو يكون بمقدورى فى الصباحات السير الهوينى نحو الفندق، ومتكئاً على مصراع باب المطبخ، أستنشق كل الروائح الطيبة، نباتات عطرية وخميرة وبصل مفروم مقلّى وسمن ضأن مدخن. مى الطباخة تدهن مقلاة التحميص: أرقب أصابعها الماهرة وهى تتغمس فى قدر شحم الخنزير ثم تطفى المقلاة بثلاث دوائر فى حركة سريعة. أفكر فى معجناتها، وفطيرتها الشهيرة من لحم الخنزير المقدد والسبانخ والجبن، وأحس باللعب ينبجس فى فمى.

تقول، رحل الكثير من الناس. وهى تستدير نحو كرة العجين الكبيرة، لا أستطيع حتى البدء فى إخبارك. مجموعة كبيرة غادرت قبل بضعة أيام فقط. إحدى الفتيات اللواتى يفمن

هنا - تلك الصغيرة ذات الشعر السرح الطويل، ربما تتذكرها، كانت واحدة منهم، غادرت مع رفيقها. تقول ذلك لى بصوت منخفض، وأحس بالامتنان لمراعاتها ذلك. وتضيف، الأمر يكون بطبيعة الحال معقولا، إن كنت تتوى الرحيل، فعليك المغادرة الآن إنه طريق طويل، خطر أيضاً، والليالى بدأت تغدو أكثر برودة: تتحدث عن الجو، عن الصيف الذى مضى ودلائل اقتراب الشتاء، وكأننى حيث كنت فى زنزانتي التى لا تبعد غير ثلاثمائة خطوة من المكان الذى نحن فيه، كان قد ختم على من الحر والبرد، الجفاف والرطوبة. بالنسبة لها، أكاد أدرك، أننى اختفيت ومن بعد ذلك ظهرت ثانية، وما بين المرحلتين، لم يكن جزءاً من العالم.

كنت مصغياً أو مىء وأحلم بينما كانت تتكلم. الآن أبدأ فى الكلام. أقول، تعرفين أنت، عندما كنت فى السجن - فى التكنات، ليس فى السجن الجديد، حيث احتجزت، كنت جد جائعاً بحيث أننى لم أفكر يوماً ما بامرأة، بالطعام فقط. فقط عشت من وقت تتاول وجبة إلى أخرى. لم يكن هناك أبدأ ما يشبعنى. كنت أزرد طعامى مثل كلب وكنت أريد المزيد. وكان فضلاً عن ذلك، الكثير من الألم فى أوقات مختلفة: نزاعى، يداى، وأيضاً هذا، - ألمس الأنف الذى غداً أغلظ، الندبة القبيحة تحت عيني والذى بدأت أشعر أن الناس، بافتعال، مفتتنين بها. لما حلمت بامرأة، حلمت بواحدة تأتى ليلاً وتتزع

الآلم بعيداً منى، حلم طفل. الشيء الذى لم أعرفه كان كيف أن
لرغبة الشديدة تخزن نفسها فى تجاويف عظام المرء ثم تفيض
إلى لخارج يوماً ما دون تحنير. ما ذكرتينه قبل دقيقة مضت،
على سبيل المثال - الفتاة التى أشرت إليها - كنت جد متعلقاً
بها، أعتقد أنك تعرفين ذلك، على الرغم من أن اللياقة منعك
من القول... عندما قلت إنها قد رحلت، أعترف، كان الأمر
وكاننى تلقيت ضربة هنا، فى صدر. ضربة .

تتحرك يداها بمهارة، تضغطان على دوائر نافرة عن صفحة
العجين بحافة الطاس، ملتقطة ما يتعلق بالقعر، تلفها معاً،
تجنب عيني.

ذهبت إلى غرفتها فى الطابق العلوى فى الليلة الماضية، إلا
أن لباب كان مقفلاً. ولكننى خلعت القفل. كان لديها العديد من
الأصدقاء، لم أفكر أبداً بأننى كنت لوحيد... ولكن ما الذى
كنت أريده؟ مكان ما للنوم، بالتأكيد، ولكن المزيد أيضاً. لماذا
التظاهر؟ كلنا يعرف أن ما يبحث عنه رجال مسنون هو
استعادة شبابهم بين ذراعى امرأة شابة .

تضرب العجينة، تجبلها، تفردها: هى نفسها امرأة شابة لديها
أطفالها، يعيشون مع أم بارعة: أى عنصر للإعجاب أشكله
بالنسبة إليها حينما أمضى متحدثاً بشكل مفكك عن الألم
والوحدة؟ منذهلاً أستمع إلى الحديث المنبثق منى. دع كل شيء

يقال! حدثت نفسي عندما واجهت في المرة الأولى أولئك الذين قاموا بتعذيبى. لماذا تطبق شفقتك بغباء على بعضهما؟ أنت لا تملك أسراراً. دعهم يعرفوا أنهم يتعاملون مع لحم ودم! أعلن عن هول ما جرى لك، أصرخ عندما ينتابك الألم! إنهم يزدهرون مع الصمت العنيد: إنه يؤكد لهم أن كل نفس هي قفل يتحم عليهم تقبها بطول أناة. عرّ نفسك! افتح قلبك! وهكذا صحت وصرخت وقلت كل ما خطر ببالى. منطلق مكر! ذلك أننى الآن عندما أرخى لسانى وأدعه يبحر حراً لا أسمع غير أنين رقيق لمعدم. 'هل تدرين أين نمت ليلة البارحة؟ أسمع نفسى تقول، هل تعرفين ذلك الجناح الممتد من مخزن القمح؟...'

الطعام، أكثر من أى شىء آخر، هو ما أتوق إليه، تزداد حديثه مع انقضاء كل أسبوع. أريد أن أكون رجلاً سميناً من جديد. واقع أنا تحت تأثير الجوع ليلاً ونهاراً. استيقظ صباحاً ومعدتى تتألم، لا أقدر أن أنتظر بدء جولتى اليومية، أتباطأ عند بوابة التكنات مستشقاً شذاً دقيق الشوفان الرطب المخفف وأنتظر كشط قعر القدر المحروق، أتملق للصغار ليقذفوا لى ثمار الثوت من فوق الأشجار، أتمدد على سياج حديقة كى أسرق خوخة أو اثنتين، عابراً من باب إلى باب، رجل مئى بسوء الحظ، ضحية التيمم، لكنه شفى الآن، جاهز بابتسامة ليأخذ ما يقدم له، شريحة من الخبز والمربى أو طبق من

الفاصولياء والبصل، والفواكه باستمرار، مشمش وخوخ
ورمان، ثروة صيف سخى. أكل مثل فقير معدم. ألتهم بشهية
كبيرة، أمسح الإناء حتى يبدو نظيفاً جداً ويسرّ قلب من يراه.
فلا عجب أننى أزحف يوماً بعد يوم إلى قوائم الفاضلين لأهل
بلدتى.

وكم أقدر على المداهنة، وكم أقدر على التوسل! حصلت
أكثر من مرة على وجبة خفيفة أعدت لى بشكل خاص: شرائح
من لحم الضأن مقلية ومتبلّة بالفلفل والثوم المحمر، أو شرائح
من فخذ الخنزير والطماطم على رغيف من خبز، يتخللها جبن
من حليب الماعز. أحمل إن استطعت ماء أو حطب الوقود
بالمقابل، أفعل ذلك بكل سرور، كعملة رمزية، على الرغم من
أننى لم أعد قوياً كما كنت فى السابق. وإن كنت اليوم قد
استنفدت كافة مصادرى فى المدينة - لأنه يتحتم على أن
أحرص على ألا أكون ثقيلاً على المحسنين إلى - فبإمكانى
على الدوام التمشى نحو مخيم الصيادين لأساعدهم فى تنظيف
السماك. لقد تعلمت عدداً قليلاً من مفردات لغتهم، أدركت دون
أن يساورني أى شك، أنهم يدركون ماذا يعنى الأمر أن يكون
المرء متسولاً، وهم يقاسموننى طعامهم.

أريد أن أغدو سينماً من جديد، أسمن من أى وقت مضى،
أريد بطناً تقرقر باطمئنان عندما أطوى كفى فوقها. أريد أن

أحس أن خدى يغطس فى وسادة رقبتى ويتمايل ثدياى عندما
أمشى. أريد حياة ذات قناعات بسيطة. أريد (أمل عقيم!) أنا لا
أعرف الجوع مطلقاً.

* * *

ثلاثة أشهر مضت على رحيلها، ولا أخبار حتى الآن عن
القوة الخاصة بالجملة. بدلاً عنها، أقاويل فظيعة تنتشر فى كل
مكان: من أن القوة قد وقعت فى شرك الصحراء وأبيدت عن
آخرها، الأمر الذى كان خافياً علينا أنها قد استدعيت من أجل
الدفاع عن الوطن. تاركة قوى الحدود للبرابرة كي يلتقطوها
مثل فاكهة متى ما شاءوا. وسائط النفل تنتقل أسبوعياً كل من
توحى له حكمته أن يخادر البلدة، متوجهين شرقاً، كل عشرة أو
اثنتى عشرة عائلة تسافر معاً، لزيارة الأقارب، وهو تعبير
لطيف للتعبير عن شىء بغىض، حتى تستقر الأمور مجدداً.
يغادرون، فى مقدمة الركب قافلة التموين، يدفعون عربات يد،
متوجهين شرقاً، يحملون رزماً فوق ظهورهم، أطفالهم الصغار
جداً، محملون مثل حيوانات. بل إننى حتى رأيت عربة طويلة
ذات أربع عجلات تجرها الخراف. لم يعد بالمقدور شراء
حيوانات حمول.

أولئك الذين يغادرون هم نوو تفكير صائب، يتهامس
الأزواج والزوجات الذين يبقون يقظين فى أفرشتهم، يرسمون

الخطط، يفكرون فى الشروع فى بدايات جديدة لحياتهم. إنهم يتركون بيوتهم المريحة خلفهم، يقرضونها حتى نعود ، آخذين المفاتيح معهم كتذكار. ما إن يحل اليوم التالى، حتى تدخل زمرة من الجنود عنوة إليها، يسرقون البيوت، يكسرون قطع الأثاث، يلوثون أرضيتها. يتعاضم الاستياء ضد أولئك الذين يرونيهم وهم يقومون بالاستعداد للسفر. توجه إليهم الإهانات علناً، يتعرضون للاعتداء أو السرقة، مع حصانة لفاعلين. يحدث الآن عائلات تختفى ببساطة فى عتمة الليل، يرشون الحراس من أجل فتح البوابات لهم، متخذين طريق الشرقى منتظرين فى محطة التوقف الأولى أو الثانية، حتى يتجمع عدد كاف من العوائل كى تسافر فى أمان.

الجند يضطهدون البلدة. لقد عقدوا اجتماعاً فى الساحة أضىء بكشافات نور كهربائية لشجب الجبناء ولخونة ومن أجل التأكيد على الولاء للإمبراطورية. باقون، أصبح شعاراً للإخلاص: تكسى الجدران فى كل مكان بهذه الكلمات. أقف فى الظلام عند نهاية حشد كبير فى تلك الليلة (لم يمتلك أحدا شجاعة كافية للبقاء فى المنزل) أستمع إلى تلك الكلمات تتشد بضجر، وبصورة آلية من قبل آلاف الحناجر.

سرت فى ظهري رعدة. بعد الاجتماع قاد الجنود مسيرة طافت الشوارع. أبواب رفست، نوافذ حطمت، نار أوقدت فى

أحد المنازل. احتفال صاحب مخمور في الساحة استمر حتى ساعة متأخرة من الليل. قمت بالبحث عن مانديل ولكنني لم أراه. ربما أن السبب كان أنه قد فقد السيطرة على الحامية، وكان الجنود، إن استدعت الضرورة، على استعداد لتقبل أوامر من شرطى.

أقام هؤلاء الجند في بادئ الأمر في البلدة، غرباء عن عاداتنا، مجندين من مختلف أنحاء الإمبراطورية، استقبلوا ببرود، نحن لا نريدهم هنا. قالت الناس كلما أسرعوا لمحاربة البرابرة كلما كان ذلك أفضل. رفض أصحاب المتاجر إقراضهم بالدين، أغلقت الأمهات على بناتهن. ولكن بعد أن ظهر البرابرة عند عتبات بيوتنا، تغير الأمر. والآن وبعد أن بدوا الشيء الوحيد الذى يقف بيننا وبين الدمار، غدا هؤلاء الجنود مركزاً للتملق بلهفة. لجنة من المدنيين تفرض ضريبة أسبوعية من أجل إقامة وليمة لهم، يشوون خروفاً كاملاً على السفود، يبددون عدداً من غالونات الرّم. فتيات البلدة أمامهم لأصطيادهن. يرحّب بهم فى كل ما يريدونه، ما دام ذلك سيجعلهم يبقون ويحرسون حياتنا. وكلما ازداد التملق إليهم ازدادوا طغياناً. نعرف نحن أنه لا يمكننا الاعتماد عليهم. ما الذى سيبقيهم مع خلو مخزن الحبوب واختفاء قوة الجيش الأساسية مثل دخان إن توقفت الولاثم مرة واحدة؟ كل ما نقرر أن نتمنى هو قسوة السفر فى الشتاء سوف تعوق تخليهم عنا.

التحذيرات الأولية للشتاء فى كل مكان. يرتفع نسيم قارس من لشمال فى الساعات المبكرة من الصباح: المصاريع نصر، لنائمون يتجمعون بعضهم إلى بعض، الحراس يلفون معاطفهم الفضفاضة بإحكام حولهم وقد أداروا ظهورهم لمواضعهم الأصلية. أصبحوا أنا فى بعض الليالى، مرتجفاً فوق فراشي المكون من عدد من أكياس ولا أتمكن من معاودة النوم. تبدو الشمس عند إشراقها أبعد مسافة من اليوم الفائت، تصبح الأرض باردة حتى قبل المغيب. أفكر فى قوافل المسافرين المنتظمين فى صف واحد، متوجهين نحو وطن أم لم يره معظمهم، يدفعون عربات ليد، يخسون خيولهم، يحملون أطفالهم، يتدبرون بحرص مؤونتهم، يتنازلون يوماً بعد يوم عند جوانب الطرق عن أجهزتهم، أدوات مطبخ، لوحات. ساعات، لعب، أى شىء يعتقدون أنه سوف ينفذ ممتلكاتهم من الدمار قبل أن يدركوا أن قصارى ما سيتمنون هو الهرب بأرواحهم. الجوفى خلال أسبوع أو أسبوعين سيكون غداً جداً بالنسبة للجميع ولكنه الأقسى لمن يشرع فى رحلة. ستهب الريح الشمالية طوال اليوم، تجيء مهلكة الحياة على سيقان النباتات، حاملة بحراً من غبار عبر النجد الفسيح، تجيء بهبات من برد وثلج. لا أقدر على تصور نفسى، بملابسى البالية ونعلى القديمين، فى يدى عصا، رزمة على ظهري، باقياً على قيد الحياة فى تلك لمسيرة الطويلة. لن يتوق قلبى إلى تلك الأمر.

أى حياة يمكن أن أصبو إليها بعيداً عن هذه الواحات؟ حياة
كاتب حسابات معدم فى العاصمة، عائد كل مساء بعد الغسق
إلى غرفة مستأجرة فى شارع خلفى، وأسنانى تتساقط تدريجياً،
وصاحبة المنزل تتشمم عند الباب. إن كان على أن أنضم إلى
الهجرة الجماعية سيكون ذلك مثل واحد من أولئك الناس الذين
ينسلون فى يوم ما خارج خط السير، يستقرون فى حمى
صغرة، وينتظرون مجيء البرد الأخير كى يتسلل ببطء نحو
أرجلهم.

* * *

أتجول فى الشارع الفسيح نازلاً منحدرًا إلى شاطئ البحيرة.
الأفق الممتد أمامى قد تلون تَوًّا بالرمادى. أغوص فى الماء
الرمادى للبحيرة. الشمس من خلفى تشرع فى المغيب بخطوط
ذهبية وقرمزية. تصلنى من بين الأخاديد أولى أغنيات صرار
الليل. هذا عالم أعرفه وأحبه ولا أريد أن أفارقه. لقد سرت فى
هذا الطريق ليلاً منذ شبابى ولم يلحق بى أى أذى. كيف يمكننى
أن أصدق أن الليل ملئ بأشباح مرفرفة للبرابرة: لو كان
للغرباء وجود فى هذا المكان لكنت أحسست به تماماً. انسحب
البرابرة بقطعانهم نحو أعماق وديان الجبال، فى انتظار أن
يحمس الجنود بالتعب ويرحلوا. عندما يحدث ذلك سيظهر
البرابرة من جديد... سيقومون برعى مواشيهم ويتركوننا

لحالنا، وسنزرع حقولنا ونتركهم لحالهم، وسيستعاد السلام، في بضعة أعوام على الحدود.

أجتاز الحقول التي خربت، والتي سويت الآن وحرثت حديثاً، أعبر قنوات الري وجدار الساحل. الأرض تحت أخمص قدمي تزداد نعومة، وسرعان ما أسبق أنا في المسنفعات المبتلة، شق طريقى عبر أدغال القصب، أوسع الخطى، أغوص حتى كاحل القدمين في الماء مع آخر الضياء البنفسجي لغسق. ضفادع تغطس في الماء بقوة أمامي، أسمع تقريباً خشخشة خافتة لريش طائر المستنقعات، وهو يقرفص مستعداً للطيران.

أخوض أعماق، مفرقاً العيدان بيدي، حاساً ببرودة لوحل بين أصابع قدمي، الماء الذي يحتفظ بدفء الشمس مدة أطول من الهواء، يقاوم ثم يستسلم، قبل كل خطوة. في الساعات الأولى للصباح، يدفع الصيادون زوارقهم المسطحة القعر بأعمدة عبر السطح الهادئ ثم يرمون شباكهم. يالها من حياة مطمئنة لكسب العيش. ربما يتحتم على ترك مهنة التسول لأنضم إليهم في مخيمهم خارج السور، أبني لنفسي كوخاً من الطين والقصب، أتزوج إحدى بناتهم الجميلات، أولم عندما يكون الصيد وفيراً، أضيق حزمي عندما لا يكون.

في عمق يصل إلى ريلة الساق، أخوض في الم المهدئ،

أطلق العنان لنفسى فى هذه الرؤيا الكثيبة. إننى لست غير واع
ما تدل عليه أحلام اليقظة هذه، أحلام عن التحول إلى إنسان
ضار غير مفكر، اتخاذ السبيل البارد عائداً إلى العاصمة،
التماس طريقى خارجاً إلى خرائب الصحراء، العودة إلى
الحجز فى زنزانتى، البحث عن البرابرة وتقديم نفسى لهم
ليفعلوا بها ما يشاؤون. إنها بلا استثناء أحلام نهايات المطاف:
أحلام ليس عن كيف تعيش ولكن كيف تموت. وأنا أعلم أن كل
واحد فى تلك البلدة المسورة الغارقة الآن فى الظلام (أسمع
الندائين اللذين يعلنهما البوق مشيراً إلى موعد إغلاق البوابات)
مشغول البال بالأمور نفسها. كل واحد ما عدا الأطفال! الأطفال
لا تساورهم الشكوك مطلقاً فى أن الأشجار الكبيرة العتيقة التى
فى ظلها يلعبون ستبقى واقفة إلى الأبد، وأنهم سيكبرون يوماً
ويصبحون أقوياء مثل آبائهم، مثمرين كأمهاتهم، وسيعيشون
ويغتنون ويربون أطفالهم، ويتقدمون فى السن فى البقعة عينها
التى ولدوا فيها. ما الذى جعل الأمر غير ممكن بالنسبة لنا أن
نعيش زمننا مثال أسماك فى الماء، مثل طيور فى الهواء، مثل
أطفال؟ إنه خطأ الإمبراطورية! إمبراطورية قد خلقت مجريات
التاريخ. إمبراطورية حدثت وجودها ليس فى زمن ناعم يلتف
مع دورة المواسم ولكن فى زمن مرتج من صعود وانهار، من
بداية ونهاية، من كوارث. إمبراطورية تحكم على نفسها أن
تعيش فى التاريخ وتتأمر ضد التاريخ. فكرة واحدة فقط تشغل

العقل الخفى للإمبراطورية: كيف لا تنتهى، كيف لا تموت،
كيف تطيل عصرها. إنها فى النهار تلاحق أعداءها، إنها
مراوغة وقاسية، ترسل كلاب صيدها إلى كل مكان. وهى فى
الليل تغذى نفسها على تخيلات لكوارث: نهب المدن، اغتصاب
السكان، أهرامات من عظام، فدادين من خراب. رؤيا مجنونة
خبيثة أيضاً: غائص أنا فى رواسب الطين، لست أقل ثلوثاً بها
فى العميد جول فى تعقبه أعداء الإمبراطورية عبر صحراء لا
حدود لها، بسيف مستل من غمده لتقطع بربرى بعد بربرى
وفى النهاية يجد واحداً وينبحه والذى لابد أن يكون قدره (أو
إن لم يكن فقد ابنه إنن أو قدر حفيده الذى لم يولد بعد) أن
يصعد البوابة البرونزية للقصر الصيفى ويطيح بالكرة التى
يعلوها نمر هائج والتى ترمز للسيادة الأبدية، بينما يهمل رفاقه
ويطلقون بنادقهم فى الهواء.

لا قمر فى السماء. أتحس طريقى فى الظلمة عائداً إلى
الأرض الياবেسة ثم إلى فراشى من الحشائش، ملتفاً بمعطفى
العريض، وأستغرق فى النوم. النجمة الحمراء بالكاد قد
تحركت فى السماء.

فى الوقت الذى أجتاز الطريق نحو مخيم الصيادين، يبدأ
كلب فى النباح: فى لحظة ينضم إليه آخر وينفجر الابل ضجة،
صياحات تحذير، صراخ أصبح مرعوباً بأعلى صونى، ما من

شيء ولكن لا أحد يسمعى. أقف حائراً فى منتصف الطريق. أحد ما يجتازنى راكضاً منحدرأ نحو البحيرة، جسم آخر ينقذف على، امرأة. أعرف ذلك فى الحال، تلهث رعباً بين ذراعى قبل أن تتحرر وتختفى. هناك كلاب أيضاً، ترمجر من حولى: أدور بسرعة حول نفسى وأصرخ عالياً عندما يقضم أحدهم قدمي، يمزق جلدى، ثم يتراجع. العواء المجنون يحيط بى تماماً. كلاب البلدة تستجيب من خلف الأسوار، أقرص على الأرض، وأدور فى حلقة، متحفزاً للهجوم التالى. النحيب المعدنى للأبواق ينطلق عبر الهواء، تتبع الكلاب أعلى من قبل. أجر قدمي ببطء نحو الخيم، إلى أن يلوح أحد الأكواخ فجأة فى الأفق. أزيح جانباً حصيرة معلقة على مدخل الباب وأعبر إلى الدفء المتعفن حيث كان أناس حتى قبل دقائق قليلة ينامون.

الضجة تموت فى الخادج، ولكن لا أحد يعود. الهواء فاسد ويبعث على النعاس. أود أن أنام، مع ذلك يقلبنى رجع صدى ذلك الاصطدام الناعم بى فى الطريق. مثل كدمة، يستبقى جسدى أثر طبعة الجسد الذى أرتاح لدقائق على صدرى. أنا خائف مما أنا مؤهل له: من العودة غداً فى وضوح النهار متوجعاً من الذكرى وأطرح أسئلة حتى أكتشف من كانت تلك التى هرعت نحوى فى الظلام لكى أمارس الحب معها بالتالى، طفلة أم امرأة، مغامرة حسية مضحكة أخرى أيضاً. ليس من

حدود لحماقة رجال فى مثل سنى. عذرنا الوحيد هو أننا لا نترك علامة ما تخصصنا على الفتيات اللاتى ينتقلن بين أيدينا. رغباتنا معقدة، ممارساتنا الحب لها طقوس، نشوتنا الخرقاء سرعان ما تنسى بأجمعها، إنهن لا يباليين بحركاتنا المهتاجة فى حين يندفعن باستقامة كالسهام إلى أذرع الرجال الذين سيحملون لهم أولادهم، شباب أقوىاء صريحون. ممارساتنا للحب لا ستتذكره الفتاة الأخرى ذات الوجه الخالى من التعبير: أنا بمعطى الحريرى المنزلى ومظهرى البائس وعطورى وزىوتى وملذاتى التعيسة، أم ذلك الرجل الذى تعوزه الحرارة والقناع على عينيه والذى أعطى الأوامر وتأمل الأصوات العميقة لألمها؟ وجه من كان آخر ما رآته بوضوح على الأرض غير ذلك الوجه خلف القضبان المتوهجة؟ على الرغم من أننى أنكمش مذلة، حتى الآن، يتحتم على أن أسأل نفسي فيما إذا كنت، عندما تمددت ورأسى عند قدميها، مدلاً ومقبلاً الكاحلين المكسورين، فى أعماق قلبى أسفاً لأننى لم أتمكن من أن أطبع نفسى عليها بالعمق نفسه. مهما ستكون درجة الحنان التى ستعامل بها من قبل أهلها، فإنها لن تحب وتتزوج بالطريقة الاعتيادية: إنها وإلى نهاية حياتها ستبقى موسومة كملكية خاصة لغريب، ولن يقترب منها أحد ما إلا بروحية حسية مشفقة كئيبة كشفتها هى ورفضتها فى. لا عجب أنها استغرقت فى النوم غالباً، لا عجب أنها كانت أسعد حالاً وهى تقشر

الخصروات من نومها على فراشي. منذ تلك اللحظة التي توقفت فيها قدمي أمامها عند بوابة التكنات، لا بد أنها قد أحست بجو ضار من خداع يطوقها: حسد، شفقة، قسوة متكررة جميعاً بوصفها رغبة. وفي علاقتي الحسية بها لم يكن الدفاع بل الرفض المجهد للدفع! أتذكر ابتسامتها الهادئة. منذ اللحظة الأولى تماماً عرفتني مضلاً مخادعاً. أصغت إليّ ثم إلى قلبها، وتصرفت صواباً بحسب أهواء قلبها. لو أنها فقط كانت قد وجدت الكلمات لتحديثي، كان عليها أن تقول، الأمر ليس كما تفعله، أن توقني وأنا في أثناء الفعل، إن أردت أن تتعلم كيف تمارسه، عليك أن تسأل صديقك ذا العينين السوداوين. وكان لزاماً عليها أن تضيف، كي لا تتركني بلا أمل: ولكن إن أردت أن تحبني عليك أن تدبر ظهرك له وتتعلم درساك في مكان آخر. لو كانت قد أخبرتني آنذاك، لو كنت قد فهمتها، لو كنت في وضع يسمح لي أن أفهمها، لو كنت صدقتها، لو كنت في وضع يسمح لي أن أصدقها، لربما أنقذت نفسي من عام من حركات مضطربة غير مجدية للتفكير.

قياساً لم أكن، كما أحببت أن أعتقد، المنغمس الساعي وراء المآذات مقابل العميد القاسي المتصلب. كنت الأكنوبة التي ترويه الإمبراطورية لنفسها في الأوقات الهينة. وكان هو الحقيقة التي ترويه الإمبراطورية لنفسها عندما تهب الرياح الجافة. وجهان للسلطة الاستبدادية، لا أكثر، لا أقل. ولكنني

سأيرت للظروف، تطلعت إلى ما حول هذه الحدود الغامضة، هذا المكان المنعزل النائي ومواسم صيفها المغبرة وعرباتها المحملة بالشمس وقيلولاتها الطويلة ومواقعها العسكرية غير المتغيرة، والطيور المائية التي تهاجر منها وتعود إليها عاماً بعد عام جيئة وذهاباً عبر صفحة البحيرة المبهرة غير المتوجة، وقلت لنفسى، كن صبوراً، سيرحل فى يوم من هذه الأيام، وسيعود الهدوء، عندئذ ستصبح قيلولاتنا أطول، وسيوقنا أكثر صدى، سيتسلل الحارس نازلاً من برجه ليمضى ليلته مع زوجته، سيتفتت مدفع الهاون حتى تعشش السحالي بين قطع الآجر ويطير البوم خارجاً من الكنيسة، والخط الذى يشير إلى الحدود على الخرائط سيزداد غموضاً وعمّة حتى يصبح منسيين، منعمين . هكذا أغويت نفسى، متخذاً واحدة من عدة انعطافات خاطئة فى طريق يبدو صحيحاً ولكنها أوصلتني إلى قلب متاهة.

أقرب أنا فى الحلم منها متجهاً نحو الساحة المغطاة بالثلج. اسير فى بادئ الأمر: ثم، وبعد اشتداد قوة الريح، أغدو مندفعاً نحو الأمام بكتلة ثلجية دوامة، تمتد ذراعاً على الجهتين والريح تجتنب معطفى الفضفاض مثل شراع قارب. مستجمعاً السرعة، تنزلق قماي على الأرض، أنقض على الكائن المتوحد عند زاوية الساحة. أفكر، إنها لن تستدير فى الوقت المناسب لترانى أفتح فمى كى أصبح محذراً. يصل سمعى

شكوى خافتة، تتذبذب مع الريح، تنو من السماء كقصاصة من ورق. إننى فوقها تقريباً، بل إننى بدأت أعد نفسى للصدمة، عندما تستدير وترانى. للحظة واحدة تتكون لدى صورة لوجهها، وجه طفلة، يتوهج عافية، تبتسم لى دون خوف، قبل أن نتصالح. يرتطم رأسها ببطنى، ثم أختفى، محمولا من قبل الريح. الضربة خفيفة كضربة فراشة. أنا مغمور بالارتياح. أفكر، "إن، بعد كل ذلك ما كان على أن أقلق! أحاول أن أتطلع نحو الخلف، ولكن كان كل شيء قد لختفى عن البصر فى بياض الثلج.

فمى مغطى بقبلات ندية. أبصق، أهز رأسى، أفتح عيني. الكلب الذى كان يلحق وجهى يتراجع هزاً نيله. يتسرب الضياء عبر مدخل باب الكوخ. أزحف خارجاً إلى الفجر. السماء والماء مشوبان باللون الوردى نفسه. البحيرة التى اعتكت رؤيتها كل صباح، قوارب الصيد ذات المقدمة غير الحادة خالية. المخيم، حيث أقف أنا خال أيضاً.

ألف المعطف على نفسى بشدة أكثر، وأسير الطريق صاعداً متجاوزاً البوابة الرئيسية، التى ما تزال مغلقة، حتى برج المراقبة الشمال - الغرب، الذى يبدو خالياً، ثم العودة منحدرأ على الطريق، قاطعاً الحقول، فوق السد متوجهاً نحو شاطئ البحيرة.

أرنب وحشى يفر من تحت قدمى ويسرع مبتعداً فى خط

متعرج. أبقي متتبعا خطه حتى يستدير عائداً ويضيع أثره خلف
الحنطة اليناعة في الحقول البعيدة.

يقف ولد صغير في وسط الدرب على مسافة خمسين ياردة
منى، وهو يتبول. يرقب قوس بوله، يرقبني أيضاً من طرف
عينه، حانياً ظهره ليجعل الدفقة الأخيرة تتبجس أكثر. ثم يختفي
فجأة، بذيله الذهبي الذي ما يزال معلقاً في الهواء، منتزعاً من
قبل يد سوداء امتدت من بين عيدان القصب.

أقف في البقعة التي كان واقفاً عليها. لا شيء يمكن رؤيته
غير خفق قمم القصب، التي تومض من خلالها نصف كرة
تخطف البصر.

أقول رافعا صوتي، بإمكانك الخروج، ليس هناك ما يخشى
منه". ألاحظ أن عصافير الدور، تتجنب هذا الموضع من
القصب. ليس لدى أي شك في أن ثلاثين زوجاً من الأذان
تسمعني.

أعود إلى البلدة.

البوابات مفتوحة جنود مسلحون بأعتدة ثقيلة، يبحثون بين
أكواخ جماعة الصيادين. يسير معهم الكلب الذي أيقظني منتقلا
من كوخ إلى كوخ، مرتفع الذيل، متدل لسانه، أنناه منتصبان.

واحد من الجنود يتعثر بحامل علقت عليه الأسماك المنظفة

المملحة لتجف. ينطرح بصريز على الأرض.

أصبح، "لا تفعل ذلك!"، مسرعاً للخطي، أميز بعض هؤلاء الرجال من الأيام الطويلة للتعذيب في ساحة التكنات. "لا تفعلوا ذلك، لم يكن بسبب خطأ منهم!".

بلا مبالاة متعمدة، يتمشى الجندي نفسه نحو أكبر الأكواخ، يستجمع قواه مسنداً ثقله على دعامتين نائتتين للسقف المصنوع من القش. وعلى الرغم من الجهد الذي يبذله فإنه يفشل. لقد راقبت بناء هذه الأكواخ الهشة. التي بنيت لتقاوم شدة ريح لا يقدر طير على التحقيق أثناءها.

فقاعدة السقف مثبتة عمودياً إلى أعلى بأسيرة جلدية تمر عبر أسنان اسفينية الشكل لا يمكن للمرء رفعها دون تقطيع الأسيرة الجلدية.

أحاجج الرجل. 'دعني أخبرك بما حدث ليلة أمس. كنت ماراً في الظلام وأخذت الكلاب تتبج. أنتاب الخوف الناس هنا، فقدوا عقولهم، أنت تعرف حالهم. من المحتمل أنهم اعتقدوا أن البرابرة قد وصلوا. لقد هرعوا منحدرين صوب البحيرة. أنهم يختبئون في ادغال القصب - رأيتهم قبل مدة وجيزة. أنت غير قادر على معاقبتهم لمثل هذه الحادثة السخيفة .

يتجاهلني، يساعده رفيق له في السقف، متوازياً فوق

عارضتين، يبدأ في توجيه ضربات بكعب حذائه ذى الرقبة الطويلة، محدثاً ثقباً في السقف. اسمع خبطة في الداخل في حين ينهار مزيج الطلاء المتماسك من الحشائش والصلصال.

أصيح، أوقف الأمر! ينبض الدم في صدغي. ماذا فعلوا لك كي يؤذوك؟ أتمسك بكاحله، ولكنه جد بعيد عني. بإمكانى أن أقطع رقبتَه في حالتي هذه.

يلقى أحدهم بنفسه أمامي: الصديق الذي ساعده في العمل، يمدم، لماذا لا تذهب بعيداً. لماذا لا تذهب وتموت في مكان ما .

اسمع من تحت القش والصلصال عوارض السقف وهي تتقصف تماماً. يمد الرجل الذي على السقف ذراعيه ثم يندفع إلى الداخل عبر فتحة وفي لحظة يكون هناك، عيناه مفتوحتان بدهشة، وفي اللحظة التالية، لا تبقى غير هبة من دخان معلقة في الهواء.

يسحب البساط من مدخل الباب جانباً، قابضاً كلتا يديه معاً، مغطى من قمة رأسه حتى أخمص قدميه بغبار أصفر. خراء! يقول. خراء، خراء، خراء! ينفجر رفاقه بالضحك. يصيح، لا يدعو الأمر للهزء، لقد آذيت إيهامي الملعون! يعتصر يده بين ركبتيه. الملعون يؤلمني! يوجه رفسة نحو الجدار، واسمع مرة أخرى، الطلاء ينهار في الداخل. يقول، متوحشون، ملعونون! كان يتوجب علينا إيقافهم في صف تجاه الجدار وإطلاق النار عليهم منذ أمد بعيد - مع أصدقائهم!

متطلعاً إلى ما ورائي - متطلعاً نحوي مباشرة، متجنباً بكل الطرق رؤيتي، يبتعد مختالاً. وفي الوقت الذي يجتاز الكوخ الأخير يشق البساط المعلق على مدخل الباب. حبال الخرز التي تزينه تنقطع وتتناثر الحبات في كل مكان: ثمار العليق الحمر والسود، وحبوب البطيخ المجففة. أقف في الطريق متمهلاً أنتظر خمود رعشة الغضب التي تجتاحني. أفكر في فلاح شاب جيء به إلى مرة في تلك الأيام التي كنت أقضي فيها أمور الحامية. كان قد أودع لدى الجيش لمدة ثلاثة أعوام من قبل قاض في بلدة بعيدة بتهمة سرقة عدد من الدجاج. بعد شهر أمضاه هنا، حاول الهرب إلى الصحراء. قبض عليه وجلب أمامي. طلب أن يرى والدته وشقيقاته ثانية، أفهمته قائلاً نحن لا نقدر تماماً على فعل ما نرغب فيه، نحن جميعاً خاضعون للقانون، الذي هو أكبر من أي واحد منا. القاضي الذي أرسلك إلى هنا، أنا شخصياً، أنت - كلنا خاضعون للقانون. تطلع إلى بعينين باهتتين، منتظراً إسماع الحكم عليه، حارساه الغليظان خلفه، يدها موقتان بالأغلال إلى الخلف. أعرف أنك تحس بأن الأمر غير عادل، لامتلاكك مشاعر ولد صالح. أنت تعتقد بأنك تعرف ما هي العدالة وما هو غير ذلك. أنا أفهم. كلنا يعتقد بأنه يعرف.

عندئذ، لم يكن لدى أي شك شخصياً، إنه في لحظة، كل واحد منا، رجل، امرأة، طفل بل ربما حتى الحصان العجوز المسكين، الذي يدير عجلة الطاحونة، قد عرف معنى العدالة:

تأتى كافة المخلوقات إلى العالم حاملة معها ذكرى العدالة. قلت لسجينى المسكين، ولكننا نعيش فى عالم من القوانين. عالم أفضل من الدرجة الثانية. ليس بمفدورنا عمل أى شىء بشأنه. نحن مخلوقات خربة. كل ما نقدر عليه جميعاً هو دعم القوانين، دون أن نسمح بتلاشى ذكرى العدالة. بعد أن قمت بتوبيخه، أصدرت حكماً عليه. تقبل الحكم دون تذمر وقاده حارساه إلى الخارج. أتذكر إحساس الخزي غير الهين الذى شعرت به فى أيام مثل تلك. كنت اعتدت على مغادرة قاعة المحكمة والعودة إلى شقتى والجلوس طوال المساء فى الظلام على الكرسى الهزاز، دون أن أحس بشهية لطعام، حتى يحين موعد ذهابي إلى الفراش. قلت لنفسى: 'عندما يعانى بعض الرجال ظلماً، فإنه قدر أولئك الذين يشهدون معاناتهم كى يعانون الخزي منه - ولكن المواساة الخادعة لهذه الفكرة لا تتمكن من إراحتي. لقد داعبتنى أكثر من مرة فكرة الاستقالة من منصبى، الانصراف عن الحياة العامة، شراء أرضٍ تزرع فيها الخضر. لكننى فكرت، فيما بعد، أن شخصاً آخر سيعين كى يتحمل عار المنصب، وأن ما من شىء سيتغير. وهكذا واصلت مهامى حتى باغتتني الأحداث فى يوم من الأيام.

* * *

الفارسان على مبعدة أقل من ميل، وقد بدءا فى اجتياز الحفول الجرداء فى لوقت الذى عنا للبصر. أنا واحد من

الحشد الذى، سمع أصوات الانطلاقات المرحبة تتهمر من الأسوار، نلك أننا جميعاً نميز لواء الكتيبة الخضر والذهبي الذى يحملانه. أسير بخطوات واسعة بين الأطفال المهرولين المنفعلين فوق التربة حديثة الثليب.

الفارس على اليسار، الذى كان ممتطياً كتفاً إلى كتف بجوار زميله، يستدير مبتعداً باتجاه الطريق المحاذى للبحيرة.

يواصل الفارس الثانى السير متمهلاً نحونا، جالساً على السرج بانتصاب شديد، ماداً ذراعيه إلى جانبيه كأنما يريد احتضاننا جميعاً أو الطيران عالياً نحو السماء.

أبدأ فى الركض بأسرع ما فى استطاعتي، نعلای يجرجرانى فى الأرض، قلبى يخفق.

من مسافة مئة ميل عنه، هناك خبط حوافر خلفه وثلاثة جنود مدرعون يعبرون عذواً، يتسابقون باتجاه أجمة القصب التى قد اختفى فيها الآن الفارس الآخر.

أنضم إلى الحلقة من حول الرجل (أعرف عليه، على الرغم من التغيير) الذى حدث والراية ترفرف بشجاعة فوق رأسه، يحدق بنظرات خالية من التعبير نحو البلدة. وهو مثبت بحبال إلى قاعدة خشبية متينة تمسكه منتصباً على سرجه. عموده الفقرى منتصب بقائم ويداه مربوطتان إلى قطعتين متعارضتين.

الذباب يحوم وجهه، فكاه مكبلان تماماً، لحمه منتفخ، تفوح منه رائحة تبعث على الغثيان، لقد مضت أيام عدة على وفاته.

يتعلق طفل بيدي ويهمس، أهو بربرى يا عم؟ . أرد عليه هامساً، لا . يستتير نحو الولد الذى يجاوره ويهمس، هل ترى، لقد قلت لك .

نظراً لعدم تهيو شخص آخر للقيام بالأمر، فأنا الشخص الذى يقع عليه نصيبه أن يلتقط الزمام المتجرجر وأتقدم هذه البشائر المرسله من البرابرة عائداً عبر البوابات الكبيرة، ماراً بالحراس الصامتين، إلى ساحة التكنات، والقيام هناك بفك إيسار حاملها وإعداده للدفن.

الجنود الذين انطلقوا خلف مرافقه الوحيد، سرعان ما يعودون. يتوجهون خبيأً عبر الساحة إلى مبنى المحكمة التى يدير فيها مائديل شؤونه ويختفون داخلها. وعندما يظهرون ثانية، يرفضون التحدث مع أحد ما.

لقد تأكدت هواجس الكارثة كافة. يستولى للمرة الأولى على البلدة فزع حقيقى. المتاجر مزدحمة بمشتريين يزايد بعضهم على بعض من أجل خزن الطعام، تحجز بعض الأسر نفسها فى بيوتها، يجمعون الطيور البرية وحتى الخنازير فى الداخل معهم. المدرسة أغلقت. أقاويل عن أن جمعاً من البرابرة قد خيم على مبعد عدة أميال على ضفاف النهر

المتفحة، وأن هجوماً على البلدة على وشك الوقوع، تنتقل بسرعة من زاوية شارع إلى شارع. الأمر الذي لا يصدق قد وقع: الجيش الذي سار قدماً بسرور فائق قبل ثلاثة أشهر لن يعود أبداً.

البوابات الكبيرة أغلقت وزلجت. ألتمس من رئيس المراقبة أن يسمح لمجموعة الصيادين بالدخول. أقول، إنهم في فزع على أرواحهم. يدير ظهره لى دون أن يجيب. الجنود فوق رؤوسنا على المتاريس، الرجال الأربعون الواقفون بيننا وبين الفناء، يحدقون نحو الخارج فى طول البخيرة والصحراء وعرضهما.

عند مجيء الليل، وأنا فى طريقى إلى سقيفة مخزن الحبوب حيث ما أزال أنام، أجد طريقى مسدوداً. صف من عربات نوات العجلتين تجرها الخيول التابعة لإدارة المؤونة الحربية تعبر على طول الممر. الأولى محملة، كما أميز، بأكياس من حبوب المخزن، البقية فارغة. يتبعها صف من الخيول، مسرجة مغطاة بالبطانيات، من حضائر الحرس، أستطيع التخمين أن كل حصان إما أنه قد تمت سرقة وإما أنه قد صودر لأغراض عسكرية، فى الأسابيع الماضية. تطلع الناس من بيوتها، مستيقظين على الجلبة، ويقفون جنباً إلى جنب بهدوء يراقبون مناورة الانسحاب الجلية هذه والتي وضعت خططها قبل زمن طويل.

أطلب مقابلة مانديل، ولكن الحارس عند مبنى المحكمة متبادل مثل رفاقه.

مانديل فى الحقيقة ليس فى مبنى لمحكمة. أعود إلى الساحة فى الوقت المناسب كى أسمع نهاية بيان يقرأ علناً باسم قيادة الإمبراطورية . الانسحاب كما يقول، هو إجراء وقتى . سنترك فى الخلف قوة لتولى الأمر مؤقتاً . وهو يود أن يشكر الجميع على الضيافة لتي لا يمكن أن ينساها والتي أظهرت له؟

بينما يتحدث هو، واقفاً فى إحدى العربات الفارغة محاطاً بجنود يحملون مشاعل، يعود رجاله بثمار غاراتهم. يجاهد اثنان لتحميل موقد من الحديد الصلب سرقة من منزل خال. يعود آخر مبتسماً بانتصار وهو يحمل ديكاً ودجاجة، الديك رائع بلونيه الأسود والذهبي. يقبض عليهما من الأجنحة وأرجلها مشدودة، وأعينهما تتوهج شراسة. فى حين يمسك أحدهم ليحشرهما فى داخل الموقد. لعربة محملة عالياً بأكياس وبراميل صغيرة من متجر منهوب، بل وحتى بمنضدة وكرسیين. يقومون بفرش سجادة ثقيلة حمراء فوق الحمل، ثم يربطونه بحبل من تحت. لا يصدر أى اعتراض من الناس الواقفين المراقبين هذا العمل لمنسق للغدر، ولكننى أشعر بموجات من غضب لا إرادى تجتاح كل جسدى.

العربة الأخيرة حملت. البوابات فتحت مزاليجها، يمتطى

الجنود خيولهم. أستطيع أن أسمع شخصاً في مقدمة الرتل يجادل مانديل، وهو يقول، مجرد ساعة واحدة أو نحو ذلك، سيكونون جاهزين في خلال ساعة. يجب مانديل، لا جدال في ذلك، وتحمل الريح بقية كلامه. يدفعني جندي عن طريقه ويرافق ثلاث نسوة محملات برزم ثقيلة إلى العربة الأخيرة. يصعدون فوقها ويتخذون فيها أماكنهن، ممسكات ببراقع على وجوههن. تحمل إحداهن فتاة صغيرة وتحطها فوق الأحمال. تطرق الأسواط، يبدأ الرتل الحركة، تجهد الخيول نفسها، تصر عجلات العربات. يأتي في مؤخرة الرتل رجلان يفودان قطعاً من اثني عشر خروفاً.

وبينما تمر الخراف، تزداد البدمية في الحشد. يندفع شاب بعنف خارجاً وهو يصيح ملوحاً: بتشت الخراف في الظلمة، ويزمجرة يضم الحشد صفوفه. تفرقع في الحال، أولى الرصاصات. مهرولاً بأسرع ما في استطاعتي وسط عشرات من أناس آخرين صارخين مهولين. لا أحتفظ إلا بصورة واحدة لهذا الهجوم العقيم: رجل متماسك بالأيدى مع إحدى نسوة العربة الأخيرة، يمزق ملابسها، ترقب الطفلة الأمر بعينين مفتوحتين باتساع وإيهامها في فمها. بعدئذ تصبح خالية ومظلمة ثانية، تتخرج العربة الأخيرة عبر البوابات، الحامية غادرت.

لما تبقى من الليل، تبقى البوابات مفتوحة، مجموعات من

عوائل قليلة، أغليبتها على الأقدام متقلة بأحمال ثقيلة، تهرع خلف الجنود.

وتتسل قبل الغسق، مجموعة الصيادين إلى الداخل، دون أن تواجه مقاومة تذكر، وهي تحمل أطفالها المرضى وممتلكاتها التي تثير الشفقة وحزماً من أعمدتها وعيدان قصبها التي ستبدأ بها من جديد مهمة بناء بيوتها.

* * *

شقتى القديمة مفتوحة الباب. الهواء عفن في داخلها. لم تنظف محتوياتها من الغبار منذ زمن طويل. صناديق المعروضات - الأحجار والبيض والمصنوعات التي تعود لخرائب الصحراء - اختفت بأكملها. دفعت قطع الأثاث في الغرفة الأمامية نحو الجدران ورفعت السجادة. غرفة الاستقبال الصغيرة، لم تمس، ولكن أغطية قطع الأثاث تحمل رائحة نتنة فاسدة.

في غرفة النوم، الشرافق قلبت جانباً بالحركة نفسها التي استخدمها أنا، وكأنتى، شخصياً كنت نائماً هنا. رائحة منفرة تفوح من البياضات غير المغسولة.

المبولة في غرفة النوم، تحت السرير، ممثلة حتى نصفها. يوجد في خزانة الملابس قميص ذو ياقة مجعدة وحلقة بنية تطوقها من الداخل وبقع صفراء تحت الإبطين. ملابسى كلها اختفت.

أجرد الفراش من الأغطية وأستلقى على المرتبة الجرداء،
متوقفاً أن يزحف على إحساس بالقلق، شبح رجل آخر ما يزال
متخلفاً بين روائحه العطرة وفوضاه. ولكن ذلك الإحساس لا
يأتى: الغرفة مألوفة كما كانت دائماً. وذراعى على وجهى، أجد
نفسى منساقاً إلى النوم. قد يكون الأمر حقيقة أن العالم كما هو
حاله الآن ليس وهما، ليس حلماً رديئاً. قد يحدث أننا نستيقظ
على تغييره وأنا غير قادرين على نسيانه ولا على الاستغناء
عنه. ولكنى أجد الأمر صعباً كما فى السابق من أن أؤمن بأن
النهاية وشيكة. أعلم أنهم إن هجموا الآن فسأموت فى فراشى
أحمق وجاهلاً مثل طفل رضيع وسيكون الأمر أكثر ملاءمة أن
قبض على وأنا فى بيت المؤونة والملبقة فى يدي وفمى ملآن
بتين معلب مسروق من آخر قنينة على الرف: عندئذ قد يقطع
رأسنى ويرمى فوق الرؤوس المكومة خارجاً فى الساحة، وهى
ما تزال تحمل نظرة الألم ودهشة الشعور بالإثم، لغارة التاريخ
هذه على الزمن الساكن للوائح: لكل واحد نهايته الخاصة
الأكثر تطابقاً معه. سيلفى القبض على بعض الأشخاص فى
مخابئ تحت سراديبهم وهم ممسكون بحاجياتهم الثمينة إلى
صدورهم، وهو يخلقون أعينهم بشدة. بعضهم سوف يموت على
الطريق مغموراً بأولى ثلوج الشتاء. قلة منهم قد تموت وهى
تتاضل مع المذراة. بعد ذلك كله، سيمسح البرابرة مؤخراتهم
بسجلات البلدة. وحتى النهاية لن نكون قد تعلمنا شيئاً. يبدو أن

هناك فى دواخلنا جميعاً فى أعماق أعماقنا شيئاً ثابتاً عنيداً غير قابل على التعلم. لا يؤمن أحد منا حقاً، على الرغم من الهياج العاطفى فى الشوارع، بأن العالم ذا الحقائق الساكنة التى ولدنا فيه، هو على وشك الانطفاء. لا أحد يتقبل أن جيشاً استبدادياً قد سحق من قبل رجال يحملون أقواساً وسهاماً وبنادق صدئة قديمة ويعيشون فى خيام ولا يغتسلون أبداً ولا يستطيعون القراءة والكتابة. ومن أنا كى أسخر من أوهام تمنح الحياة؟ هل هناك وسيلة أفضل لتمضية هذه الأيام الأخيرة من أن أحلم بمنفذ يحمل سيفاً سيهوم بتشتيت جيش الأعداء ويغفر لنا الخطايا لتي اقترفت من قبل آخرين بأسمائنا ويمنحنا فرصة ثانية لبناء جنتنا الأرضية؟ أتمد على المرتبة الجرداء وأركز فى إعادة صورتي كسباح إلى حياة، سابحاً بضربات هادئة غير متعبة عبر واسطة الزمن، واسطة كثر قصوراً من الماء، من دون تموجات، شاملة، لا لون لها، لا رائحة، جافة مثل ورقة.

* * *

ثمة في صباحات بعض الأيام، آثار حوافر حديثة العهد في الحقول، بين الأجمات الممتدة في غير انتظام تعلم آخر حد للأرض المحروثة، يشاهد المراقب شكلاً يقسم على أنه لم يكن هناك في اليوم الذي مضى والذي اختفى في يوم تال. لا تجرؤ مجموعة الصيادين على الخروج قبل شروق الشمس وقد تدنى محصولهم إلى حد كبير لأنهم لا يحضرون إلا بشق الأنفس.

في غضون يومين من عمل مشترك بذلنا فيه جهدنا والبنادق على جوانبنا، قمنا بحصاد الحقول القصية، كل ما تبقى بعد الفيضان. المحصول أقل من أربعة أكواب في اليوم لكل عائلة، ولكنه أفضل من لا شيء.

على الرغم من أن الحصان الأعمى يستمر في إدارة الدولاب الذي يملأ الصفيحة بقرب شاطئ البحيرة ليروى بساتين البلدة، فإننا نعلم أنه من الممكن قطع أنبوب الري في لحظة من الزمن وبدأنا فعلاً في حفر آبار جديدة داخل البيوت. لقد قمت بتحريض زملائي من المواطنين على زرع الحقائق الخلفية التي تطل على مطابخهم، بجذور ستقاوم صقيع الشتاء. أقول لهم، علينا فوق كل شيء إيجاد وسائل للبقاء أحياء في

الشتاء. سيرسلون إلينا نجدة فى الربيع، لا شك فى ذلك. بإمكاننا بعد أول نوبان للتلوج أن نزرع دحنا ينضج فى ستين يوماً .

أغلقت المدرسة وصار الأطفال يعملون فى الأجزاء الجنوبية الناتئة المالحة من البحيرة فى صيد سرطانات حمراء صغيرة توجد فى المياه الضحلة. نقوم نحن بتعريضها للدخان ورزمها فى شرائح زنة الواحدة منها رطلاً واحداً. لها طعم دهنى رديء. تتناوله اعتيادياً مجموعة الصيادين فقط، ولكن قبل انصراف الشتاء سنكون سعداء جداً أن امثلنا جردانا وحشرات لنتهمها.

على طول السور الشمالى قمنا بإسناد صف من الخوذ مع رماح منتصبية إلى جوارها يمر طفل كل نصف ساعة بجانب الصف مزحزحاً بعض الشيء كل خوذة. وهكذا نأمل أن نخدع أعين البرابرة الحادة. تتألف الحامية التى أورثها إيانا مانديل من ثلاثة رجال. إنهم يتناوبون الوقوف عند الباب المغلق للمحكمة، ولأن بقية سكان البلدة يتجاهلونهم، فإنهم قد انعزلوا عن الآخرين.

توليت أنا الإرشاد فى كل التدابير التى اتخذت من أجل الحفاظ علينا، دون أن يعترضنى أحد. لحيتى شذبت وارتديت ملابس نظيفة، واستعدت فى الحقيقة الإدارة القانونية التى كنت انقطعت عنها قبل عام مضى مع مجيء الحرس المدنى.

يتحتم علينا قطع حطب اللوقود وخزنه، ولكننا لا نجد من يغامر بالذهاب إلى الغابة المزروعة بالشوندر في موازاة النهر، حيث يقسم الصيادون على أنهم شاهدوا آثاراً طرية لمخيم للبرابرة.

* * *

أصحو على طرق باب شقتي. إنه رجل يحمل قنديلاً، متقد الوجه بفعل الريح، هزيل منقطع الأنفاس، يرتدى معطف جندي يبدو واسعاً عليه. يحدق في وجهي في حيرة.

أقول، من أنت؟

أين الضابط المفوض للترخيص؟

يجيب لاهثاً محاولاً إلقاء نظرة من فوق كتفي.

الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل، فتحت البوابات للسماح بدخول عربة العميد جول، التي تقف ومقدمتها تستقر على الأرض وسط الساحة. عدد من الرجال يجتمعون في جانبها اتقاءً للريح القوية رجال المراقبة، من فوق السور يتطلعون نحو الأسفل.

يقول زائري، نحن في حاجة إلى طعام، خيول قوية، علف. يتقدم إلى الأمام، يفتح باب العربة، يتحدث: سيدي، الضابط

المفوض غير موجود. لقد غادر . عند النافذة، وفي ضياء القمر، ألمح جول نفسه. يرانى هو أيضاً: يغلق الباب بقوة. أسمع صوت المزلاج فى الداخل. أتمكن، متطلعاً من الجانب الآخر للزجاج، من أن أستكشف تفاصيله وهو يجلس فى الزاوية المظلمة الأبعد، محوَّلاً بقوة، أطرق على الزجاج، لكنه لا يولبنى اهتماماً. يقوم تابعه، بعدئذ بإبعادى عنه.

حجارة تستقر على سقف العرب، منطلقة من الظلام.

حارس آخر لجول يأتى مهرولاً. يلهث ويقول، الإسطبلات فارغة، لقد أخذوا كل ما فيها . الرجل الذى فك أعنة عدد من الخيول التى تقطر عرقاً، يبدأ فى اللعن، حجارة ثانية لكنها تخطئ العرب وتكاد تضربنى. لقد قذفت من فوق الأسوار.

أقول، أصغ إلى. إنك تشعر بالبرد وبالتعب. دع الجياد تستريح، تعال إلى الداخل، تناول شيئاً ما، احك لنا قصتك. نحن نتلقى أخباراً منذ مغادرتك. إن أراد ذلك الرجل المجنون أن يجلس فى عربته طوال الليل، دعه يجلس .

بالكاد يصغون إلى، رجال فى حالة جوع شديدة، متعبون، أدوا أكثر من واجبهم فى سحب رجل الشرطة هذا إلى السلامة من بين قبضة البرابرة. يتهامسون فيما بينهم، وقد بدأوا فعلاً بإعادة شد زوج من العدة البالية لخيولهم.

أتطلع عبر الزجاج إلى الشيء الضبابي الباهت عبر الظلمة الذي هو العميد جول. يرفرف معطفى الفضفاضة، أرتجف برداً، وبسبب توتر غضبي المكبوت أيضاً. حافز يسرى فى داخلى أن أكسر الزجاج، أن أصل إلى الداخل وأسحب الرجل خارجاً عبر الفتحة المثلومة وأن أحس بجسده معلقاً وممزقاً على حافات الزجاج، أن أقذف به أرضاً وأرفس جسده حتى يصبح عجينة.

وكأنما أحس بهذا التدفق المهلك، يدير وجهه على مصضى نحوى. ثم ينحرف جانباً فى جلسته كى يتمكن من النظر إلى من خلال الزجاج. وجهه مجرد من أى معنى، باهت ربما بتأثير ضياء القمر الأزرق، أو ربما بفعل تعب جسمانى. أحرق فى صدغيه الميرتفعين الشاحبين. زكريات عن ثدى أمه الناعمين، عن الحبل فى يده لأول طائرة ورقية جعلها تحلق فى حياته، وفضلاً عن تلك الأمور التى تتعلق بصميم طبيعته الوحشية التى أكرهه من أجلها، المستترة المحشورة فيه.

يتطلع إلى الخارج نحوى، تبحث عيناه عن وجهى. العنستان السوداوان قد اختفتا، أ يضطر هو أيضاً إلى كتم حافز غضب مكتوم يدفعه إلى الوصول إلى والقبض على بكلتا يديه، ويعمى بالشظايا؟

لدى درس له فكرت به كثيراً. أغغم بالكلمات وأرقبه

وهو يقرأها من شفتي، أقول: الجريمة الكامنة في دواخلنا،
يتوجب علينا إنزالها على أنفسنا . أومئ وأومئ دافعا بالرسالة
كي تصل الهدف. أقول: ليس على آخرين : أعيد الكلمات،
مشيراً إلى صدره. يرقب شفتي، تتحرك شفاته الرفيعتان مقلدة،
أو ربما في سخرية. حجارة أخرى، أثقل وزناً، أجرة ربما،
تضرب العرببة بقطعة مدوية. يجفل هو، ترتج الخيول في
أعنتها.

يأتي أحدهم مهرولاً، يصيح، أذهب! يدفعني جانباً، يضرب
على باب العرببة. يده مملوءتان بأرغفة خبز. يصرخ، يجب أن
نذهب! . يفتح العميد جول المزلاج ويسقط الأرغفة إلى الداخل.
ينغلق الباب بعنف، يصيح، أسرع! . تبدأ العرببة بالحركة،
ونوابضها تصرّ.

أقبض على ذراع الرجل، أصرخ، أنتظر! لن ادعك تذهب
حتى أعرف ما حدث! يصيح، ضارباً على قبضتي، ألا
تستطيع أن ترى؟ . يداي ما تزالان ضعيفتان: من أجل
الإمساك به كان على أن أحيطه بهما. ألهث، أخبرني، وبإمكانك
الذهاب بعدئذ! .

تقترب العرببة من البوابة. الرجلان الممتطيان قد انتهيا من
اجتيازها، الرجال الآخرون يهرولون في الخلف. أحجار
تططق على العرببة مندفعة من الظلام، تنهال الصرخات

واللعنات عليهم كالمطر .

يقول وهو يقاوم عبثاً ماذا تريد أن تعرف؟ .
أين الآخرون؟ .

ذهبوا، تشتتوا في كل مكان. لا أعرف مكانهم. كان علينا
أن نعثر على طريقنا. كان من المستحيل أن نبقي معاً. وفي
الوقت الذي يخفق رفاقه في الليل، يصارع هو بقوة أشد.
دعني أذهب! إنه ليس أقوى من طفل. ستذهب في خلال
دقيقة واحدة. كيف يمكن أن يحدث أن البرابرة قد فعلوا هذا
بكم؟ .

لقد كنا نتجمد في الجبال! تعرضنا لجوع شديد في
الصحراء! لماذا لم يخبرنا أحد بأن الأمر سيكون كذلك؟ لم
نهزم - لقد قادونا إلى الصحراء ثم اختفوا بعد ذلك!

من قادكم؟

هم - البرابرة. لقد غرروا بنا مراراً وتكراراً. لم نقدر أبداً
الإمساك بهم. التقطوا المجموعات المتناثرة في غير انتظام،
قطعوا أعنة خيولنا في الليل، ولم يعد بمقدورنا الاستفادة منها!

هكذا استسلمتم وعدتم إلى البلدة؟

نعم!

هل تتوقع مني أن أصدق ذلك؟

يحق في بيأس، يصيح، وما الذى يضطرني إلى الكذب؟ لا أريد أن أتخلف هنا. ذلك كل ما لدى! يحرر نفسه منى، يحمى رأسه بيديه، يهرع عبر البوابة ونحو الظلمة.

توقف الحفر فى البئر الثالثة. بعض الحفارين ذهبوا توأ إلى منازلهم، يقف آخرون حولها منتظرين الأوامر.

أقول، ما المشكلة؟

يشيرون إلى العظام المكومة على أرض طرية: عظام طفل.

أقول، لا بد أن قبراً كان هنا، موضع غريب لقبر . نحن فى الأرض المفروزة الخالية خلف التكنات، ما بين التكنات والصور الجنوبي. العظام قديمة، إذ إنها امتصت لون الطمى الأحمر . ماذا تريد أن نفعل؟ بإمكاننا أن نبدأ الحفر ثانية فى الناحية الأقرب إلى الصور .

يساعدونى فى تسلق الحفرة. وإقفاً فى الحفرة، بعمق يصل صدرى، أنبش بأظافرى مبعداً التراب من حول عظم فك مطمور فى الجدار. أقول، ها هى الجمجمة، لا، ليست هى، الجمجمة قد أخرجت من قبل، يعرضونها على .

يقول ملاحظ العمال، انظر إلى ما تحت قدميك .

الظلمة الشديدة لا تساعد على الرؤية، ولكننى عندما أضرب بالمعول، أصطلم بشيء صلب، تقول أصابعى إنه عظم.

يقول، إنها لم تدفن جيداً . يجلس القرفصاء عند حافة الحفرة . إنها مرمية كيفما اتفق . بعضها على بعض .
أقول، نعم، نحن لا نقدر على الحفر هنا، هل نقدر؟
يقول، لا'.

علينا ملؤها والبدء من موضع أقرب إلى الجدار .
إنه صامت . يمد يداً لى ويساعدنى على الخروج . لا يتفر
الواقفون بشيء أيضاً . يتوجب على إعادة العظام إلى مكانها،
وأن أجرف الدفعة الأولى من التراب قبل أن يلتقط كل واحد
مسحاته.

* * *

فى الحلم أقف ثانية فى الحفرة . الأرض رطبة ، مظلمة ،
يتسرب الماء منها ، تخوض قدامى فى الوحل ، يتطلب رفعهما
جهداً متأنياً .

ألمس طريقى تحت السطح ، بحثاً عن العظام ، تمسك يداى
بطرف كيس من القنب ، أسود ، متعفن ، يتفتت تماماً بين
أصابعى . أغوص عائداً إلى الوحل ، مذراة ملتوية وملونة ، طائر
ميت ، ببغاء : أمسك بها من ذيلها ، ريشها الملطخ بالطير
ينتهاوى ، جناحاها المشبعان بالماء يسقطان ، محجرا عينيهِ .
فارغان . عندما أطلقها تسقط على السطح من غير أن تنير

طرطشة ماء. ماء مسموم أفكر بالأمر، يجب أن أكون حذراً
فى عدم الشرب من هنا. يجب أن لا ألمس فمى بىدى اليمنى .

* * *

لم أنم مع امرأة منذ عودتى من الصحراء. والآن وفى أكثر
الأوقات غير الملائمة، أحس بذكورتى تؤكد نفسها. أنام بصورة
سيئة وأصحو فى الصباح بانتصاب عنيد يتزايد مثل غصن
يخرج من بين تقاطع فخدى. لا علاقة للأمر بالرغبة. انتظر،
وأنا نائم فى فراشى المجدد زواله. أحاول أن أستحضر صورة
الفتاة التى نامت معى هنا ليلة بعد ليلة. أراها واقفة، حافية
القدمين فى قميصها الداخلى، قدم فى الطست، ومنتظرة أن أقوم
بغسلها، تضغط يدها على كتفى. أرغو الصابون على سمانتها
القصيرة الممتلئة. تنزع القميص، وتسحبه من فوق رأسها.
أرغو فخذيه، ثم أضع الصابون جانباً، أحتضن وركها، أدعك
وجهى ببطونها. أستطيع شم الصابون. شاعراً بدفء الماء،
بضغط يديها.

أخرج من أعماق تلك الرغبة إلى لمس نفسى. لا وثبة
استجابة هناك. إنه مثل لمس رسغى: جزء منى ولكنه صلب،
متبادل، امتداد لا حياة خاصة به. أحاول أن أنجح فى المحاولة:
لا جدوى، فلا إحساس هناك، أقول لنفسى، إننى مجهد .

أجلس لمدة ساعة على كرسى ذى ذراعين منتظراً أن يتضاءل قضييب الدم هذا. فى الوقت المناسب يفعل. أرتدى بعد ذلك ملابسى وأغادر الغرفة.

يعاوننى الأمر فى الليل: يبرز سهم فى، مشيراً إلى لا مكان. أحاول ثانية أن أطعمه بالصور، لكننى لا أتبين أى استجابة للحياة.

يقول العشاب، جرب عفن الخبز ولب عشب الحليب، وقد يكون له مفعول. إن لم يؤثر، عد إليّ، هاك بعض جذر الحليب، اطحنه وامزجه حتى يصبح معجوناً ثم أضف إليه عفن الخبز وبعض الماء الدافئ. تناول معلقتين مملوءتين بعد كل وجبة. إنه ذو مذاق غير محبب، مر جداً، ولكن كن واثقاً من أنه لن يسبب لك الأذى مطلقاً .

أناوله أجره فضة. لا أحد غير الأطفال يقبلون تسلم نقود نحاسية اليوم.

يقول، ولكن قل لى، لماذا رجل ذو صحبة جيدة مثلك، يريد أن يقتل رغباته؟

الأمر لا علاقة له بالرغبة، أبى، إنه تهيج فقط، تصلب مثل الروماتزم . يبتسم، أبتسم له بدورى.

أقول، لا بد أن هذا الدكان هو الوحيد الذى لم ينهب . إنه ليس

بمكان، مجرد تجويف فى جدار، واجهة تحت ظلّه، مع رفوف
لمرطبات يعلوها الغبار، وجذور وحزم من أوراق يابسة تتلى
من كلابيات على الجدار، الأدوية التى عالج بها البلدة طيلة
خمسين عاماً.

نعم، أنهم يزعموننى. اقترحوا أن أترك وشأنى . البرابرة
سوف يقلون خصيتيك ويأكلونهما - ذلك ما قالوه، تلك كانت
كلماتهم. قلت، لقد ولدت هنا وسأمت هنا، لست بمغادر. وقد
رحلوا، فالأمر أفضل من دونهم. هذا ما أقول .

نعم .

جرب جذر الحليب، عد إن لم ينفع .

أشرب الدواء المر المستحضر وآكل الكميات التى أقدر على
تناولها من الخس ما دام الناس يقولون إن الخس يفضي على
فحولة المرء. ولكننى أفعل ذلك، نصف راغب، واعياً أننى
أسىء تفسير العلامات.

أقوم أيضاً بزيارة مى، الفندق قد أغلق أبوابه، بسبب قلة
الزبائن، وهى الآن لمساعدة أمها فى الثكنات. أعثر عليها فى
المطبخ وهى تضع طفلها فى مهده بالقرب من الموقد، تقول،
أحب الموقد الكبير الذى لديكم، إنه يحتفظ بدفئه لساعات. دفء
لطيف جداً. تحضر الشاى، نجلس معاً عند المائدة، نرقب

توهج الفحم من خلال الحاجز المشبك. تقول، أود لو كان لدى شيء لننذ كي أقدمه لك، ولكن لجنود قاموا بتنظيف غرفة المخزن، لم يتبق شيء تقريباً.

أقول: أريد منك المجيء معي إلى الطابق العلوي

هل بإمكانك ترك الطفل هنا؟

نحن صديقان قديمان. اعتادت قبل أعوام، قبل أن تتزوج ثانية، أن تزورني في شقتي، في أوقات العصر.

تقول، أفضل أن لا أتركه، في حالة استيقاظه وحيداً. وهكذا أنتظر بينما تقوم هي بلف الطفل، ثم أتبعها صاعداً السلم؟ ما تزال امرأة شابة، بجسد ثقيل وفخذين منتشرين لا شكل لهما. أحاول أن أتذكر كيف كان الأمر معها، ولكنني لا أقدر. كل النساء أمتعنني في تلك الأيام.

تضع الطفل على الوسادة في إحدى الزوايا، تدندن له حتى يستغرق في النوم ثانية.

قول: إنه لمجرد ليلة واحدة أو اثنتين، كل شيء آت إلى نهاية. علينا أن نعيش كما نقدر. تسقط سروالها الداخلي، تدوس عليه مثل حصان، وتأتي إلي في ثوبها الفضفاض. أطفئ المصباح، كلماتي قد تركتني مكتئباً.

عندما أدخل بها، تنتهد. أدعك خدي بخدها. تعثر يدي على

صدرها، تطبق هي بيدها عليه، تداعبه، تدفعه جانباً. تقول، إنها متوجعة بعض الشيء، تهمس، من الطفل .

إننى ما أزال أبحث عن شيء أريد أن أقوله عندما أحس قدوم الذروة، بعيدة جداً، خفيفة جداً، مثل ارتعاشة أرض في جزء آخر من العالم هذا هو طفلك الرابع، أليس كذلك؟ ننام معا جنباً إلى جنب، تحت الأغطية.

نعم، الرابع، أحدهم مات .

'والأب؟ هل يقدم مساعدة؟'

لقد ترك لي بعض المال. كان مع الجيش .

أنا متأكد من أنه سيعود'.

أحس بوزنها الرابط الجأش في جوارى. أقول، لقد أصبحت جد متعلقاً بابنك الأكبر، لقد اعتاد أن يجلب لي وجباتي عندما كنت سجيناً .

نستلقى مدة من الوقت في صمت. يبدأ بعدها رأسى بالدوار. أبزغ ثانية من النوم في الوقت المناسب كي أسمع نيل نهاية خشخشة في حنجرتي، شخير رجل مسن.

تجلس هي. تقول، لا بد أن أذهب. لا أستطيع أن أنام في مثل هذه الغرف الجرداء، أسمع قطعة طوال الليل. أرقب شكلها

المعتم يتحرك بينما هي ترتدى ملابسها وتلتقط الطفل.
وتقول، هل أستطيع أن أضىء المصباح. أخشى السقوط على
المسلم. واصل نومك. سأجلب لك الإفطار فى الصباح، عصيدة
دخن إن لا تمنع .

تقول، أحببتها كثيراً جداً، فعلنا كلنا ذلك. إنها لم تتذمر قط.
لقد نفدت باستمرار ما طلب منها، على الرغم من معرفتى أن
قدمها كانت تسبب لها الأذى. كانت ودودة. كان هناك باستمرار
شئ يثير الضحك فى حال وجودها بيننا .

مرة ثانية، متبادل الأحاسيس كقطعة من خشب. تبذل جهداً
معى: تربت يدها الكبيرة على ظهري، تمسك صرتى. تأتى
السذرة: مثل شرارة ضربت مكاناً فوق البحر ثم ضاعت فى
الحال.

يبدأ الطفل فى البكاء. تريح نفسها منى وتتهض كبيرة الحجم
وعارية، تسير أمامى جيئة وذهاباً عبر رقعة ضوء القمر
والطفل فوق كتفها، مربطة إياه، مدندنة، تهمس، سينام فى دقيقة
واحدة أنا شخصياً أكون نصف نائم أحس بجسدها البارد يستقر
فى الفراش بجوارى ثانية، تمرغ شفيتها فى ذراعى.

* * *

تقول، لا أريد أن أفكر بالبرابرة، الحياة أقصر من تمضيبتها

في القلق حول المستقبل . ليس لي ما أقول .
تقول، أنا لا أجعلك سعيداً . أعرف أنك لا تتمتع معي . إنك
دائماً في مكان آخر .

أنتظر كلماتها التالية .

لقد أخبرتني هي الشيء نفسه . قالت إنك في مكان آخر . لم
تستطع أن تفهمك لم تعرف ماذا كنت تريد منها .

لم اكن أعرف بأنك وهي كنتما على علاقة حميمة .

كنت دائماً هنا ، الطابق السفلي . تحدثنا بعضنا لبعض عما
كان يدور في ذهنينا . كانت أحياناً تتمنى أن تبكي وتبكي . أنت
جعلتها تعيسة جداً . هل عرفت ذلك ؟

إنها تفتح باباً تهب من خلاله رياح يأس مطلق .

أنت لا تفهمين ، أقول ذلك بصوت مبجوح . تهز كتفيها .
أواصل : هناك جانب كامل للقصة لا تعرفينه . لا أريد التحدث
عنه الآن .

يصمت كلانا ، نتأمل أفكارنا عن الفتاة التي تنام في هذه
الليلة في مكان بعيد تحت النجوم .

أقول ، ربما عندما يأتي البرابرة علي خيولهم إلينا ، ستأتي
راكبة معهم . أتخيلها تسير بالحصان خيباً عبر المدخل المفتوح

على رأس مجموعة من الفرسان، منتصبه على السرج، عيناها
تبرقان، هي السابقة، المرشدة، تدل رفاقها. إلى مواقع هذه
البلدة التي عاشت فيها ذات مرة.

سيكون كل شيء، بعدئذ على أساس جديد .

نتمدد في لعمة ونفكر .

تقول، إننى خائفة فى التفكير فى ما سيجرى لنا. أحاول أن
أرجو الأفضل وأن أعيش من يوم إلى يوم. ولكننى فجأة أجد
نفسى أحياناً متخيلة ما هو ممكن أن يحدث، وأحس بالشلل
فزعاً. لا أعرف ما الذى أفعله قط. لا أقدر على التفكير إلا فى
الأطفال. ما الذى سيحدث للأطفال؟ تجلس فى الفراش ما الذى
سيحدث للأطفال؟ تسأل بحدة.

أقول لها، إنهم لن يؤذوا الأطفال. لن يؤذوا أحداً . أربت
على شعرها، أهدئها، أعانقها بشدة، حتى يحين وقت إطعام
الطفل ثانية.

* * *

إنها تنام بصورة أفضل فى الطابق الأسفل، كما تقول. تحس
بأنها أكثر أماناً عندما تصحو وتجد وهج الفحم فى الموقد. تحب
كذلك أن ينام الطفل معها فى الفراش. وسيكون من الأفضل أن
لا تكشف والدتها أين تمضى لياليها.

أحس أيضاً أن الأمر كان خطأ ولا أعود إلى زيارتها
مجدداً، أفتقد وأنا نائم منفرداً، رائحة الزعتر والبصل على
أطراف أصابعها. لأمسية أو اثنتين أعانى حزناً هادئاً لدنا قبل
أن أبدأ بالنسيان.

* * *

أقف في الفضاء المكشوف منتظراً قدوم العاصفة. بدأت
السماء في الشحوب حتى تغدو الآن ببيضاء كالعظم مع تدرج
من القرنفلى يتموج في الشمال. يتلأأ قرميد الأسقف الأحمر.
الهواء يزداد إشراقاً. تضيء المدينة بلا ظلال، غامضة جميلة
في هذه اللحظات الأخيرة.

أصعد السور بين الدمي المسلحة، الناس واقفون يحدقون
بعيداً نحو الأفق حيث سحابة كبيرة من تراب ورمل بدأت قبل
قليل في الفوران. لا يتكلم أحد منهم.

الشمس تغدو نحاسية. الزوارق كافة قد غادرت البحيرة،
وتوقفت الطيور عن الغناء. هناك فاصل من الصمت المطبق
المطبق. ثم تتطلق الرياح.

في حمى منازلهم مع غلق النوافذ بالرتاج ووضع دعامات
خلف الأبواب، يبدأ الآن غبار رمادى ناعم في التساقط منخولاً
عبر السقف والتسقيفة ليستقر على سطح غير مغطى، مشكلاً

طبقة رقيقة على ماء الشرب، يحتك بأسناننا، نجلس مفكرين فى
أندد لنا من مخلوقات خارج لجدران، فى الخلاء، الذين فى
أوقات كهذه لا يجسدون ملاذاً لهم غير أن يديروا ظهورهم
للرياح وأن يتحملوا.

* * *

فى الأمسيات، فى الساعة و الاثنتين التى أتمكن خلالها
من الجلوس بالقرب من المدفأة قبل أن تنتهى حصتى من
الخطب ويتوجب عليّ التسلل إلى الفراش، أشغل نفسى
بهواياتى القديمة، مصلحاً قدر الإمكان صناديق الحجارة التى
وجدتها محطمة ومرمية خارجاً فى حدائق مبنى المحكمة، ألهو
مجدداً فى كشف معانى الكتابة المنقرضة على شرائح خشب
الخور.

يبدو الأمر صحيحاً، مثل إشارة أولئك الناس الذين عاشوا
فى خرائب الصحراء، يتحتم علينا أيضاً وضع سجلات
للاستيطان كى تترك للأجيال القادمة، تدفن تحت أسوار بلدتنا،
ومن أجل كتابة مثل هذا التاريخ، لن يكون هناك من هو أكثر
صلاحية من قاضينا الأخير. ولكننى عندما أجلس على مائدة
الكتابة، ملفوفاً ضد البرد فى فروة جلد الدب القديمة الخاصة
بى، مع شمعة واحدة (لأن الشمع الحيونى متعفن أيضاً) وعند
مرفقى كومة من وثائق صفر، فما أجده عندما أبدأ بالكتابة

ليست حوليات تاريخ القاعدة الأمامية للإمبراطورية ولا سجلاً
يبين كيف أمضى سكان تلك القاعدة الأمامية عامهم الأخير في
تنظيم أنفسهم بينما هم قابعون في انتظار البرابرة.

أكتب، لا أحد زار هذه الواحات مرة واحدة وعجز عن
الوقوع في سحر الحياة هنا. عشنا في زمن كل مواسم:
الحصاد، هجرة الطيور المائية. عشنا من دون أن يفصل بيننا
وبين النجوم شيء ما. كان بإمكاننا تقديم أي تنازل، لو كنا قد
عرفنا فقط ما هو، كي نواصل الحياة هنا. كانت البلدة جنة على
الأرض.

أطل مدة طويلة من الزمن احرق في البيئة التي كتبتها.
سيكون مخيباً للآمال أن تكون شرائح خشب الحور التي أمضت
زمناً طويلاً منكباً عليها تحتوى رسالة مراوغة، مربية،
وتستحق التوبيخ، مثل هذه.

أفكر ربما في نهاية الشتاء، عندما يقرصنا الجوع بشكل
حقيقي، عندما نحس بالبرد والجوع الشديدين، أو عندما يكون
البرابرة حقاً عند البوابة، ربما آنذاك، سأتخلى عن أسلوب كتابة
موظف مدني ذي طموحات أدبية وأبدأ في سرد الحقيقة.

أفكر: أردت أن أعيش خارج التاريخ. أردت أن أعيش
خارج التاريخ الذي تفرضه إمبراطورية على مواطنيها
الخاسرين. لم أرغب قط للبرابرة من أن يكون عليهم لزاماً

تحمل مسؤولية تاريخ إمبراطورية.

كيف يمكننى أن أصدق ذلك، إنه مصدر للعار؟

أفكر: لقد عشت عبر عام زاهر بالأحداث، ومع ذلك لم استنتج منه شيئاً أكثر مما يستنتجه طفل فى قماط. أنا من بين كل أبناء هذه البلدة، الشخص الأقل صلاحية لكتابة المذكرات. الحداد أفضل منى بصرخات غضبه وتوجهه.

أفكر: ولكن عندما يتذوق البرابرة طعم الخبز، خبز طازج ومربى الثوت، خبز ومربى المشمش، فإن أساليبنا هى التى ستستهويهم. سيكتشفون أنهم غير قادرين على العيش من غير مهارات رجالنا الذى يعرفون كيف يجعلون نباتاتنا المنتجة للحبوب ترتفع عالياً، حبوب المحيط الهادى، ومن غير براعة النساء من ذا لذى يعرف كيف يتعامل مع فواكهنا العذبة؟

أفكر: عندما يأتى يوم ما ويبحث الناس حول الخرائب، سيكونون أكثر استمتاعاً بآثار الصحراء من أى شىء آخر أتركه خلفى. وحقاً كذلك. (وهكذا أقضى أمسية فى تغطية الشرائح واحدة بعد أخرى بطبقة من زيت بذر الكتان وألفها بقماش زيتى. وعندما ستهداً العاصفة، أعد نفسى، سوف أذهب إلى الخارج وأدفنها حيثما وجدتها).

أفكر: كان هناك شىء يتفرس فى وجهى وما زالت لا أراه.

* * *

الريح تلاشت، تبدأ الآن رقائق الثلج تعوم نازلة، أول سقوط
ثلج لهذا العام، مغطياً قرميد الأسطح بالبياض. أقف طوال
الصباح عند النافذة، أرقب سقوط الثلج. عندما أجتاز ساحة
التكنات أجد أن ارتفاع الثلج قد أصبح حتى الآن عدة انجات
وأن خطوات قدمي تسحقه بخفة غريبة.

فى وسط الساحة أطفال يلعبون ويقيمون رجل ثلج. حذراً ألا
أزعجهم، لولا إحساسى بسعادة يتعذر تبريرها، أقترّب منهم
عبر الثلج.

إنهم غير منزعجين، ولديهم ما يشغلهم عن أن يلقوا على
نظرة عابرة. لقد أكملوا الجسد المدور الضخم، وهم الآن
يدحرجون كرة الرأس.

يقول الطفل الذى هو قائدهم، ليقلب لى أحدكم أشياء للفم
والأنف والعينين .

يخطر ببالي أن رجل الثلج سيكون فى حاجة أيضاً إلى
نراعين، إلا أنني لا أريد أن أتدخل.

يضعون الرأس على الكتفين ويملكون الفراغات بحصى
للعينين، للأذنين، الأنف والفم. ويتوجه واحد منهم بقبعته.
إنه ليس برجل سيئ.

هذا ليس هو المشهد الذى حلمت به. مثل أشياء كثيرة أخرى

فى هذه الأيام. أتركه وأنا أحس بالبلادة، مثل رجل ضل طريقه
منذ بعيد، إلا أنه يصر على المضى فى طريق طويل قد لا
يؤدى إلى أى مكان.

* * *

كوتزى J.M. Coetzee

ولد جى. أم. كوتزى فى كيب تاون، جنوب أفريقيا، عام ١٩٤٠. تلقى تعليمه فى جنوب أفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية.

يحاضر حاليا فى جامعة كيب تاون بالإنكليزية (علم اللغة والأدب).

له عدد من الروايات المطبوعة إضافة إلى ترجمته لعدد من الدراسات اللغوية والمقالات النقدية.
من رواياته:

١- حياة وأحوال مايكل ك The Life & Times of Michael K

٢- بلاد الغسق (١٩٧٤) Dusklands

٣- فى قلب الوطن (١٩٧٧) In the Heart of the Country

نالت:

- الجائزة الأدبية الأولى فى جنوب أفريقيا

- جائزة CNA

٤- فى انتظار البرابرة Waiting For The Barbarians

نالت:

- الجائزة الأدبية الأولى فى جنوب أفريقيا

- جائزة جودفري

- جائزة CNA

- نشرت فى بنغوين ١٩٨٠
- أعيد طبعها فى الأعوام ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥
- جائزة البوكرز ١٩٨٣
- أحدث رواياته:

Disgrace ٥- خزى

نالت:

- جائزة البوكرز ١٩٩٩
- جائزة كتاب رابطة الكومنولث للأدب المكتوب بالإنكليزية
(نيسان ٢٠٠٠)

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد برويش
٢ - لوثية وإسلام	ك. مامو باييكار	ت . أحمد فؤد بليغ
٣ - التراث لسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة سيناريو	انجا كاريكتكونا	ت : أحمد لحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات لبحث للسانى	ميلكا فيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - علوم إنسانية وفلسفة	لوسيان غولمان	ت : يوسف لاملكى
٨ - مشعلو لحرانق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - لتغيرت لبيشة	أندرو س. جردى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب لحكاية	جير ر جينيت	ت : محمد مقصم وجد الجليل لآلى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسرافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق لحرير	ديفيد بر ونستون وايرين فرك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة لساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد لوهاب علوب
١٤ - لتطيل لتفسى ولألب	جان بيلمان نويل	ت : حسن لودن
١٥ - الحركات الفنية	إبور د لويس سميث	ت : شرف رفيق عطيفى
١٦ - ثينة لسوداء	مارتن برنال	ت : ياشرف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - لشعر لتسانى فى أمريكا للاتيفية	مختارات	ت . طلعت شاهين
١٩ - لأعمال لشعرية لكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة لعلم	ج. ح كر وثر	ت. يمنى طريف لخلوى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وكف خوخة	صمد بهرنجى	ت . ماجدة لعنالى
٢٢ - مذكرت رحالة عن لمصريين	جون نكتيس	ت : سيد أحمد على لتامري
٢٣ - تجلى لجميل	هلتز جيورج جاد مر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال لتستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مشرى	مولانا جلال الدين الرومى	ت . برهيم لتسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين فيكل	ت . أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - لتنوع البشرى لخلق	مقالات	ت : نخبه
٢٨ - رسالة فى لتسامح	جون لوك	ت . منى بوسنه
٢٩ - الموت ولوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر لبيب
٣٠ - لوثية والإسلام (ط٢)	ك. مامو باييكار	ت : أحمد فؤد بليغ
٣١ - مصادر دراسة لتاريخ لإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت . عبد لتار لطويجى / عبد لوهاب علوب
٣٢ - لتقرض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - لتاريخ لتعصلى لإفريقيا لتربية	أ. ح. هويكز	ت : أحمد فؤد بليغ
٣٤ - لتربية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المتيف
٣٥ - لاسطورة ولحد ح	بول ب. ديكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	ولاس مارتن	ت . حياة حاسم محمد
٢٧ - وحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت . جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد أحداث	آن تورين	ت : نور معيث
٢٩ - لإعريق ولصد	بيتر ولكوت	ت . منيرة كرون
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت . محمد عيد , برهم
٤١ - ما بعد المركزية لأوربية	بيتر جرن	ت عاطف لصد / برهم فتحى / مصد ملجد
٤٢ - عالم مال	بنجامين بارير	ت . أحمد محمود
٤٣ - الهب لزواج	وكتافيو پاث	ت . لهدى خريف
٤٤ - بعد عدة ضياف	كروس هكسلى	ت . مارلين تانرس
٤٥ - اقو ث لغدور	روبرت ح دنيا - جون ف فاين	ت . أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرود	ت . محمود اسيد على
٤٧ - تاريخ نقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليل	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرنسوا دوما	ت . ماهر جويجاتى
٤٩ - إسلام فى لبلقان	ه . ت . نوريس	ت . عبد لوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو لقول لاسير	جمال الدين من لشيخ	ت . محمد بركة وعثمانى ليلو ويوسف لاسكى
٥١ - مسار لروية لإسبانو أمريكية	د ريو بيانونيا وح م بيتياليستى	ت . محمد نو اعطا
٥٢ - علاج لنفسى لتدعيمى	بيتر ن . نوفاليس وستيفن . ح .	ت . لطفى فطيم وعادل دمردش
٥٣ - انرما وتطعيم	روچسيفيتز وروجر بيل	ت . مرسى سعد دين
٥٤ - المفهوم لإغريقى للمسرح	ف . ف ليجتون	ت . محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	ج مايكل ولتون	ت . على يوسف على
٥٦ - لأعمال لشعرية لكاملة (١)	جون بولكجهوم	ت . محمود على مكى
٥٧ - لأعمال لشعرية لكاملة (٢)	فديريكو عرسية لوركا	ت . محمود اسيد ، ماهر لبطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو عرسية لوركا	ت . محمد نو اعطا
٥٩ - لصبرة	كارلوس مونيث	ت . اسيد اسيد سهيم
٦٠ - لتصميم ولشكل	جوهانز يتين	ت . صبرى محمد عبد لغنى
٦١ - موسوعة علم لإتسان	شارلوت سيمور - سميث	مرحمة و شرف . محمد لجوهري
٦٢ - أداة لنص	رولان بارت	ت . محمد خير لبقاعى .
٦٣ - تاريخ نقد لادبى لحدث (٢)	رييه ويليل	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برترند رسل (سيرة حياة)	لان وود	ت . رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح لكسل ومقالات أخرى	برترند رسل	ت . رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات تئلاسية	طوبيو جالا	ت . عبد لطيف عبد لطيم
٦٧ - مختارات	فرناندو ييسو	ت . لهدى أخريف
٦٨ - تتاشا لحدو وقصص أخرى	فالتين ر سبوتس	ت . أشرف لصباغ
٦٩ - لعلم لإسلامى فى أول قرن لشرين	عبد لرشيد برهم	ت . أحمد فود متولى وهويد محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة مريكا اللاتينية	وحينيو تشامح روبريچت	ت . عبد لعيد غلاب وحمد حشار
٧١ - لسيدة لا تصلح , لا للرمى	د ريو فو	ت . حسين محمود

- ٧٢ - سياسى لعجوز
٧٣ - نقد ستجاة لقارئ
٧٤ - صلاح لعين ولعاليك فى مصر
٧٥ - فن لترحم واسير لذتية
٧٦ - چال لاكان ووعاء لتحليل لعصى
٧٧ - تاريخ لنقد لانسى لحديث ج ٢
٧٨ - لعولة لظاهرة لاجتماعية ولثقافة لكوفية
٧٩ - شعرية لتأليف
٨٠ - بوشكين عند «ماقورة لعموع»
٨١ - لاصاعات لمتخيلة
٨٢ - مسرح ميجيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة لادب ولنقد
٨٥ - منصور لالحاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون ولقلم
٨٨ - الانتلاء مالتقرب
٨٩ - لطريق لثالث
٩٠ - رسم السيف (قصص)
٩١ - لسرح ولتجريبين لظاهرة ولتطبيق
٩٢ - ساليب ومضامين لمسرح
لإسماعيل امريكى لعاصر
٩٣ - محدثات لعولة
٩٤ - لعب الاول واصحة
٩٥ - مختارات من لسرح لإسياننى
٩٦ - ثلاث رسقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)
٩٨ - اهم الإنسانى ولابترز لصهيونى
٩٩ - تاريخ لسيما لعالية
١٠٠ - مساعاة لعولة
١٠١ - لنص لروئى (تقنيات ومباحث)
١٠٢ - لسياسة ولتسامح
١٠٣ - قمر بن عربى يليه «ياء»
١٠٤ - اوير ماهوجنى
١٠٥ - منخل لى لنص لجامع
١٠٦ - لادب لانسى
١٧ - صورة لادب لى لسرح لأمريكى لعاصر

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر لثلاثي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ - حروب ليا	جون بولواه وعادل برويش	ت : هاشم محمد محمد
١١٠ - لنساء في عالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين يبراهيم
١١٢ - الاحتجاج لهادي	أرلين علوي ماركليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - رية لتمرد	سادى بلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيات حماد كوي وحسن استق	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (برية شفيق)	سينثيا تلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - امرأة ولجنوسة في إسلام	إيلي أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - لنساء ولأسرة وقوانين لطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - حركة نسائية والتطور في شرق الأوسط	إيلي أبو لغد	ت : نخبه من المترجمين
١٢١ - دليل لصغير في كتابة امرأة عربية	فاطمة موسى	ت : محمد لجندى ، وإيزيل كمال
١٢٢-تظلم العربية تقيم ونموذج لآلسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كرون
١٢٣-إسرحية لثلاثية وعلاقاتها الدولية	نيلز الكسندر وفنادولينا	ت : أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - لقبحر لكاذب	جون جري	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - لتحليل لموسيقى	سيريك ثورپ ديفي	ت : سمحه الخولي
١٢٦ - فعل لقرعة	فولفغانج ريسر	ت : عبد الوهاب طوب
١٢٧ - رهاب	صفاء فتحي	ت : بشير اسباعي
١٢٨ - لأب لمارن	سوزان ياسنيت	ت : أميرة حسن نورة
١٢٩ - لرواية لاسبانية المعاصرة	ماريا دولوريس أسيس جارو	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - لشرق يصعد ثالثة	أندريه جوتنر فر تك	ت : شوقي جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ لاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة لعولة	مايك فينرستون	ت : عبد الوهاب طوب
١٣٣ - لخوف من المرأ	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - لخطر من قدس ليه (ثلاثه لمرام)	ت. س. رايوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو لاشا	كينيث كرون	ت : سحر توفيق
١٣٧ - متكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري موريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ - علم لثلاثين بين لصال ولصف	يافينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - باريسفان	ريشارد فاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل لجنورى
١٤١ - ثلثا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - لإسكتندرية تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ - قضايا التطور في البحث الاجتماعى	بيريك لايدر	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة للوكاتدة	كارلو جوفانونى	ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت رُتيميو كروث كارلوس فويتس
- ١٤٦ - لورقة لحرء ميجيل دى ليس
- ١٤٧ - خطبة لإرنة لطويلة تانكريد نورست
- ١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) نريكي ندرسون مبرت
- ١٤٩ - نظرية شعرية عد لويت وأونيس عاطف فصول
- ١٥٠ - لتحربة لإغريقية روبرت ح. ليمان
- ١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ح ١) فرانس بربول
- ١٥٢ - عدلة لهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب
- ١٥٣ - عرم لفرعة فيولين قاتويل
- ١٥٤ - مدرسة فنكفورت هيل سليتر
- ١٥٥ - لشعر لأمريكي لعاصر نخبة من لشعراء
- ١٥٦ - لدرس الجمالية الكبرى جى تبال ولان ووديت فيرمو
- ١٥٧ - خسرو وشيرين لنظامى الكوحي
- ١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ح ٢) قرنن بربول
- ١٥٩ - لإيبولوجية ديفيد هوكس
- ١٦٠ - آلة لطبيعة بول بيرليش
- ١٦١ - من لمسرح لإسباني ليحاندرو كاسونا ونطونيو جالا
- ١٦٢ - تاريخ الكنيسة يوحنا لاسيوى
- ١٦٣ - موسوعة علم لاجتماع ح ١ جورنون مارشال
- ١٦٤ - شامپوايوس (حياة من نور) جان لاكوثير
- ١٦٥ - حكايات لثطب ن فانا سيعا
- ١٦٦ - للافلاس لتيبي والطبيب لى سربيل يشعياهو ليتمان
- ١٦٧ - فى عالم طاعور رسدات طاغور
- ١٦٨ - لرسات فى لأدب ولثقافة مجموعة من المؤلفين
- ١٦٩ - بدعات أدبية مجموعة من لبدعين
- ١٧٠ - لطريق ميجيل دلييس
- ١٧١ - وضع حد فريل بيجو
- ١٧٢ - حجر لشمس مختارات
- ١٧٣ - معنى لجمال ولترت . ستييس
- ١٧٤ - صناعة لثقافة لسوءء يليس كاشمور
- ١٧٥ - لثيفزيون فى حياة ليومية لورينزو فيلشس
- ١٧٦ - نحومفهوم للاقتصاديات ليئية توم تيتنبرج
- ١٧٧ - نطون تشيخوف هنرى ترويا
- ١٧٨ - مقارنات من لشعر ليهلى لحيث محبة من لشعراء مغلر
- ١٧٩ - حكايات أيسوب أيسوب
- ١٨٠ - قصة جاويد سماعيل فصيح
- ١٨١ - لنقد لأدبى لأمريكي فنستت . ب . ليتش
- ت : أحمد حسان
- ت : على عبد لرؤوف لسمى
- ت . عبد لتقار مكاوى
- ت : على بر هيم على متوفى
- ت : سامة سبر
- ت - منيرة كرون
- ت : بشير لسباعى
- ت : محمد محمد لخطابى
- فاطمة عبد الله محمود
- ت خليل كلفت
- ت . أحمد مرسى
- ت مى لتلمسانى
- ت عبد لعزیز نقوش
- ت . بشير لسباعى
- ت بر هيم فتحي
- ت حسين بيومى
- ت . زيد ن عبد لطيم زيد ن
- ت صلاح عبد لعزیز محجوب
- ت بإشرف . محمد لحوهرى
- ت - نبيل سعد
- ت : سهير لصانقة
- ت . محمد محمود بوغدير
- ت . شكرى محمد عياد
- ت . شكرى محمد عياد
- ت - شكرى محمد عياد
- ت . بسام ياسين رشيد
- ت هدى حسين
- ت . محمد محمد الخطابى
- ت . امام عبد لفتاح إمام
- ت . أحمد محمود
- ت . وجيه سمعان عبد لاسيح
- ت جلال لبنا
- ت - حصية برهب سيف
- ت : محمد حمدر
- ت : امام عبد لفتح
- ت : سالم عبد لأمير حمد ن
- ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - لعنف و لسيوة و . ب . بيتس
- ١٨٣ - چان كوكو على شاشة سينما رينيه چيلسون
- ١٨٤ - لقاهرة .. حالة لا تنام هانز إيتدورفر
- ١٨٥ - أسفار لعهد القديم توماس تومسن
- ١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنوود
- ١٨٧ - لأرضة يوزج علوي
- ١٨٨ - موت لأب الفين كرنان
- ١٨٩ - لعنى والبصيرة بول دي مان
- ١٩٠ - محاورات كوتفوشيويس كوتفوشيويس
- ١٩١ - لكلام رأسمال احاج أولوكر إليم
- ١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيل زين العابدين الراعى
- ١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
- ١٩٤ - مختارات من نقد لأجلو - ليريكى مجموعة من النقاد
- ١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
- ١٩٦ - لهلة لأخيرة فالتين راسبوتين
- ١٩٧ - الفاروق شمس لعلاء شبلى التعمانى
- ١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إيوين إمري وآخرون
- ١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة لشامية يعقوب لاتداوى
- ٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبروك
- ٢٠١ - الجانب لعينى للفلسفة جوزيا رويس
- ٢٠٢ - تاريخ نقد الأنى الحديث ج١ رينيه ويليك
- ٢٠٣ - لشعر والشاعرية الطاف حسين حالى
- ٢٠٤ - تاريخ نقد لعهد القديم ز مان شازر
- ٢٠٥ - لحيئات والشعوب ولغات لويجى لوقا كافالى - سفورز
- ٢٠٦ - الهيوالية تصنع علماً جديداً جيمس جلايل
- ٢٠٧ - ليل إفريقى رامون خوتاستندير
- ٢٠٨ - شخصية ليريكى فى لشرح لإسرائيلى دان أوريان
- ٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
- ٢١٠ - مشويات حكيم سنائى ستافى القزنوى
- ٢١١ - فريبتان نوسوسير جوناثان كلر
- ٢١٢ - قصص لأمير مرزيان مرزيان بن رستم بن شروين
- ٢١٣ - صورة قوم تلحى خروجل جلالمر ريمون فلاور
- ٢١٤ - لرايد جديلة الفنوع فى علم الاجتماع أنتونى جيبترز
- ٢١٥ - سيلحت نلمه إبراهيم بيك ج١ زين العابدين الراعى
- ٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
- ٢١٧ - عولة السياسة لعالمية جون بايلس وستيث سميث
- ٢١٨ - رايدلا خوايو كورتازان
- ت . ياسين طه حافظ
- ت . فتحى لعشرى
- ت : يسوقى سعيد
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت . مام عبد الفتاح مام
- ت . علاء منصور
- ت . بدر الدين
- ت . سعيد لقانمى
- ت : مصسن سيد فرجاني
- ت : مصطفى حجازى السيد
- ت . محمود سلامة علاوى
- ت . محمد عبد الواحد محمد
- ت . ماهر شفيق فريد
- ت . محمد علاء الدين منصور
- ت : أشرف الصباغ
- ت : جلال لسعيد الحفناوى
- ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
- ت : جمال أحمد لرفاعى وأحمد عبد الطيف حماد
- ت . فخرى ليب
- ت : أحمد لأمصارى
- ت : مجاهد عبد لنعم مجاهد
- ت . جلال لسعيد الحفناوى
- ت . أحمد محمود هويدي
- ت . أحمد مستجير
- ت . على يوسف على
- ت : محمد أبو لعلا عبد الرؤوف
- ت : محمد أحمد صالح
- ت : أشرف الصباغ
- ت : يوسف عبد الفتاح فرج
- ت . محمود حمدي عبد الفنى
- ت : يوسف عبد الفتاح فرج
- ت : سيد أحمد على الناصرى
- ت . محمد محمود محى لبنين
- ت : محمود سلامة علاوى
- ت . أشرف الصباغ
- ت . وجيه سمعان عبد المسيح
- ت : على إبراهيم على منولى

٢١٩ - بقايا ليوم	کازو یشجوری	٢ : طلعت لشایب
٢٢٠ - لهیوایة فی الکون	باری مارکر	٢ : علی یوسف علی
٢٢١ - شعریة کفامی	جریجوری جوزد نیس	٢ : رفعت سلام
٢٢٢ - فر نر کافکا	روبالد جرای	٢ : نسیم مجلی
٢٢٣ - العلم فی مجتمع حر	بول فیر بنر	٢ : السید محمد نعلدی
٢٢٤ - ہمار یوغسلافیا	یرانکا ماجاس	٢ : منی عبد الظاهر إبرہیم السید
٢٢٥ - حکایة غریق	جابریل جاورثیا مارکٹ	٢ : السید عبد الظاهر عبد اللہ
٢٢٦ - أرض لساء وقصائد أخرى	دیفید ہریت لورنس	٢ : طاہر محمد علی لبربری
٢٢٧ - المسرح الإنجلی فی القرن السابع عشر	موسی مارڈیا نیف ہورکی	٢ : السید عبد الظاهر عبد اللہ
٢٢٨ - علم الجمالیة وعلم اجتماع الفن	جانیٹ وولف	٢ : ماری تیریز عبد السبع وخالد حسن
٢٢٩ - مائزق لبطال لوحید	نورمان کیمان	٢ : امیر ابراہیم لمری
٢٣٠ - عن انبیا و الفنون و البشر	فر سوز جاکوب	٢ : مصطفی إبرہیم فہمی
٢٣١ - الدرافیل	خایمی سالوم بیدال	٢ : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستینر	٢ : مصطفی ابراہیم فہمی
٢٣٣ - فكرة لاضمحلال	آرثر میرمان	٢ : طلعت لشایب
٢٣٤ - لإسلام فی السودان	ج سینسر تریمنجہام	٢ : فوز محمد عکود
٢٣٥ - دیوان شمس التبریزی	جلال الدین مولوی رومی	٢ : ابراہیم لوسوقی شتا
٢٣٦ - لولایة	میشیل تود	٢ : أحمد لطیف
٢٣٧ - مصر أرض لودی	روین فینین	٢ : عنایات حسین طلعت
٢٣٨ - لعولة والتحریر	لاتکتاد	٢ : یاسر محمد جاد اللہ وعربی منبوی أحمد
٢٣٩ - لعرسی فی لائب لاسر نیلی	جیلار فر - ریوخ	٢ : ثلایة سلیمان جلفظ ولہاب صلاح فائق
٢٤٠ - الإسلام والقرب و مکاتبة لحوار	کامی حافظ	٢ : صلاح عبد العزیز محمود
٢٤١ - فی انتظار لبربرة	ک م کویتز	٢ : ایتسام عبد اللہ سعید

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٠٤٧ / ٢٠٠١

Waiting for the Barbarians

By J.M.Coetzee



Waiting for the Barbarians

12.00

Waiting for the Barbarians